

د. رفعت الأنصاري

حكايتي في تل أبيب

أسرار دبلوماسي مصري

الدار المصرية اللبنانية

أن تكون دبلوماسيًّا، فهذا أمر عادي، أما أن تكون دبلوماسيًّا مصريًّا في «تل أبيب»، فهذا أمر محفوف بالمخاطر، ومحاط بالشك والريبة!

وبين المخاطر، والشك، يدور هذا الكتاب، الذي يروي فيه كاتبه السفير د. رفعت الأنصاري حكايته في تل أبيب، حين كان يعمل في سفارتنا هناك، فوضعته أجهزة الأمن الإسرائيلية - خاصة الموساد والشين بيت - تحت المراقبة منذ لحظة وصوله، ورصدته طوال فترة عمله لاصطياده، وعندما فشلت في ذلك قرَّرت أن تكون المواجهة الحاسمة، حيث حاولت اغتياله ثلاث مرات للتخلص منه نهائيًّا.. أما لماذا خصَّته أجهزة الأمن الإسرائيلية بهذا القدر من الشك والتربُّص، فالإجابة سهلة، يرويها «الأنصاري» ببساطة في هذا الكتاب، الذي يكشف جانبًا مهمًّا من حقيقة المجتمع الإسرائيلي، في الفترة التي عمل بها هناك، كما يفضح أسلوب المخابرات الإسرائيلية في الاغتيالات وتنفيذ العمليات العدائية، وهو الأسلوب الذي لم يتغير رغم مرور السنين.

إنه كتاب يستحق أن يُقرأ، يُعرِّي فيه «الأنصاري» المجتمع الإسرائيلي، من خلال علاقاته الوطيدة التي أقامها مع إسرائيليين، وإسرائيليات، واستطاع من خلالها كشف مخططات إسرائيل العدائية تجاه العرب، ولم تسامحه أجهزة الأمن الإسرائيلية على هذا الأمر، فبدأت في مطاردته للانتقام منه، لكن السلطات المصرية نجحت في إعادته إلى مصر سرًّا.



السفير د. رفعت الأنصاري، من مواليد القاهرة في 15 نوفمبر 1949م التحق بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية المصرية في عام 1974م وتدرَّج في المناصب الدبلوماسية من ملحق إلى سفير ممتاز حيث عمل في السفارات المصرية في كل من: لندن - تل أبيب - فيينا - بودابست - النيجر، ثم انتقل للعمل كسفير لمصر في كل من: إريتريا - كينيا وسيشيل - ألبانيا، وتقلَّد منصب مدير الإدارة العامة للإعلام والصحافة إلى حين تقاعده في نوفمبر 2009م. ثم عمل كمستشار سياسي للسيد عمرو موسى خلال الحملة الانتخابية الرئاسية وحتى الآن إضافة إلى عضويته في المكتب السياسي ورئاسته للجنة العلاقات الخارجية بحزب الشعب الجمهوري وحتى تاريخه. متزوج وله ابن وابنة.
حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي عام 1991م.
refaatansary@yahoo.com



9 789774 279539

الدار المصرية اللبنانية

حكايتي في تل أبيب

أسرار دبلوماسي مصري

الأنصاري ، رفعت.
حكايتي في تل أبيب: أسرار دبلوماسي مصري / رفعت الأنصاري
.- ط2.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
384 ص؛ 21 سم.
تدمك: 9 - 953 - 427 - 977 - 978
1- الأنصاري، رفعت - المذكرات الشخصية
أ- العنوان. 920
رقم الإيداع: 26623 / 2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع أول 1436 هـ - يناير 2015م
الطبعة الثانية: ربيع آخر 1436 هـ - فبراير 2015م

تحرير: أحمد كمال زكي

السفير د. رفعت الأنصاري

حكايتي في تل ابيب

أسرار دبلوماسي مصري

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

أُهدي هذا الكتاب إلى روح والدي المرحوم الدكتور علي رفاعة الأنصاري، الذي أوحى لي بفكرته فور عودتي من تل أبيب.

فقد كنت موجودًا في القاهرة لأستعد لتنفيذ نقلي إلى ڤيينا عاصمة النمسا، وفي أثناء ذلك اتصل بي والدي من جدة في السعودية - حيث كان يعمل أستاذًا في جامعة الملك عبد العزيز - وعندما عرف أنني موجود في القاهرة لشهر ونصف الشهر قبل السفر، سألني: «هل تتذكر الأحداث والذكريات كافة التي مررت بها في تل أبيب؟»، فأجبته بأنني أتذكرها وبالتفصيل، فرد قائلًا: «إذن أنصحك بأن تقوم بتسجيل كل الأحداث التي مررت بها في إسرائيل على جهاز تسجيل؛ فربما تحتاج إلى هذه المعلومات لو قرَّرت كتابة ذكرياتك عن فترة عملك هناك».

وبعد انتهاء المكالمة أخذت بنصيحة أبي، وبدأت في تسجيل ذكرياتي هناك، ولم أترك صغيرة ولا كبيرة، حتى وصل عدد الشرائط المسجلة إلى أحد عشر شريطًا، مدة كل شريط ساعة ونصف الساعة، تضمنت أصغر وأدق التفاصيل التي حدثت لي منذ صدور قرار نقلي إلى تل أبيب، وحتى عودتي إلى القاهرة.

ورغم تنفيذ نصيحة والدي، إلا أنني لم أكن أتوقع أن تكون هذه الشرائط مصدرًا أساسيًّا لكتاب عن فترة عملي في تل أبيب، وقد كان والدي - بالنسبة لي - صديقي، وملاذي في أوقات الشدة، ومعلمي وأستاذي؛ فقد كان رجل فلسفة ومنطق، له فلسفته الخاصة في الحياة، وله منطقه في تحليل الأحداث وربطها بعضها ببعض، وقد أثَّرت شخصيته - لا شك - على تكوين شخصيتي في مختلف مراحلها، وكم أفتقده ـ رحمة الله عليه ـ منذ رحيله في عام 1998، ولذلك أهدي لروحه هذا الكتاب الذي استغرق إعدادُه ستة أعوام، من أجل الحصول على الموافقات الرسمية المطلوبة للنشر.

د. رفعت الأنصاري

مقدمة

يتضمَّن هذا الكتاب سردًا لقصصٍ حقيقيةٍ حدثت في أثناء فترة عملي بالسفارة المصرية في تل أبيب، كما يحتوي على ردٍّ وتوضيحٍ لبعض الأخبار التي تم تداولها بطريقة خاطئة ـ عمدًا ـ في الإعلامين الإسرائيلي، والبريطاني، ولم أستطع الرد عليها بسبب استمراري في العمل كدبلوماسي بالخارجية المصرية، الأمر الذي حتَّم عليَّ الانتظار أكثر من ثلاثين عامًا، ولحين تقاعدي من العمل الدبلوماسي، حتى أستطيع الرد عليها!

وقد أقدمت على نشر هذا الكتاب لأُحقق عدة أهداف:

الأول: أن يكون سردًا لتجربتي كدبلوماسي عمل بسفارة مصر في تل أبيب، من خلال تقديم عرضٍ يفتح آفاقًا جديدة للدبلوماسيين المصريين، وربما العرب أيضًا، الذين عملوا، أو يعملون، أو سيعملون مستقبلاً كدبلوماسيين في تل أبيب.

الثاني: تقديم صورة حقيقية للقارئ عن المجتمع الإسرائيلي من الداخل، بسياساته، ومؤسساته، وطوائفه، وفئاته، وأعراقه المختلفة، وذلك من وجهة نظري كدبلوماسي مصري عاش، وتعايش، وانغمس، وتوغَّل، ونفذ إلى أعماق هذا المجتمع ومؤسساته، على الرغم من قصر فترة إقامتي هناك،تلك

الصورة التي سيدرك القارئ من خلالها مدى عدم تجانس هذا المجتمع، الذي يتكوَّن من أكثر من ستين جنسية مختلفة الطباع، والأعراف، والعادات، والتقاليد، واللغات، والخلفيات التاريخية والعقائدية.

الثالث: تبرئة ساحة زميلتي الدبلوماسية البريطانية رونا ريتشي، التي عملت كسكرتير أول للسفارة البريطانية بإسرائيل في أثناء فترة عملي بسفارتنا في تل أبيب، واتُّهمت ظلمًا بالتجسُّس لصالح مصر، وأُلقي القبض عليها وقُدِّمت للمحاكمة في بريطانيا، واضطرت للاستقالة من الخارجية البريطانية، وواجهت حكمًا بالحبس، وانتهى عملها كدبلوماسية لامعة، وأعتقد أنه قد حان الوقت لإثبات براءتها واستعادة كرامتها ومحو وصمة العار التي لحقت بها من جرَّاء ذلك.

وفي هذا السياق، أود أيضًا أن أنفي انتمائي إلى جهاز المخابرات العامة المصرية، وهو شرف لا أدعيه؛ وقد نفيت هذا الأمر مرَّات عدة، لكن هذا الشرف بانتمائي لهذا الجهاز العريق، ظلَّ يُلاحقني، ويلتصق بي، من خلال أكثر من مائة مقال، وأحد عشر كتابًا متخصصًا في عالم الجاسوسية، بل وحتى في دائرة معارف الجواسيس والجاسوسية، وقد تم تداول قصتي فيها باعتباري عضوًا في جهاز المخابرات المصري، رغم أن القارئ – خاصة العربي – سيتحقق بقراءته لهذا الكتاب، من إمكانية الحصول

على معلومات في غاية السرية من المؤسسات الإسرائيلية، والأفراد، دون اللجوء إلى العمل السري المخابراتي، وهذا ما حدث معي، فقد عملت منذ بداية حياتي، وحتى تقاعدي، كدبلوماسيٍّ محترفٍ، تقلَّد وتدرَّج في المناصب كافة، ولا أدَّعي شرف الانتماء إلى جهاز المخابرات العامة المصرية، ولم أُكلَّف بأي مهام مخابراتية من أجهزة الأمن المصرية.

وأؤكد أن ما قمت به في إسرائيل كان بمجهود ومبادرة شخصية مني، دون تكليفٍ بذلك، على الرغم من تناول أجهزة الإعلام الأورُوبية والإسرائيلية لقصتي بشكلٍ مثيرٍ ومُسيءٍ، في حين أعربت الخارجية المصرية عن امتنانها بدليل أنني أكملت مشوار عملي إلى نهايته بنجاحٍ تامٍّ.

وفي ثنايا هذا الكتاب، سيجد القارئ أحداثًا شيقة، ومواقف مثيرة تعرَّضت لها في إسرائيل، وأود أن أنوه بأنني لن أستطيع الإشارة صراحة إلى أسماء ومواقع مصادري الحقيقية في إسرائيل، حفاظًا على سلامتهم ودرءًا لتتبع أجهزة الأمن الإسرائيلية لهم، على الرغم من مرور ما يزيد على ثلاثين عامًا على هذه الأحداث، وأحسب أن القارئ سيتفهَّم ما يُرافق هذه الأمور من تعقيدات، تجعل من الصعب تجاوز الحدود في الكشف عن هوية المصادر، لمجرد إرضاء الغرور أو الفضول.

1

النشأة والتكوين

*علاقات أسرية قوية :

وُلدتُ في القاهرة يوم 15 نوفمبر 1949، وكانت نشأتي تتميز بالعلاقات الأسرية القوية، والروابط العميقة بين الوالدين والأشقاء والأقارب، وأثناء دراستي بالمرحلة الابتدائية، نُقل والدي - الذي كان يعمل بوزارة التعليم العالي - للعمل كمستشارٍ ثقافي بسفارتنا في بغداد عام 1958، وبالطبع انتقلت العائلة معه، والتحقت بمدرسة الملك فيصل الابتدائية في بغداد، وأذكر أن السيد كمال الدين حسين، وزير التعليم في مصر ـ آنذاك ـ قد قام بزيارة للعراق، وأقام والدي حفل عشاء كبير على شرفه، وبعد انصراف المدعوين جلست معه - وكنت في الثامنة من عمري تقريبًا - وبدأت أتحدث عن سفن الفضاء، والاكتشافات العلمية، والمعلومات التي تداولتها الصحافة بعد إطلاق أول سفينة فضاء سوفييتية عام 1957، كما تحدثت معه عن نظم التسليح التي قرأت عنها، وقد أبدى اندهاشه من حجم المعلومات التي ذكرتها، خاصة مع خلفيته السابقة كضابط بالقوات المسلحة، وأذكر أنه علَّق على ذلك قائلًا لوالدي: «أليس صغيرًا للتحدث في هذه الموضوعات؟ أليس من الواجب أن تدعه ينعم بطفولته؟!»، وأجاب والدي قائلًا: «هذا صحيح، ولكن ماذا أفعل معه؛ فهو ينتظر يوم الخميس بفارغ الصبر حتى أُعطيه حصتي من الصحف المصرية اليومية التي يتم إرسالها بالحقيبة للاطلاع عليها، كما أنني اشتريتُ له موسوعة علمية خاصة بالأطفال مكونة من ثلاثة عشر جزءًا قرأها بالكامل، وخاصة الأجزاء المتعلقة بالفضاء

الخارجي ونُظم التسليح!»، فضحك الوزير مرددًا: «ربما سيكون له شأن ويصبح عالم فضاء أو ضابطًا متميزًا في القوات المسلحة».

وقد أُتيح لي في كل مرحلة من مراحل حياتي المبكرة لقاء العديد من الملوك والرؤساء والوزراء، وكان ذلك قدري منذ طفولتي، وأذكرُ أنه في عام 1958 قام جلالة الملك فيصل، عاهل المملكة العراقية، بزيارة مدرستي الابتدائية - والتي تحمل اسمه - وتصادف أن تكون هذه الزيارة هي آخر عمل رسمي قام به قبل اندلاع أحداث ثورة يوليو عام 1958 بقيادة عبد الكريم قاسم في العراق، وهي الثورة التي أسفرت عن مقتل الملك فيصل، وعبد الإله - الوصي على العرش - ونوري السعيد رئيس الوزراء العراقي وقتها، ويشاء القدر - وأنا في هذا العمر - أن أشهد بنفسي هذه الأحداث، ويشاء القدر أيضًا أن أكون في السيارة مع والدي، بعد أن تم استخراج جثة نوري السعيد من مقبرته، وتم التمثيل بها ووضع هيكلها العظمي في شارع الرشيد وسط المدينة، وأُجبرت السيارات كافة على دهس الجثة، وإلا تم تحطيم السيارة من جانب جمهور المحتشدين، وما زلت أتذكر صوت «قعقعـة» عظام الجثة عندما اضطر سائق السيارة لدهسها مجبرًا.

وبعد هذه الأحداث، عُدنا مع والدي وبقية أفراد السفارة إلى القاهرة، إثر قطع العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وبغداد في مارس 1959، وبعد أقل من عام نُقل والدي للعمل مستشارًا ثقافيًا بسفارة مصر في مقديشيو عاصمة الصومال، وكان السفير في ذلك الوقت هو الدكتور محمد حسن الزيات - وزير الخارجية لاحقًا - وفي نهاية عام

1963 عدنا إلى القاهرة، ثم سنحت لوالدي في نهاية عام 1964 فرصة الإعارة كأستاذ جامعي ليشغل منصب رئيس قسم إدارة الأعمال في كلية الاقتصاد والإدارة بالجامعة الليبية في بنغازي، ولم يتردد والدي في قبول هذا العرض من وزارة التعليم العالي، وكان وقتها يشغل منصب وكيل الوزارة للعلاقات الثقافية.

*الانتقال إلى ليبيا ولقاءاتي مع القذافي:

أنهيتُ دراستي الثانوية في ليبيا، والتحقت بالجامعة الليبية، وكان لي نشاط رياضي وثقافي، حيث عام شاركت في انتخابات اتحاد الطلبة، ونجحت وأصبحت عضوًا بالاتحاد.

وكنت أتردَّد بصفة منتظمة في عامي الجامعي الثالث (1968 - 1969) على المركز الثقافي المصري للاطلاع على الصحف والمجلات المصرية، إضافة إلى كونه «ملتقى الشباب المصري» المقيم في بنغازي، وقد تعرَّفت في هذا المركز على ضابط ليبي شاب، أصبح ذا شأن في التاريخ الليبي بعد ذلك، هو العقيد معمر القذافي، حيث كنا نلتقي بشكلٍ منتظمٍ طوال أربعة أشهر، وكان والدي يطلب مني الذهاب إلى المركز الثقافي في موعدٍ محدَّد، هو غالبًا موعد حضور هذا الضابط الليبي إلى المركز، وقد علمت فيما بعد أن مدير المركز كان قلقًا من تواجد القذافي - وكان وقتها ملازمًا أول في الجيش الليبي - الذي يحضر إلى المركز أحيانًا بملابسه العسكرية، ما أثار تساؤلات أجهزة

الأمن الليبية عمّا يفعله الضابط الليبي في هذا الموقع، وقد ألمح مدير المركز لوالدي عن رغبته في تواجدي في تلك الفترة بعد أن لاحظ تنامي الصداقة بيني وبين الضابط الليبي الشاب.

وكنت قد التقيت معمَّر قذّاف الدم في المركز للمرة الأولى، وعمره 28 عامًا تقريبًا، وقدَّم لي نفسه على أنه ملازم أول بالقوات المسلحة الليبية، وذكر لي أنه يعمل في قاعدة عسكرية بمدينة طبرق، وأنه يحضر إلى بنغازي في إجازته الأسبوعية كل يوم خميس، وقال إنه حريص على الحضور إلى المركز الثقافي المصري للاطلاع على الصحف المصرية، وبعد أن عرَّفته بنفسي، قال إنه طالب منتسب في كلية الآداب، قسم التاريخ، وإنه في السنة الثالثة، ومن ثمَّ فإن حضوره إلى بنغازي هدفه أيضًا الحصول على محاضرات الأسبوع المنصرم، وتكررت لقاءاتنا في الفترة من مارس إلى يونيو 1969، وكان القذافي يتحدث معي خلال لقاءاتنا المتكررة عن القومية العربية، وإمكانيات الوحدة، مضيفًا أن الزعيم الوحيد القادر على تحقيقها هو الرئيس جمال عبد الناصر، على الرغم من نكسة 1967، كما كان يتحدث عن قوة العالم العربي العسكرية والسياسية والاقتصادية في حالة تحقيق الوحدة.. وقد كان حديثه - بالنسبة لشابٍّ في عمري - شيقًا ومثيرًا.

وكان القذافي شغوفًا وحريصًا على معرفة كل ما يدور من أحداث في مصر، من خلال اطلاعه على الصحف المصرية، وقال لي إن هذا هو السبب الرئيسي وراء تردده المستمر على المركز الثقافي المصري في أي وقت فراغ يُتاح له، على الرغم من مشاغل عمله كضابط، وكونه طالبًا منتسبًا في الجامعة.

وقد انقطعت عن لقاء القذافي بداية من أول يوليو، حيث عدت برفقة عائلتي إلى القاهرة لقضاء العطلة الصيفية، ثم سافرنا إلى ليبيا مساء يوم 31 أغسطس 1969، وفي صباح اليوم التالي - الفاتح من سبتمبر - استيقظتُ والعائلة في الصباح المبكر، على صوت طلقات نارية لم نتبيَّن سببها، وبعد ساعتين علمنا بحدوث انقلابٍ عسكريٍّ، وتم إذاعة بيان مجلس قيادة الثورة الليبية في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم نفسه، وكان يطالب المواطنين بعدم التواجد خارج منازلهم، وتضمَّن البيان عددًا من قرارات المجلس، كان أحدها خاصًّا بترقية الملازم أول معمر القذافي إلى رتبة العقيد، وتعيينه رئيسًا لمجلس قيادة الثورة.

وكانت مفاجأة بالنسبة لي، وفي ضوء إعجابي بأفكاره ومبادئه وشخصيته، استبشرت خيرًا في هذه الثورة، خاصة وأن النظام الملكي وأفراده - ما عدا الملك إدريس بشخصه، والذي كان زاهدًا وطيب القلب في تعاملاته - كان يُسيء استخدام سلطاته، كما استشرى الفساد والرشوة في أنحائه كافة.

وقد علمت من وسائل الإعلام أن مجلس قيادة الثورة الليبية يتكوَّن من اثني عشر عضوًا، وكان مؤيدو النظام الملكي يُطلقون عليهم مسمَّى «دستة أشرار»، على غِرار اسم الفيلم ذائع الصيت في ذلك الوقت، وفوجئت بأنني على علاقة شخصية بخمسة منهم، هم: السيد أبو بكر يونس، والسيد محمد المقريف، والسيد محمد نجم، والسيد الخويلدي الحميدي، والسيد عبد العاطي العبيدي، فضلًا عن العقيد القذافي بالطبع، وقد أبلغ والدي سفيرنا في طرابلس بأنني على

علاقة شخصية بعددٍ من أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية، فطلب من والدي أن أقوم بتوجيه الدعوة لمن أعرفهم إلى عشاء عائلي بالمنزل في حضور وزير مفوض السفارة، والذي سيحضر من طرابلس خصيصًا بعد أسبوع، واتصلت بالمجموعة، ودعوتهم على العشاء احتفالًا بنجاح الثورة، ورحَّبوا بالحضور، والتقوا وزير مفوَّض السفارة، وإن كان القذافي لم يحضر هذا اللقاء نظرًا لانشغاله الشديد، وكان عشاءً عائليًّا، واستبشرت خيرًا بمعرفتي بكل هؤلاء الأعضاء من المجلس.

وقد كان العقيد القذافي حريصًا على استمالة طبقة المثقفين، خاصة طلبة الجامعة، وكان حريصًا أيضًا على أن يستحوذ على انتباه وثقة اتحاد طلبة الجامعة الليبية، ومن ثم تكرَّرت لقاءاتي مع العقيد القذافي من خلال لقاءاته بأعضاء الاتحاد، وكان حريصًا على إقامة الندوات، وإلقاء الخطب، وخلال أحد لقاءاته مع اتحاد الطلبة، كنا نجلس جميعًا على وسائد على الأرض، ويبدأ يتحدث عن أسلوب عمل الثورة، وأهدافها، ومبادئها، وفوجئت بمجموعة من أعضاء الاتحاد ينتقدونه علانية، وبكلماتٍ حادةٍ، بل ويتهمونه بأنه يأخذ جانب الشعب والقيادة المصرية؛ لأنه يعتبر الرئيس عبد الناصر مَثَلَهُ الأعلى، وكان يُدافع عن نفسه ويُقدم الحجج والبراهين لإزالة سوء الفهم، وقد شعرت بوجود مساحة من حرية الرأي والتعبير لم تكن موجودة من قبل خلال فترة العهد الملكي، وكان إحساسي يتنامى بديمقراطية وحرية النقاش، بالرغم من أن اللقاءات كانت تتم في غرف مغلقة.

وتزايد إعجابي بالعقيد معمر القذافي بسبب تواضعه كرئيس للدولة؛

فقد رأيته أكثر من مرة يجلس في سيارته الخاصة الشعبية من طراز «فولكس واجن»، وكان يجلس بجوار السائق، وتقف سيارته في إشارة المرور بجانبي، وأتبادل معه التحية وأنا أقود سيارة والدي المرسيدس.

***

تخرَّجت في كلية الاقتصاد والإدارة عام 1970 بتقدير عام جيد جدًّا، وكنت الأول على قسم إدارة الأعمال، ودار حديث عن إمكانية تعييني معيدًا في الجامعة الليبية، برغم أنني مصري، لكن والدي قرر إنهاء تعاقده بعد أن أمضى في الجامعة ست سنوات، وعادت العائلة إلى القاهرة.

بعد عودتي شعرت بتوجُّهٍ يُسيطر على تفكيري بأن أحذو حذو شقيقَيَّ سمير، وسامي ـ رحمه الله ـ بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارها أرض الأحلام والديمقراطية وسيادة القانون، ولكون المجتمع الأمريكي هو مؤسسة الفرص، والذي يسمح لكل مَنْ يعمل فيه بجد ويبذل الجهد أن يحقق ما يصبو إليه ويحلم به؛ فقد كان الإعلام الغربي، وخاصة الأمريكي - في ذلك الوقت - يُساهم كثيرًا في الترويج لمثل هذه الأفكار الدعائية.

تحدثت مع والدي وبدأت في إعداد أوراقي للهجرة، إلا أن والدي مارس ضغوطًا عائلية هائلة لاستبقائي، كوني الابن الثالث والأخير. استجبتُ لرغبته المُلحة وقرَّرت التوجه لاستكمال دراسة الماجستير في جامعة «كاردف» بمقاطعة «ويلز» بالمملكة المتحدة. تراسلت مع

الجامعة التي قبلت أوراقي - في ضوء ارتفاع متوسط تقديراتي خلال أعوام الدراسة الأربعة - وأتممتُ إجراءاتي، وكان من المفترض أن أغادر القاهرة يوم 28 سبتمبر 1970 - الذي صادف يوم وفاة الرئيس جمال عبد الناصر - إلا أن والدي تحدث معي باستعطاف واستعان بزميله في الجامعة الدكتور عاطف عبيد - رحمه الله- رئيس وزراء مصر الأسبق؛ لإقناعي بالعدول عن فكرة السفر، ونجح د. عبيد بأسلوبه المتميز في إقناعي بالبقاء في مصر والبدء في دراسة الماجستير بكلية التجارة في جامعة القاهرة، وبالتالي تغيَّر مسار حياتي من الهجرة إلى أمريكا، إلى الدراسة في بريطانيا، ثم الدراسة والعمل في القاهرة.

وكانت الخطوة التالية، هي الالتحاق بالعمل في شركة «مصر للبترول»، وكان ذلك في نهاية عام 1970، وهناك تقابلت مع زميلتي في العمل «نادية» التي تزوجتها في عام 1972 وأنجبت منها نجلي «حسام» في أكتوبر 1973، وكريمتي «دينا» في يناير 1980 بلندن.

وفي أثناء عملي في الشركة، أبلغني والدي بوجود إعلان عن اختبارات لتعيين دفعة جديدة من الملاحق الدبلوماسيين في وزارة الخارجية، وترددت - نظرًا لضيق الوقت المتاح للاستعداد للاختبارات التحريرية والشفوية - إلا أنني تخطيت الاختبارات والمقابلات كافة، والتحقت بالخارجية في مارس 1974، وكنت أرى أن وزارة الخارجية هي أفضل المؤسسات، وأن العمل كدبلوماسي سيتيح لي إمكانية السفر والعمل بسفاراتنا في الخارج، والعودة إلى مصر كل أربع سنوات، وكان هذا هو أفضل خيار بالنسبة لي طالما قرَّرت عدم إتمام إجراءات الهجرة للولايات المتحدة أو الدراسة بالمملكة المتحدة.

*التحاقي بالخارجية المصرية :

التحقت بالمعهد الدبلوماسي التابع للخارجية المصرية بعد فترة قصيرة من التعيين، وكان من ضمن برنامجه الحصول على «دورة تدريبية أمنية» عالية المستوى، حيث استهدفت الدورة تنمية الإدراك بالوعي الأمني، وطرق الحصول على المعلومات، وطرق ووسائل التجنيد التي يمكن أن يتعرَّض لها الدبلوماسي المصري في الخارج، إضافة إلى مبادئ العلوم الأمنية. كانت دورة مفيدة للغاية، استثارت لديَّ الحس الأمني والوعي المعلوماتي العميق، وكنت من المتفوقين عند التخرج، ففوجئت بمدير المعهد الدبلوماسي يستدعيني بمكتبه، وفي لقائنا بحضور السفير عصمت رضا - وكان يعمل مديرًا لإدارة الأمن في ذلك الوقت - نصحني بأن أكون على استعداد للتعاون مع الأجهزة الأمنية المعنية من المنطلق الوطني، ولكن من موقعي كدبلوماسي بوزارة الخارجية، والحقيقة أنني أصبحت بعد ذلك صديقًا للجهات الأمنية المصرية كافة في كل مراحل حياتي، وفي كل الدول التي عملت بها.

أنهيتُ دراستي بالمعهد الدبلوماسي في صيف 1975، وسافرت مع زملائي في رحلة تدريب عملي - وهي آخر مرحلة في الدراسة بالمعهد - حيث تم إلحاقنا على بعثتنا في جنيف، واطلعتُ على أروقة العمل في الأمم المتحدة، ومنها انتقلت إلى ألمانيا، والتحقت بالمعهد الدبلوماسي الألماني في دورة عن العلاقات الدولية، وكانت الخارجية الألمانية حريصة على أن تعطينا جرعة مكثفة عن حتمية وحدة ألمانيا

الشرقية مع ألمانيا الغربية، وكنت أستشعر عدم منطقية هذا التحليل والتبسيط، وأنه من غير المنطقي، في إطار تواجد المعسكر الشيوعي بزعامة الاتحاد السوفييتي، اختزال دوره وأيديولوجيته في مقابل المعسكر الرأسمالي، وأنه من رابع المستحيلات أن يتنازل المعسكر الشرقي عن ألمانيا الشرقية من أجل العودة مرة أخرى إلى ألمانيا الموحدة، على غرار ما كان قائمًا قبل الحرب العالمية الثانية، وشاء القدر أن أعمل بسفارتنا في بودابست بالمجر في عامي 1989 و1990، وأُشاهد بنفسي نزوح مواطني ألمانيا الشرقية إلى المجر، ثم سقوط الشيوعية ودول المعسكر الشرقي كقطع «الدومينو»، وعودة ألمانيا الشرقية مرة أخرى إلى أحضان الدولة الألمانية الموحدة.

ومن يومها تعلَّمت - وثبت لي بالتجربة العملية - أنه لا يمكن الثبات على موقع في السياسة والتحالفات؛ لأن الواقع يثبت أن أعداء الأمس، هم أصدقاء اليوم، وربما حلفاء الغد، كما تعلمت أهمية أخذ الاحتمالات كافة - ولو كانت شبه منعدمة - في الحسبان؛ لأن «كل شيء» جائز، وكل الظروف والأحداث قابلة للتغير، ويمكن أن يحدث ما لم يكن في الحسبان تحت أي ظرف.

بعد ذلك انتقلتُ لألتحق بسفارتنا في باريس، ولأبدأ دورة تدريبية في المعهد الدبلوماسي الفرنسي، ولاحظت أن الفرنسيين مولعون بالجانب الثقافي في أي دراسة يقدمونها، وخلال الشهرين اللذين قضيتهما في فرنسا، أمضيت شهرًا في الدراسة، وقرابة الشهر في السفر إلى الأماكن السياحية ذات الصبغة الثقافية، وبعد أن عدت من رحلة

المعهد، تم تعييني في إدارة الهيئات الدولية، وكنت أعمل على عرض وتحليل كل البرقيات الرمزية والمفتوحة والتقارير الواردة من بعثاتنا في الأمم المتحدة، سواء من نيويورك، أو جـنيف، أو ڤيينا، أو نيروبي، في ضوء وجود مقرات الأمم المتحدة الأربعة في تلك العواصم.

*نقلي إلى لندن :

صدر قرار نقلي للعمل بقنصليتنا في لندن في أبريل 1976، وكانت أول مهمة عمل رسمية لي في إحدى سفاراتنا في الخارج، واعتبرتها تحديًا يجب مواجهته، وقد تلقيت نصيحة من السفير يوسف شرارة، الذي أكد لي أهمية قيام أي دبلوماسي ببناء اسمه وسمعته من أول مهمة عمل، وعلى أساسها ستتبلور الفكرة عن هذا الدبلوماسي فيما إذا كان حرفيًّا، ومبتكرًا، ومبدعًا، وعلى علم ودراية من عدمه، وما إذا كان قارئًا، ومطلعًا، وقادرًا على الحصول على المعلومات، وإعدادها في شكل تقارير وبرقيات تتضمن «تحليل وتقدير موقف»، والخروج بنتائج منطقية من هذه المعلومات من عدمه، وكذلك إذا كان قادرًا على صياغة التقارير، والبرقيات بطريقة حرفية طبقًا لما هو متفق عليه في أسلوب عمل وزارة الخارجية، واتضح لي الفارق الكبير بين العمل في الديوان العام بمقر الوزارة، وبين العمل بسفاراتنا في الخارج.

ويمكنني القول، بصفة عامة، إن تجربة عملي في لندن كانت ثرية ومختلفة، وقد كان العمل القنصلي مجالًا جديدًا بالنسبة لي، حيث

التعامل مع جمهور المصريين المتواجدين في بريطانيا، فقد تعاملت مع الجميع، بداية من طبقة الطلبة الكادحين الذين يحضرون خلال الصيف للعمل والعودة في نهايته، إلى أعلى فئات رجال الأعمال، ووجدت نماذج متميزة من العلماء المصريين والأطباء المتميزين وصفوة طلاب الدراسات العليا، كما التقيت الضائعين الذين يعيشون أحلام اليقظة ويرفضون مواجهة الأمر الواقع، وخلال عشرة أشهر عملت خلالها في القنصلية، اكتسبت تجارب وخبرات تراكمية من اتصالي وتعاملي مع الجالية المصرية، وكانت تعليمات الخارجية للقناصل بصفة عامة هي التسهيل على المواطنين بكل السبل، كما كان - وما زال - التوجه العام هو المرونة في التعامل، على الرغم من صرامة القواعد واللوائح وتعقيداتها في ذلك الوقت (عام 1976) والتي كانت لا تُبيح التسهيل بالقدر المطلوب على المواطنين.

*لقائي بزميلي الليبي في لندن :

بعد شهرين من وصولي إلى لندن، وفي إحدى حفلات الاستقبال، لمحت شخصًا عربي الملامح يُحدقُ بي، وكنت على يقين من معرفتي السابقة به، إلَّا أنني لم أستطع تذكره، وفجأة وجدته يقترب مني ويسألني إذا ما كنت قد زرت ليبيا من قبل، فأجبته بأنني أقمت فيها ست سنوات، وقدَّمت له نفسي، وما كان منه إلا أن عانقني، وذكَّرني بنفسه، قائلًا إنه النقيب محفوظ البشاري، مؤكدًا أننا قد تزاملنا بالمدرسة الثانوية في بنغازي، وقال إنه يعمل حاليًا نائبًا للملحق الحربي الليبي في لندن.

وكان تزاملي في المدرسة مع النقيب محفوظ البشاري سببًا في إزالة العوائق التي يمكن أن تنشأ بين دبلوماسيين يعملان في سفارتي دولتيهما، وتأكيدًا لذلك اتفقنا منذ البداية على ألَّا نتحدث في الأمور الخاصة بالعمل، حتى لا نُقحم الجانب الرسمي على علاقة الصداقة التي كانت بيننا، ودام هذا الاتفاق لفترة قصيرة ثم تغيَّر الوضع.

فقد تم نقلي من القنصلية إلى السفارة في أول يوليو 1977 - بناءً على طلب السفير سميح أنور، سفير مصر في لندن وقتها - حيث تولَّيت مسئولية متابعة النشاط الصهيوني في المملكة المتحدة، ومن هنا بدأت في تبادل بعض المعلومات مع محفوظ في هذا المجال، خاصة فيما يتعلَّق بمشتريات السلاح الإسرائيلية من المملكة المتحدة بصفة خاصة، ومن أوروبا بصفة عامة، وفى إطار ذلك تحدَّث معي - من تلقاء نفسه - عن مشتريات السلاح الليبي من غرب أوروبا، حيث كان المكتب الحربي الليبي في لندن يتولَّى هذه المهمة.

ويوم 22 يوليو 1977، دعوت صديقي محفوظ وقرينته وشقيقته - التي كانت في زيارة له - على العشاء بمنزلي، وكان عشاءً عائليًّا خاليًا من أي مراسم، خاصةً أن والدتي كانت موجودة عندي، وفي أثناء مشاهدتنا للأخبار بالتلفزيون فوجئنا بالأنباء عن الصدام المسلح على الحدود المصرية - الليبية بين قوات دولتينا، وكان الموقف محرجًا للغاية لكلينا.. تبادلنا النظرات الصامتة، وجاءت المبادرة منه قائلًا: «من الأفضل أن نغلق التلفزيون، ولا داعي لأن نثير هذا الموضوع مرة أخرى!»، فوافقته على الفور، وأغلقت التلفزيون واستمر العشاء العائلي.

وقد استمرت لقاءاتنا، وكان محفوظ حريصًا على إمدادي ببعض المعلومات المهمة، خاصة عن إسرائيل، وعن منظمة العفو الدولية - ومقرها لندن - في إطار أنه كان معنيًّا بمتابعة التواجد الإسرائيلي، وكنت أنا أتابع النشاط الصهيوني في بريطانيا، وكانت هذه نقطة التقاء بيننا، نتبادل فيها المعلومات في هذا الشأن.

*تقرير متابعة النشاط الصهيوني:

كان السفير سميح أنور رجلًا عظيمًا ذا فكرٍ ومبادئ، وله خبرة عمل دبلوماسية لا مثيل لها، كما كان يحب الابتكار والإبداع، وهذا ما شجعني على الحديث معه في بداية عملي عن قيامي بإصدار «تقريرمتابعة» للنشاط الصهيوني في بريطانيا، وعرضت عليه تقسيم وتبويب وتحليل معلومات هذا التقرير، فأعجبته الفكرة وتحمَّس لها وطالبني بالبدء في تنفيذها، وقد قمت بإعداد تقرير احترافي يتناول الأنشطة السياسية والبرلمانية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والتعليمية والثقافية، وكذلك التبرعات التي يتم جمعها لإسرائيل.

وبدأ تقرير متابعة النشاط الصهيوني - الذي كنت أرسله مرة كل أسبوعين - يحظى باهتمام ومتابعة الدوائر المعنية في مصر، وكان يتم إرسال التقرير إلى مؤسسة الرئاسة والأجهزة الأمنية المعنية، ووزارة الدفاع، وأحيانًا وزارات الاقتصاد، والصناعة، والتعليم، وكانت الأجهزة الأمنية تتابع هذه الجهات وتقوم بإرسال ما يُسمونه بلغة الأمن

«طلبات احتياج» لممثلهم في لندن، والذي كان يزودني بهذه الطلبات، حتى يتسنَّى لي جمع المزيد من المعلومات، سواء كان ذلك لاستكمال معلومة أو الحصول على معلومات جديدة في ضوء ما يتم إرساله من احتياجات، وهكذا أصبح اسمي وعملي على كل لسان في العديد من الأجهزة والوزارات.

وقد قام نائب رئيس الجمهورية - آنذاك - السيد محمد حسني مبارك بالعديد من الزيارات إلى لندن، وكان يعقد لقاءات مع رئيسة الوزراء السيدة مارجريت تاتشر، وعدد من الوزراء والمسئولين الإنجليز، وكنت أعلم أن أي زيارة للنائب حسني مبارك إلى لندن تعني العمل لمدة يومين أو ثلاثة أيام بشكل متواصل؛ فقد كان نشاطه في المقابلات يزيد على نشاط أي شاب، وكان جدول لقاءاته مزدحمًا للغاية، كما كان حريصًا على أن يلتقي السفراء العرب في لندن بمقر السفارة المصرية، مع تكرار اللقاء بممثلي الجالية المصرية، وعادة ما كان يَخْلُدُ إلى النوم في الحادية عشرة مساءً، ويستيقظ قبل السادسة صباحًا، حيث يبدأ يومه بلعب مباراة «الإسكواش» مع أحد مساعديه ولمدة ساعة على الأقل؛ ليبدأ لقاءاته من الثامنة والنصف، وكانت زياراته إلى لندن بصفة عامة لها طابع خاص ومميز.

وقد حظيت أيضًا بالعديد من اللقاءات - خلال هذه الفترة - مع رئيس الوزراء الأسبق الدكتور مصطفى خليل - رحمه الله-، حيث كان كثير المرور بلندن، سواء في طريقه إلى واشنطن، أو لإحدى الدول الأوروبية، وكان نجله هشام يعمل في لندن، وعادة ما كان د.

مصطفى خليل يطلب مني اصطحابه إلى مكتبة «فويل» للاطلاع على آخر ما نُشر من كتب، وكانت هذه الهواية تتسبب في ارتباك رجال «الأسكوتلانديارد» المسئولين عن حماية الشخصيات المهمة، حيث كان يُصر على السير وسط زحام شوارع لندن ذهابًا وإيابًا من وإلى المكتبة، كما اختصَّني في أوقات فراغه القليلة، بممارسة لعبة «الشطرنج» معه، في ضوء إجادتي لهذه اللعبة.

*زيارة السادات إلى القدس:

كانت المفاجأة الكبرى والمدوية هي زيارة الرئيس السادات إلى القدس في نوفمبر 1977، ولم تكن وسائل الإعلام البريطانية الأكثر اطلاعًا على بيِّنة من إمكانية قيام الرئيس السادات بزيارة إسرائيل، بل لم تكن إسرائيل نفسها على قناعة بإمكانية تحقيق ذلك، وقد قامت بعض دوائر اللوبي اليهودي في بريطانيا بترويج إمكانية أن يكون الإعداد لهذه الزيارة تغطية بارعة لهجوم مصري جديد من المفترض أن يتم.

الحقيقة أن المجتمع البريطاني كان سعيدًا وشديد الإعجاب بشجاعة الرئيس السادات، وجرأته في الذهاب للقدس وإلقائه كلمة تُعبِّر عن موقف مصر - دون تنازلات - في عقر الدار الإسرائيلي «الكنيست»، وقد شاهدت مع الشعب البريطاني على الهواء مباشرة رحلة السادات والوفد المرافق له وهبوط طائرة الرئاسة في مطار «بن جوريون» ولقاءات السادات بالقادة الإسرائيليين، ثم زيارة القدس، وانتهت

الزيارة التاريخية ببروز شخصية الرئيس السادات كرجل سلام، إضافة إلى كونه بطل حرب، وكان ذلك مثار إعجاب شديد من جانب المواطن البريطاني العادي، والإعلام البريطاني، لدرجة أن كثيرًا من المواطنين البسطاء عندما كانوا يعرفون أنني من مصر، يبادرون بالقول: «تقصد أنك من بلد السادات».

*مغامرة في المعرض الإسرائيلي بلندن :

في 15 مايو 1978 قررت إسرائيل الاحتفال بالعيد الثلاثين لإنشائها بشكل كبير ومُبالغ في إعداده، حيث كانت الاحتفالات في كل العواصم الأوروبية، وكان من المقرر حضور وزير الخارجية - وقتها - موشي دايان احتفالات لندن ليعطيها قيمة وثقلًا سياسيًّا لدى بريطانيا، وقد أُختير لها مقر المعارض في حي «إيرلس كورت»، وبدأت الحملات الإعلانية عن الاحتفال وعن مشاركة العديد من الشركات الإسرائيلية في معرض للمنتجات الإسرائيلية بمقر المعرض، كما أُعلِن عن مشاركة ممثلين لكافة المنظمات المدنية في هذا الاحتفال الذي ستشارك في نهايته فرق تقدم عروضًا فولكلورية إسرائيلية، وبدأ سكان لندن يستشعرون حالة مبالغًا فيها من الإجراءات الأمنية غير المسبوقة في منطقة الاحتفال، وبدأت السلطات البريطانية في تعبئة قوات الأمن واستنفار حالة أمنية عالية.

واقترحت على السفير سميح أنور أن أذهب لحضور هذا الحدث بصفتي الشخصية، مع التأكيد على أنني سأتخذ كل احتياطاتي الأمنية، وتردد السفير في الموافقة على اقتراحي خوفًا عليَّ، واقترح إرسال أيٍّ من طلبة الدراسات العليا للقيام بهذه المهمة، ولكن إزاء إلحاحي وتأكيدي على أنني خير مَنْ يقوم بهذه المهمة مع التنويه بعدم مسئولية السفارة في حالة حدوث أي مكروه لي، وافق على مضض، بشرط أن أذهب بسيارة أجرة، وعند انتهاء المهمة أعود إلى السفارة ليتأكد من سلامتي، ووافقت على الفور.

وعرضت على ابن خالتي - الذي كان يُقيم في لندن ويعمل بالغرفة التجارية العربية البريطانية في ذلك الوقت - أن يصطحبني في هذه المغامرة المحسوبة، وقد رحب بذلك، وكانت لنا - أنا وابن خالتي - لغة خاصة بنا، تعتمد في الأساس على قلب هيكل الكلمة العربية، وعند حديثنا بسرعة يتوهم مَنْ يسمعنا أننا نتحدث باللغة «العبرية»، واتفقنا على التحدث طوال اليوم بلغتنا الخاصة، وذهبنا بالفعل، وبدأنا نتجول بين أجنحة الشركات العارضة، وبدأت بشغف في الحصول على المواد الدعائية و«الكتالوجات» والمنشورات الخاصة بالمنتجات الإسرائيلية، وتوقفت لمناقشة عدد من العارضين حول شروط صفقاتهم ومزايا منتجاتهم، وكان أول سؤال يسألونه عن بلدي، وكان ردي بدون تردد، وبلهجة أمريكية، أنني طالب أمريكي أدرس في لندن، مستغلًّا إتقاني للغة الإنجليزية، وأن لدى أشقائي في أمريكا أعمالًا خاصة، وأنني على استعداد للاطلاع على ما هو متوفر لديهم من منتجات.

وحصلت على كل ما هو متاح من معلومات عن المنتجات الإسرائيلية، وتحدثت مع ممثلي الشركات بشأن التواجد الفعلي لشركاتهم ومنتجاتهم، وعلمت من بعضهم أخبارًا عن شركات جديدة ستبدأ في طرق الأسواق البريطانية كنقطة ارتكاز، ومنها إلى بقية الأسواق الأوروبية، وفي نهاية اليوم حضرت احتفال فرقة الفنون الفولكلورية، وتصادف أن يكون مقعدي في ثاني صف أسفل مقعد موشي دايان وحرَّاسه ومسئولي أمنه، وكانت - بلا شك - تجربة فريدة ومثيرة، خاصة لو علموا أنني دبلوماسي في السفارة المصرية بلندن، ولكنني آثرت أن أسيرَ في طريق المخاطرة المحسوبة بحذر لأن النتيجة المتوقعة منها تزيد كثيرًا في إيجابياتها على حجم هذه المخاطرة.

وبعد عودتي إلى المنزل، بدأت في تفريغ المعلومات التي حصلت عليها، ثم قمت بتبويبها وكتابة تقرير شامل عن حجم التواجد التجاري الحالي للشركات الإسرائيلية في السوق البريطانية، وما هو متوقع بشأن حجم التبادل التجاري والشركات الجديدة المتوقع دخولها، وتضمَّن التقرير جانبًا تحليليًّا خاصًّا بنفاذ هذه المنتجات، وقنوات تسويقها، وما يمثله ذلك من طَرْقٍ إسرائيلي على أبواب السوق البريطانية، وإن كان طرقًا بشدة، وأحيانًا بشكلٍ مدوٍّ.

وعرضت على السفير سميح أنور المعلومات التي حصلت عليها، وأبدى اندهاشه وإعجابه الشديدين بكل ما حصلت عليه وبالتقرير الذي أعددته، وطلب عقد اجتماع لأعضاء السفارة ولرؤساء المكاتب الفنية، وقمت بتقديم عرض وتحليل لما حصلت عليه من معلومات.

*مواجهة إسرائيل من لندن :

كانت مجريات الأمور تقودني إلى مواجهة إسرائيل في أثناء تواجدي في لندن، فبعد المعرض الذي حضرته، سنحت لي فرصة أخرى لكشف مسئولة بمنظمة العفو الدولية وإحباط محاولة إعداد تقرير حقوقي مسيئ لمصر، وكانت البداية في إحدى حفلات الاستقبال نهاية يناير 1978، حيث التقيت سيدة تُدعى يوديت، وعلمت منها أنها تعمل في موقع متميز بمنظمة العفو الدولية، ودار بيننا حديث شيق قررنا استكماله في عشاء كان أشبه بعشاء عمل، وقد كنت متشوقًا لمعرفة أسلوب جمع المعلومات عن حالات حقوق الإنسان والفئات المضطهدة في دول العالم، ولم أجد طريقة لاستدراجها أفضل من إبداء شكوكي في مصداقية هذه الأساليب، وسرعان ما ابتلعت الطُّعم، فبدأت في الحديث عن بعض الحالات المنشور عنها إحصائيات، وتوطَّدت علاقتنا، فأصبحنا نلتقي مرتين أسبوعيًّا لقضاء الوقت معًا، وكانت اللقاءات تتم في منزلها – حيث لم تكن متزوجة – وذات مرة أخبرتني بأنها يهودية الديانة، وسألتني إذا ما كان ذلك سيشكل عائقًا أمام استمرار علاقتنا، خاصة أنني دبلوماسي مصري، مسلم، فأجبتها بالنفي، وبعد ثلاثة أشهر علمت أنه من المنتظر أن تصدر المنظمة تقريرًا عن حالات لانتهاك حقوق الإنسان والاضطهاد الديني في مصر، وسألني السفير عن أي معلومات متوفرة لديَّ، وبدأت بالتركيز في لقاءاتي مع يوديت لمعرفة المعلومات المطلوبة، وقد حدث هذا فعلًا خلال أحد لقاءاتنا بمنزلها، حيث عرفت منها أن وفدًا من المنظمة سيتوجَّه

إلى مصر، ولكن ذلك لن يكون بشكل رسمي، كما هو متبع عادة، بل سيدخل ثلاثة أعضاء إلى مصر في صورة سائحين، وسيكون لكل منهم برنامج سياحي منفصل تم ترتيبه من جانب شركات سياحة مختلفة، وسيتم ترتيب لقاءات لهم مع عدد من الناشطين لإمدادهم بالمعلومات المطلوبة، على أن يتقابلوا في نهاية رحلتهم لتبادل المعلومات فيما بينهم وإعداد تقرير بالزيارة، وهنا أخبرتها بأن أحد أقاربي واجه عقوبة السجن ظلمًا، وأنني على استعداد لإبلاغه بالزيارة للقاء أحد أعضاء الوفد، وبعد محاولات وإلحاح ذكرت لي أسماء الأعضاء الثلاثة، وبرنامج لقاءاتهم مع منظمات مصرية حقوقية، وعلمت منها كيف ستتم اللقاءات خلال البرنامج السياحي، وقامت السفارة بإبلاغ وزارة الخارجية بكل المعلومات المتوفرة، ووُضِعت القنصلية في حالة ترقُّب لمتابعة تقدم الأعضاء الثلاثة للحصول على التأشيرات، وتم رصدهم بالفعل، وقد فوجئت في وقت لاحق بأن يوديت تحمل الجنسيتين البريطانية والإسرائيلية، فشعرت بالرضا عما فعلته في ضوء جنسيتها الإسرائيلية، وفي الوقت نفسه كان ما فعلته الأجهزة المعنية المصرية عملًا متميزًا؛ حيث علمت – فيما بعد – أنهم وضعوا المندوبين الثلاثة تحت المراقبة غير اللصيقة، وتم تسهيل لقاءاتهم بالأفراد الذين كان من المفترض أن يلتقوهم، كما تم تدبير لقاءات مع عناصر تعبر عن وجهات نظر أخرى، وبعد عودة الوفد بدأت في الاتصال المنتظم والمتكرر مع يوديت، وتمكنت من الحصول على مسوَّدة التقرير الذي سيصدر عن الأوضاع في مصر، وبعد عدة لقاءات وجلسات مطولة لمناقشة صياغة التقرير ساهمت في تخفيف حدة الصياغة ضد مصر،

وكانت هذه إحدى أهم تجاربي مع الجالية اليهودية البريطانية ونشاط اللوبي الصهيوني في المملكة المتحدة.

*حضور مؤتمر ليدز كاسل :

بدأ الحديث في بداية يوليو عام 1978 عن مؤتمر يعتبر الأول من نوعه، لعقد لقاء بين وفود مصر وإسرائيل والولايات المتحدة - كوسيط - وقررت لندن استضافة هذا المؤتمر، الذي أعقب زيارة الرئيس السادات إلى القدس في نوفمبر 1977، وبالفعل بدأ السفير سميح أنور في إجراء اتصالاته للتحضير والإعداد لهذا المؤتمر الذي كان من المفترض أن يُعقد بفندق «تشرتشل» في وسط لندن، وقد كلَّفني السفير - ومعي زميل آخر - بعقد لقاءات مع الجانب البريطاني للإعداد للترتيبات «اللوجيستية»، أي المتعلقة بأمن المؤتمر، وأماكن إقامة الوفود، والقاعات التي ستتم بها اللقاءات.. إلخ، كما كلَّفني بتغطية الجانب الأمني لعقد المؤتمر مع مندوبي «الأسكوتلانديارد»، وبالفعل بدأت في تنفيذ ما طلب مني من تعليمات، وكان من المفترض أن يقيم الوفد المصري في الطابق الرابع، والأمريكي في الخامس، والإسرائيلي في السادس، على أن تكون بداية المؤتمر بلقاءات ثنائية للوفد الأمريكي مع كلٍّ من الوفدين المصري والإسرائيلي، وذلك في إطار استكمال محادثات السلام التي أعقبت حرب أكتوبر 1973، وكانت لقاءاتي مع رجال الأمن البريطانيين تتم في تكتم شديد، والإعداد لعقد المؤتمر يجري بعيدًا تمامًا عن أعين الإعلام، وآذان

الصحافة، وكنت أعود لأُقدِّم تقريرًا بما تم للسفير.

فوجئت قبل المؤتمر بيومين بأن مندوب الأمن البريطاني يبلغني بأنهم قد تلقوا معلومات مؤكدة حول إمكانية ارتكاب عمل إرهابي ضد الوفود الثلاثة، كما وردت معلومات باحتمال تحرُّك مزدوج لإفشال المؤتمر من جانب بعض الفصائل الفلسطينية، وكذا بعض المتشددين الإسرائيليين المقيمين في لندن، ولذلك فقد تم تغيير مكان عقد المؤتمر، مع الإبقاء على موعده في 28 يوليو، وبعد وقت قليل تم إبلاغي باختيار قلعة خارج لندن تُسمى «ليدز كاسل» وهي إحدى قلاع الخاصة الملكية، تقع على بُعد حوالي مائة كيلو متر خارج لندن، وكانت بمثابة مزار ومتحف للسائحين، وقد تم إغلاقه أمام الجمهور وإعداده على وجه السرعة ليكون مسرحًا للقاء.

وقد حضر الوفد المصري برئاسة وزير خارجية مصر وقتها إبراهيم كامل، وعضوية السفراء الدكتور أسامة الباز- رحمه الله-، والدكتور نبيل العربي - أمين عام جامعة الدول العربية حاليًا - والوزير المفوض أحمد ماهر - وزير الخارجية الأسبق - رحمه الله- والسكرتير أول أحمد أبو الغيط - وزير الخارجية الأسبق - وكان هذا هو أول لقاء يجمعني به.

وكان الوفد الأمريكي برئاسة وزير الخارجية، وكذلك الوفد الإسرائيلي، وبدأت مداولات المؤتمر بمحاولة تعريف مفهوم السلام من الجانبين المصري والإسرائيلي، ثم عرض لمطالب الجانبين، ويمكن القول إن كلا الجانبين طرح رؤيته وأفكاره ومبادئه في ظل محاولات

أمريكية للتقريب بين وجهتي النظر، وكانت الصفة المميزة للمؤتمر أنه لم يكن تصادميًّا وإن لم تلتقِ فيه أي وجهات نظر قائمة بين الجانبين، وبالطبع لم يكن من المتوقع أن يُسفر المؤتمر عن أي نتائج إيجابية في ضوء كونه أول مؤتمر سلام بين الجانبين منذ حرب أكتوبر 73.

وقد كنت أُلاحظ عصبية الوزير إبراهيم كامل في أول لقاء جمع الوفود الثلاثة، وكانت الجلسة على هيئة حرف (U)، حيث فصل الوفد الأمريكي بين الوفدين المصري والإسرائيلي.

وكانت تجربة مشاركتي في الإعداد للمؤتمر، ثم حضوري - عن بُعد - في جلساته مثيرة على مدى ثلاثة أيام، حيث كنت أُقيم في قلعة «ليدز» طوال اليوم، ثم أترك الوفد المصري قبل العشاء، وأعود إلى لندن لتقديم تقرير مبدئي للسفير حول أحداث اليوم ومواقف الأطراف والموضوعات التي تم بحثها، وقد مر المؤتمر بسلام ودون مفاجآت سارة أو غير سارة.

*العمل في إدارة التطبيع :

خلال شهر أبريل 1980 قام الفريق كمال حسن - نائب رئيس الوزراء، وزير الخارجية، وقتها - بزيارة إلى لندن في طريقه إلى واشنطن، وذلك لعقد لقاء مع وزيري الخارجية الإسرائيلي والأمريكي، وكان السفير حسن أبو سعدة قد تقلد وقتها منصب سفير مصر في لندن خلفًا للسفير

سميح أنور، واصطحبني السفير حسن أبو سعدة إلى المطار لاستقبال النائب كمال حسن، وبعد انتهاء لقاءاتهما مع المسئولين البريطانيين أقام السفير المصري حفل عشاء في دار السكن على شرف نائب رئيس الوزراء، وقد ضم هذا الحفل أعضاء السفارة، وفي أثناء العشاء بدأ الحديث عن المجتمع البريطاني والأحداث الجارية، ثم انتقل الحديث إلى النشاط الصهيوني في بريطانيا، وعندها توقف النائب كمال حسن، وسأل عمَّن يقوم بإعداد تقرير «متابعة النشاط الصهيوني»، وأخبره السفير بأنني مَنْ أقوم بإعداده، فهنأني النائب على هذا المجهود، وبدأنا حديثًا متبادلًا عن مصادر معلوماتي وطريقة جمعها وأسلوب التبويب والتحليل الذي أتبعه، وأبدى إعجابه بما تم وطالبني بالاستمرار في هذا التوجه، وفي نهاية العشاء، طلب النائب كمال حسن من السفير أن أتواجد في المطار صباح اليوم التالي لاستكمال الحديث معي.

وفي صباح اليوم التالي، صاحبت السفير إلى المطار، وكان من المفترض أن يستقل الوفد المصري طائرة كونكورد اختصارًا للوقت، إلا أن الطائرة تأخرت لمدة ثلاث ساعات بسبب عطل فني، وفي أثناء تلك الفترة استرسل النائب كمال حسن في أسئلته، وقدَّمت له عرضًا مفصلًا عن كيفية الحصول على المعلومات، وطريقتي في إعداد التقرير، وبدا لي واضحًا أنه أُعجب بطريقة تفكيري وأسلوبي، خاصة عندما تناول الحديث مغامرة حضوري لاحتفالات العيد الثلاثين لإنشاء إسرائيل الذي أقيم في لندن، وبعد ثلاثة أيام توقَّف الوفد المصري، في طريق عودته من واشنطن، في لندن لمدة ساعتين، وكنت مع

السفيـر أبو سعدة في المطار، وفي أثناء دخول الوفد إلى طائرة مصر للطيران في طريقه للقاهرة، همس المستشار سمير سيف اليزل – وكان السكرتير الخاص للنائب كمال حسن – في أُذني قائلًا: «النائب قرَّر أن يتم نقلك وإلحاقك بإدارة التطبيع والحكم الذاتي التابعة لمكتبه مباشرة وذلك في ضوء خبرتك بالموضوعات الإسرائيلية، ومتابعة الجالية اليهودية والنشاط الصهيوني في المملكة المتحدة».

سُررت للغاية بالنبأ وعدت إلى مصر في نهاية أغسطس 1980، وبدأت العمل في الإدارة التي كان يرأسها السفير حسن رشوان لفترة قصيرة، حيث نُقل بعد شهر كقنصل مصر العام في باريس، وتلاه السفير عصمت رضا العائد من الخارج، والذي كانت تربطني به صلة صداقة ومودة واحترام.

وبدأت العمل مع الوفود المصرية في الإعداد للقاء الوفود الإسرائيلية، ومتابعة موضوعات التطبيع مع إسرائيل والتنسيق حول ذلك مع كل الجهات المعنية في مصر، وقد لاحظت في اللقاءات الثنائية أن الجانب الإسرائيلي كان دائمًا متعجلًا في تنفيذ مطالبه، فمثلًا كان يُطالب بحرية انتقال الأفراد، وإن أمكن بدون تأشيرات، وحرية انتقال البضائع في إطار قوانين تعطي الحق لإسرائيل لأن تُعامل معاملة الدولة الأولى بالرعاية، وكانت الوفود الإسرائيلية تردد دائمًا مقولة إنهم قد دفعوا ثمنًا غاليًا للسلام مع مصر، وليس أقل من أن تعطي مصر مقابل ذلك الأولوية للمطالب الإسرائيلية حتى ولو كانت على حساب علاقاتها مع الدول العربية.

وعلى الجانب الآخر كان ممثلو الوزارات المصرية، وعلى رأسهم الخارجية، يحاولون كبح جماح المطالب الإسرائيلية عن طريق وضع العراقيل بحجة الالتزام باللوائح والقوانين.

بعد ذلك بدأت الوفود السياحية الإسرائيلية تنهمر بكثافة على مصر، وفي أحد اللقاءات همس نائب رئيس جهاز مباحث أمن الدولة في أذني قائلًا إن كل وفد سياحي عادة ما يوجد فيه فرد أو اثنان من أجهزة الأمن الإسرائيلية، ومن الصعب تحديدهم في ضوء دخولهم بأسماء مستعارة، وبجوازات سفر إسرائيلية صحيحة، كما أصبح من الصعوبة بمكان ملاحقة ومتابعة ومراقبة كل الوفود السياحية الإسرائيلية باختلاف تنوعها وكثرة أعدادها، وأضاف اللواء المختص بمتابعة النشاط الصهيوني بأمن الدولة أن لديه ما يزيد على خمسمائة ضابط، ولا يوجد منهم ضابط واحد على مكتبه بالجهاز لأن جميعهم يعملون في الميدان، ومكلَّفون بمتابعة ورقابة وتأمين هذه الوفود ولا يستطيعون ملاحقة أعداد المشتبه بهم داخل الوفود السياحية، وأكد محدثي أن هدف الجانب الإسرائيلي هو تشتيت جهود أجهزة الداخلية المصرية وإصابتها بالارتباك، وقد نجحوا جزئيًا في تحقيق ذلك في بادئ الأمر، وفي الوقت نفسه كانت أجهزة الداخلية المصرية على قناعة مؤكدة بوجود تعليمات لجميع أفراد الوفود السياحية الإسرائيلية بالقيام - فور عودتهم - بتقديم تقارير مفصلة بمن التقوا بهم، وما تم في اللقاءات، وما شاهدوه واستشعروه، وأي معلومات عن توجهات الرأي العام، وآراء رجل الشارع، وأي ملاحظات شاهدوها كإجراء

روتيني، وبالفعل كان ذلك ما يحدث، وأسفر ما تقدم عن وقوع أجهزة وزارة الداخلية في مصر تحت ضغوط هائلة لم تكن مؤهلة لها والسبب كان التسارع في خطوات التطبيع على الطريقة الإسرائيلية.

كما كنتُ أتابع التقارير المرسلة من سفارتنا في تل أبيب، والتي بدأت عملها في فبراير 1980، حيث وقع الاختيار على السفير سعد مرتضى لرئاسة البعثة - والذي عمل من قبل كسفير لمصر في الإمارات والسنغال والمغرب، وكان مديرًا لإدارة الإعلام والصحافة قبل أن ينتقل إلى إسرائيل - وكان معه عدد من الدبلوماسيين الناشطين والمتميزين، ومن ضمنهم الوزير المفوض محمد بسيوني، الذي أصبح سفيرًا لمصر في تل أبيب لمدة أربعة عشر عامًا، والمستشار فكري نخلة، والمستشار الدكتور أحمد جمعة، والسكرتير أول الدكتور فاروق مبروك، وعدد آخر من الدبلوماسيين والملاحق والإداريين والفنيين والقائمين على شبكة الاتصالات، وكان عملي في هذا المجال ينصبُّ على قراءة كل ما هو وارد من السفارة، وعمل مذكرات عرض على النائب كمال حسن من خلال السفير عصمت رضا، وفي حالة عدم تواجده أو غيابه أو سفره إلى الخارج، كنت أقوم بتقديم مذكرات العرض مشفوعة بالرأي إلى النائب مباشرة، وذلك بعد إبلاغ السفير عصمت رضا بالمضمون، وكانت مذكرات العرض كثيرة ويومية في ضوء كثرة المطالب الإسرائيلية، سواء الواردة من سفارتنا في تل أبيب، أو من السفارة الإسرائيلية في القاهرة، أو من خلال مطالب الجانب الإسرائيلي في مباحثات التطبيع - والتي كانت تعقد بالتناوب في

القاهرة وتل أبيب - وعادة ما كانت تتم قبل عقد هذه المباحثات لقاءات بين ممثلي الخارجية وبقية مندوبي الوزارات والأجهزة المعنية للإعداد والتحضير والتنسيق، وكنت أقوم بتفريغ محاضر هذه الجلسات التي أشارك فيها مع السفير عصمت رضا، وأحضرها أحيانًا بالنيابة عنه، ثم أقوم بعمل مذكرة عرض مختصرة للنائب، وبها الرأي في كل بند من بنود المذكرة، واستمرت مشاركتي مع الوفود المصرية في لقاءاتها مع الجانب الإسرائيلي.

وفي أثناء عملي ومشاركتي في اجتماعات لجان التطبيع اكتسبت ثقة مدير الإدارة السفير عصمت رضا، وكنت أحد أعضاء المكتب الذين يثق فيهم النائب في العرض، وبدأ نجمي في الصعود بعد أن أصبحت مذكرات العرض التي أعدها هي الأساس في إرسال التعليمات إلى سفارتنا في تل أبيب.

*نقلي إلى تل أبيب:

استدعاني السفير عصمت رضا في مارس 1981 إلى مكتبه، فوجدت عنده السفير سعد مرتضى الذي أثنى على عملي، مؤكدًا أنه يتابعة من السفارة في تل أبيب، ثم فاجأني بسؤال مباشر قائلًا: «هل لديك مانع من العمل بسفارتنا في تل أبيب؟»، وقبل أن أرد، أضاف: «إذا كانت الإجابة نعم سأقوم بطلبك بالاسم ضمن أربعة دبلوماسيين آخرين سأطلبهم دعمًا للسفارة»، وبلا تردد، كان ردي: «يسعدني ويشرفني

أن أعمل ضمن طاقم السفارة»، وأعتقد أن هذا الرد كان مفاجأة له في ضوء رفض أو تردد معظم الدبلوماسيين للعمل في إسرائيل، سواء لتخوفهم من ظروف العمل، أو لسيطرة الحاجز النفسي على قدرتهم في الانتقال، أو لرفض الزوجة والعائلة للذهاب، أو بسبب التخوف من الضغوط النفسية التي بدأنا نسمع أن العديد من دبلوماسيينا يتعرضون لها في أثناء عملهم هناك مع إحساسهم بعدم الأمان.

وفي اليوم نفسه، تقدم السفير سعد مرتضى إلى النائب كمال حسن بطلب نقل أربعة دبلوماسيين بعد استطلاع رأيهم، ولم يوافق النائب إلا على نقلي بمفردي، في حين رفض نقل الثلاثة الآخرين.

وعاد السفير سعد مرتضى ليبلغني بالموافقة على نقلي، وليقدم الشكر للسفير عصمت رضا، الذي أكد له أنه كان يعتمد عليَّ في هذا الموقع، لكن وجودي بالسفارة المصرية في تل أبيب سيكون أكثر فائدة للخارجية، ثم طلب الاثنان مني أن يظل الأمر في طي الكتمان انتظارًا لصدور حركة النقل للدبلوماسيين، ويبدو أن مخاوفهما قد تحققت؛ إذ إن حركة تنقلات 1981 قد أُلغيت بالكامل لظروف خاصة، وأسباب تتعلق بإجراءات التقشف وضغط الإنفاق، ولم يزعجني الأمر؛ إذ إنني اعتبرت ما حدث هو مشيئة الله، ورضيت بالأمر الواقع.

كان والدي في ذلك الوقت يعمل أستاذًا جامعيًا ورئيسًا لقسم إدارة الأعمال في جامعة الملك عبد العزيز في السعودية، وكان يطلب مني دائمًا القيام بزيارته لأداء العمرة، وانتهزت فرصة وجود متسع من

الوقت لديَّ بعد إلغاء حركة التنقلات، واستأذنت السفير عصمت رضا، والنائب كمال حسن للموافقة على سفري لمدة أسبوع ووافق كلاهما.

وسافرت بالفعل إلى جدة، والتقيت والدي ووالدتي، وعندما سألني والدي عن عملي، فهم من ردودي عليه أنني أتعامل بسهولة مع الجانب الإسرائيلي، وانزعج تمامًا من ذلك، رغم أنني لم أذكر له الموافقة على نقلي إلى سفارتنا في تل أبيب قبل إلغاء حركة التنقلات، وأبدى والدي مخاوفه من أن عملي في هذا الموقع سيؤدي إلى ترشيحي للعمل في تل أبيب، فقلت له: «وما المانع في ذلك؟»، وكان ردي متعمدًا حتى أستشعر ما بداخله، فقال إن هناك فرقًا بين اليهودية كديانة، والصهيونية كمبدأ عقائدي، واسترسل في سرد الفظائع التي ارتكبتها إسرائيل منذ نشأتها، وتناول رحلته إلى القدس في عام 1947 بتكليف من الحكومة المصرية، وما قدمه من تقرير يؤكد قرب إنشاء دولة إسرائيلية في فلسطين، وهنا تأكدت من أن عدم إفصاحي لوالدي عن ترشحي للعمل في تل أبيب كان في محله.

وبعد حوالي أسبوعين من عودتي إلى عملي في القاهرة، فوجئت بالسفير سعد مرتضى يدخل عليَّ في مكتبي، قائلًا إنه في مهمة بالقاهرة للتشاور، وإنه طلب في أثناء مقابلة مع النائب كمال حسن في صباح اليوم نفسه أن يُصدر قرارًا جديدًا استثنائيًّا بنقلي لسفارتنا في تل أبيب، وإن النائب قد وافق على هذا الطلب بحيث لا أنتظر عامًا آخر لحين صدور حركة النقل العامة، وطلب مني السفير سعد تحديد موعد لتنفيذ

النقل في أسرع وقت، فوافقت على الفور، واتفقنا على أن يكون موعد التنفيذ في منتصف يونيو 1981.

أبلغت والدي - هاتفيًّا في اليوم التالي - بصدور قرار نقلي إلى سفارتنا في تل أبيب، وأبدى انزعاجه الشديد وتخوفه، ثم أرسل لي خطابًا من ثماني صفحات باللغة الإنجليزية - ولا أدري لِمَ لم يكتبه بالعربية؟ - حدثني فيه عن المحاذير التي ربما أقع فيها، والاحتياطات الأمنية والشخصية التي يجب عليَّ اتباعها، وأبدى قلقه من أن ذهابي إلى تل أبيب ليس عاديًّا، وإنما تشوبه شائبة - لا يعلمها إلا الله - وكان التخوف هو السمة الطاغية على هذا الخطاب.

كان أمامي الكثير كي أنجزه، وكان عليَّ أن أقرأ كل الملفات الخاصة بإسرائيل بتمعن، خاصة الملفات الموجودة لدى الأجهزة المختلفة، وشعرت بأنني قبلت مهمة وطنية في غاية الصعوبة، ودعوت الله عز وجل أن يُعينني على قضائها على أكمل وجه.

2

الطريق إلى تل أبيب

*إجراءات النقل إلى إسرائيل :

كانت إجراءات نقلي إلى تل أبيب تتطلب استخراج جواز سفر دبلوماسي بصفتي سكرتيرًا ثانيًا في سفارة مصر بإسرائيل، وطلبت استخراج جواز سفر آخر بصفتي سكرتيرًا ثانيًا في وزارة الخارجية؛ حتى أستطيع زيارة والدي في السعودية، ووافق النائب كمال حسن على هذا الاستثناء الذي أصبح قاعدة فيما بعد باعتباره صمام أمان وضمان للزملاء العاملين في تل أبيب في حالة سفرهم إلى الخارج، حتى لا يستهدفهم الإرهابيون، أو يتعرضون للمضايقات في الدول العربية.

وقد ذكر لي أحد الزملاء في أثناء إنهاء إجراءات سفري أنه خلال فترة عمله بسفارتنا في بغداد عام 1979 قام باستيراد سيارة «شيفورليه» أمريكية الصنع، إلا أنه فوجئ بقطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر والعراق - بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل - وعند قيامه بسداد الضريبة الجمركية فوجئ بارتفاع قيمة الرسوم بشكل مبالغ فيه نظرًا لضخامة حجم وسعة الموتور؛ لذلك ترك السيارة بلوحات «جمرك السويس»، وقد قاربت مدة السماح الجمركي على النفاد، فجاء يقدم لي عرضًا مغريًا بشراء السيارة بخصم نسبة من ثمنها، مؤكدًا أنني أستطيع السفر بها إلى تل أبيب برًّا، وبذلك يستفيد كلانا، حيث يخرج هو من مأزق الجمارك، وأستفيد أنا من الثمن المنخفض لسيارة جديدة، وبالفعل وقَّعنا عقد شراء السيارة على أن أتسلمها قبل سفري بيومين،

وطلب مني أن يصطحبني إلى الحدود عند العريش لاسترداد اللوحات المعدنية الجمركية حتى يقوم بتسليمها، ووافقت على ذلك.

* * *

كنت في أثناء عملي على ملف التطبيع، ألمس بوضوح - كما كان واضحًا للجميع أيضًا - التناقض الكبير بين الترحيب الذي استقبلت به حكومة إسرائيل وشعبها السفير المصري وطاقم سفارته؛ وبين التحفظ الذي استقبلت به الحكومة المصرية السفير الإسرائيلي وطاقم سفارته، والتردد في لقائهم من جانب الشعب المصري، والحقيقة أن وزارة الخارجية - بحكم عملها - كانت الملاذ وموقع العمل بالنسبة للسفير الإسرائيلي، وعندما بدأت في متابعة وحضور جميع جلسات لجان التطبيع وجدت أنها قطعت شوطًا طويلًا، وأمكن التوصل إلى 42 اتفاقًا خاصًا بالتطبيع في المجالات كافة، بما في ذلك اتفاق الطيران المدني وتسيير رحلات طيران بين القاهرة وتل أبيب، ولكن خروجًا من مأزق تسيير رحلات مصر للطيران إلى إسرائيل، وما قد يترتب على ذلك من احتمال مقاطعة الدول العربية للشركة ومنعها من الهبوط في المطارات العربية، وما يعنيه ذلك من خسائر فادحة، وصعوبة نقل ما يزيد على مليوني مصري - وقتها - يعملون في الدول العربية؛ لذلك تقرر إنشاء شركة طيران جديدة - بدلًا من شركة مصر للطيران - أُطلق عليها اسم «إير سيناء» لتسيير الرحلات ما بين القاهرة و تل أبيب، والتي بدأت برحلتين، وتم زيادتها إلى ثلاث رحلات، وفي المقابل كانت شركة «العال» الإسرائيلية تقوم بتسيير ثلاث رحلات في أيام مختلفة،

وعندما سألت مندوب هيئة الطيران المدني المشارك في اجتماعات التطبيع، قال إن كل الرحلات كاملة العدد، وإن 90 % من الركاب، يأتون بغرض السياحة، وعندما سألت مندوب مصلحة الجوازات قال إن القنصلية المصرية منحت خلال عام 80-81 ما يقرب من أربعين ألف تأشيرة دخول، بخلاف التأشيرات التي يتم منحها لحاملي الجوازات الإسرائيلية من باقي سفاراتنا في الخارج، إضافة إلى مزدوجي الجنسية من المواطنين الإسرائيليين الذين يحصلون على تأشيرات بواسطة جوازاتهم الأخرى.

*جلسات حول المخابرات الإسرائيلية :

كنت أتعامل بجدية كبيرة مع أمر انتقالي إلى العمل في إسرائيل؛ لذلك اتصلت بعدد من زملائي الدبلوماسيين العاملين في الإدارة العامة للأمن؛ للتعرف على أهم الملفات المفتوحة التي يجب الاطلاع عليها، وكنت أحضر جلسات مطولة ثلاث مرات أسبوعيًّا لمدة شهر ونصف الشهر، وقد ساعدتني هذه الجلسات على فهم المجتمع الإسرائيلي، وقضاياه، وأجهزته المختلفة، خاصة المخابرات الإسرائيلية؛ إذ إن كثيرًا من العامة يختزلونها في «الموساد»، رغم أن الحقيقة غير ذلك؛ لأن المخابرات الإسرائيلية تتكون من ست مؤسسات، أو هيئات، ليست «الموساد» سوى إحداها، وهي كما يلي:

1- الموساد:

هو الجهاز المقابل للـ (CIA) في أمريكا، والـ (MI 6) في بريطانيا، وهو الجهاز المنوط به مهام التجسس وجمع المعلومات من خارج إسرائيل، وقد أنشئ بتاريخ أول إبريل 1951، وكان شيلوه Shiloah هو أول رئيس لجهاز الموساد، وتنقسم الخريطة التنظيمية للموساد إلى ثماني إدارات، أربع منها رئيسية، وهي: إدارة جمع المعلومات - إدارة العمليات والتخطيط والتنسيق - إدارة الأبحاث - إدارة العمليات السياسية والاتصالات، أما الإدارات الأربع الأخرى فهي إدارات مساعدة تقل أهمية، وهي: إدارة التدريب - إدارة الأفراد - إدارة الشئون المالية - إدارة التكنولوجيا والعمليات الفنية، وفي نهاية عام 1951 وقَّع الموساد أول اتفاق مع الـ CIA للتعاون وتبادل المعلومات المخابراتية، كما تضمن الاتفاق التعهد بعدم التجسس على الطرف الآخر، وفي عام 1953 عقد الموساد اتفاقًا مماثلًا مع جهاز الـ MI 6 ومع مرور الوقت أصبح للموساد تحالفات إستراتيجية مع أجهزة أخرى، حيث تم إبرام اتفاق مع وكالة المخابرات التركية (TNSS) عام 1954، ومع وكالة المخابرات الإيرانية (SAVAK) عام 1955، وكوَّنت المخابرات الثلاث حلف تعاون إستراتيجي أُطلق عليه التحالف الثلاثي (Trident).

2- آمان:

وهو جهاز المخابرات الحربية التابع لرئيس الأركان، والمسئول عن الحصول على المعلومات العسكرية المطلوبة والمشاركة العسكرية أيضًا من خلال فرقة الكوماندوز «سيريات»، المختصة بالعمليات السرية التابعة لرئيس الأركان، وقد تم إنشاء جهاز آمان مع بداية نشأة إسرائيل في يونيو 1948، وينقسم الجهاز إلى ست إدارات، أهمها إدارتان، الأولى هي إدارة جمع المعلومات، وهي المختصة بالعملاء و المرشدين خارج حدود إسرائيل، والنفاذ لأنظمة الهواتف في الدول العربية لتسجيل مكالمات الخطوط الأرضية، وقيل إنها هي التي سجَّلت المحادثة الهاتفية بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين قبل حرب 67، كما أنها مسئولة عن إعاقة وتشويش الاتصالات العسكرية للجيوش العربية. أما الثانية فهي إدارة الإنتاج: وهي الإدارة المسئولة عن تلقي وتحليل المعلومات التي تم جمعها من إدارة جمع المعلومات بحيث يتم تناولها جغرافيًّا، وبها قسم لتحليل علاقات الدول العربية بعضها ببعض.

3- الشين بيت:

وهو الجهاز المقابل للـ(FBI) الأمريكي، وقد أُنشئ مع بداية الدولة الإسرائيلية في عام 1948، وهو جهاز الأمن القومي المعني بمكافحة التجسس والمسئول عن أمن الأفراد من الإرهاب داخل

إسرائيل، ومن أولويات مهامه الكشف عن الجواسيس وشبكات التجسس داخل إسرائيل.

4- لاكام:

هو جهاز معني بالحصول على المعلومات العلمية الخاصة بالمفاعلات والمواد الخام النووية، وتصاميم الطائرات المقاتلة، وقراءة صور الأقمار الصناعية، وكانت المعلومات المتاحة تشير إلى أنه أنشئ عام 1957، وقد علمت فيما بعد أنه تم حل هذا الجهاز عام 1986 عقب فضيحة جوناثان بولارد في العام نفسه، والذي تجسس على الولايات المتحدة.

5- مكتب اتصال المهاجرين اليهود:

وهو مكتب تابع لرئيس الوزراء ومسئول عن المتابعة والحصول على المعلومات المتعلقة بالجاليات اليهودية في أنحاء العالم، إضافة إلى المتابعة والعمل على هجرة هؤلاء اليهود إلى إسرائيل، وقد أنشئ المكتب عام 1953.

6- مستشار رئيس الوزراء للإرهاب:

هذا المنصب تم استحداثه في عام 1972 بعد حادث اختطاف طائرة العال من روما، وقد باشر هذا المنصب مهامه في الحصول على المعلومات الخاصة بالمنظمات والشبكات الإرهابية، كما يقوم بالتنسيق ما بين مكتب رئيس الوزراء والأجهزة المخابراتية

والمؤسسات الأمنية للعرض على رئيس الوزراء في الموضوعات الخاصة بالإرهاب.

وقد تناولت جلسات التلقين معلومات شديدة الأهمية، حول العمليات التي قامت بها المخابرات الإسرائيلية سواء ضد أعدائها أو أصدقائها، ومنها: أساليب التجنيد التي يتبعها الموساد مع عملائه، وقضايا سرقات إسرائيل من الدول الأجنبية، سواء الصديقة أو غير الصديقة.

*أسلوب جهاز الموساد في تجنيد العملاء:

تضمن التلقين أسلوب الموساد في تجنيد العملاء، حيث تبدأ مراحل التجنيد بالفرز والاختيار للهدف المطلوب تجنيده، ويقوم بها ما يطلق عليه «الفرَّاز» Spotter والذي يقوم بالتحري عن كل المعلومات المتعلقة بهذا الهدف، ويتم الاقتراب منه وتنمية علاقة معه لبناء الدافع ليصبح عميلًا، واكتشاف نقاط ضعفه التي يمكن من خلالها البدء في تجنيده، وعادة ما يتم تقديم عرض التجنيد في البداية بشكل غير مباشر من خلال عمل تجاري، أو عمل ملاحي، أو وظيفة، وإذا كان العميل عربيًّا فيعرض عليه في مرحلة لاحقة العمل لحساب الناتو أو دولة أوروبية أو الـ (CIA)، أما إذا كان العميل أجنبيًّا فيكون العرض صريحًا في العمل لصالح الموساد، وفي حالة الموافقة يتم التوقيع على عقد لفترة وبأجر محددين، وينص العقد عادة على كيفية الحصول

على المكافآت والتوقيع على إيصالات تفيد بالاستلام، وبذلك يكون الهدف قد دخل في دائرة الابتزاز التي تُسفر حتمًا عن التجنيد.

وتحرص أجهزة المخابرات الإسرائيلية على توافر عناصر بعينها في شخصية مَن يستهدفون تجنيده، وعلى رأس قائمة هذه العناصر أن يكون طموحًا، وغير مكترثٍ، ولا يساوره الشك، ولا يتأثر ضميره، وأن يتصف بالثبات وبوضوح الرؤية عند تعرُّضه للمخاطر، ويكون قادرًا على اتخاذ القرارات الصحيحة في هذه الظروف، كما يجب أن تكون لديه الرغبة والقدرة على إطاعة الأوامر بدون نقاش.

وعادة ما يقوم الموساد بتجنيد العملاء في سن مبكرة؛ لسهولة تجنيدهم في سن العشرينيات بسبب عدم اكتسابهم الخبرة، وعدم نضج تفكيرهم، ورغبتهم في الحصول على المال في سن مبكرة تأمينًا لمستقبلهم، وهناك نقاط ضعف يجب توافرها في الشخص المرشح للتجنيد، ومن أهمها: معاقرة الخمر، أو إدمان المخدرات، أو الغرور والثقه الزائدة بالنفس، أو الخضوع للابتزاز، أو الاحتياج للمال والطمع في جمعه، أو الاكتئاب النفسي، أو الإحساس بالظلم من المجتمع نتيجة التخطي في الترقية أو الإجبار على الاستقالة، أو الإحالة للتقاعد المبكر بدون أسباب، أو الاقتناع الإيديولوچي بالشيوعية أو الرأسمالية، أو الضعف الجنسي، أو الشذوذ الجنسي، أو الضعف أمام السيدات ودخوله تحت سيطرتهم العاطفية.. إلخ.

كما أن هناك مهنًا يكون موظفوها تحت الرصد، منها: رجال الأمن والمخابرات، أو العاملون في وزارة الدفاع، أو الصناعات الحربية، أو الدبلوماسيون والإداريون بوزارة الخارجية، أو كبار موظفي الحكومة المدنيين، أو رجال الإعلام والصحافة، أو السياسيون والعاملون في مجال السياسة.

*استهداف الموساد لطياري مصر والعراق :

في أثناء الحديث عن طرق تجنيد الموساد للعملاء، لفت نظري وجود عدد من الحالات في مجال سلاح الطيران، وقد عرفت - خلال جلسات التلقين - أن ملفات المخابرات الحربية الإسرائيلية والموساد كانت تحتوي على معلومات مفصلة عن كل طيار مصري وعربي خلال الستينيات بما في ذلك معلومات عن عائلاتهم، وأقاربهم، وظروفهم العائلية، وذلك من خلال متابعة أخبار هؤلاء الطيارين وما يُنشر عنهم، سواء في حفلات عقد القران، أو التهاني المنشورة، أو التعازي، أو ما يتم نشره في أثناء زيارات كبار المسئولين للقواعد الجوية، إضافة إلى ما يجمعه عملاؤهم من ثرثرة وتباهي الأسر والأقارب، وفي أثناء التحقيقات مع جاسوس مصري أرمني اسمه توماس عمل لصالح إسرائيل، ذكر أنه تلقى أوامر من الموساد بالاقتراب من ومحاولة تجنيد أحد الطيارين المصريين وعرض مليون دولار عليه في حالة نجاحه في الهرب بطائرة حديثة من طراز «ميج 21» واللجوء إلى إسرائيل، وقد

تحقق ذلك بالفعل حين نجح الموساد في تجنيد النقيب عباس حلمي، الذي هرب إلى إسرائيل في يونيو 1964 بطائرة تدريب سوفييتية من طراز «YAK»، وقد أصيب ضباط الموساد بالإحباط لعدم حصولهم على طائرة «ميج» مقاتلة، وعلى الرغم من ذلك فقد استقبل الإعلام والحكومة الإسرائيلية الطيار المصري بحرارة، وقد أطلع المخابرات الحربية «آمان» على المعلومات التي بحوزته عن سلاح الطيران، ومواقع قواعد الطيران المصري، واستثمرت إسرائيل تواجده إعلاميًا من خلال عقد مؤتمرات صحفية ولقاءات إعلامية أدان فيها سياسة الرئيس عبد الناصر والتدخل المصري في اليمن وكيفية استخدام الجيش المصري للغازات السامة لإبادة قرى بأكملها في اليمن.

وقدَّم له جهاز آمان تعويضًا ماليًا وهوية جديدة ووظيفة براتبٍ مغرٍ، إلا أن عباس حلمي لم يستطع التأقلم في معيشته داخل المجتمع الإسرائيلي وطلب مساعدته للهجرة إلى الأرجنتين، وعلى الرغم من معارضة الموساد لذلك إلا أنهم قدموا له مبلغًا آخر من المال وهوية جديدة لبدء حياته في بيونس أيرس، ووضعت الأجهزة الأمنية المصرية عائلة عباس حلمي تحت المراقبة تحسبًا لأي اتصال، وبالفعل أخطأ الطيار المصري بإرسال خطاب لعائلته، فتم التعرف على مكانه في الأرجنتين وإرسال ثلاثة ضباط لتعقُّبه وتم استدراجه – من خلال امرأة – وتخديره ووضعه في صندوق خشبي وترحيله سرًّا بمساعدة السفارة المصرية، وتمت محاكمته وإدانته في القاهرة بتهمة الخيانة العظمى وصدر ضده حكم بالإعدام رميًا بالرصاص، وكانت ضربة ناجحة للأجهزة الأمنية المصرية.

ولم تكن هذه هي القصة الوحيدة التي سعى فيها الموساد إلى تجنيد طيارين من مصر وغيرها من الدول العربية، فقد بحث ضباط الموساد عن طيار مصري أو عراقي أو سوري لإغوائه بالهروب إلى إسرائيل بطائرة مقاتلة من طراز «ميج 21»، ووجدوا ضالتهم في طيار بسلاح الجو العراقي يدعى منير ردفا، وهو من أسرة مسيحية مارونية، ورغم ثراء أسرته، إلا أنها كانت تعاني من التمييز الطائفي، وكان منير يعمل في سرب «ميج 21»، وتدرب على أيدي الخبراء السوفييت، فأرسل الموساد عددًا من عملائه، بينهم سيدة يهودية فاتنة الجمال تحمل جواز سفر أمريكي، ذهبت إلى العراق كسائحة وتعرفت على منير، وأغوته بها لكنها رفضت مطارحته الفراش إلا إذا سافر معها إلى باريس، ورغم أنه متزوج ولديه طفلان، إلا أنه وافق على ذلك، وسافر معها في رحلة غرامية، وبعد يومين أقنعته بالسفر سرًّا إلى إسرائيل، وسافر بالفعل على متن طائرة العال، وتم استقباله استقبال الأبطال، حيث التقى الجنرال مردخاي هود - القائد الجديد لسلاح الطيران الإسرائيلي وقتها - الذي اصطحبه في جولة بإحدى القواعد الجوية الإسرائيلية، وفوجئ منير بحجم المعلومات الدقيقة والمفصلة المتوفرة لدى جهازي الموساد وآمان عنه، وعن أصدقائه، وزملائه الطيارين العراقيين، وأسماء وشخصيات المدربين السوفييت، وعرض الموساد على منير مليون دولار وحق اللجوء السياسي له ولأسرته ولمن يرغب من عائلته إذا نجح في الهروب بطائرة «ميج 21» والهبوط بها في إسرائيل، وأعطاه جهاز الموساد دفعة مقدمة وضعت باسمه في أحد البنوك السويسرية، كما تم الاتفاق معه على يوم التنفيذ وخط السير، وعاد منير مع السائحة

الأمريكية إلى باريس، ثم توجه وحده إلى بغداد، وقبل التنفيذ بيومين تم تدبير هروب أسرته من بغداد إلى طهران عن طريق الأكراد وعملاء الموساد، ومنها إلى إحدى الدول الأوروبية، ثم إلى إسرائيل، وفي التوقيت نفسه توجه مدير الموساد إلى واشنطن وأكد للبنتاجون أنه في القريب العاجل سيتم تمكين الجانب الأمريكي من فحص طائرة «ميج 21» دون الدخول في تفاصيل، وفي اليوم المحدد - وهو 1966/8/15 - انطلق منير بطائرته المقاتلة بسرعة فائقة، وعلى ارتفاع منخفض فوق سطح الأرض، حيث دخل من العراق إلى المجال الجوي الأردني، ومنها إلى إسرائيل طبقًا لخط السير المتفق عليه، وهبط في إحدى القواعد الجوية بجنوب إسرائيل، وأطلق على العملية الكود الرمزي «جيمس بوند 007»، على غرار اسم الفيلم الشهير في هذا الوقت، وتم منح منير ردفا وعائلته هوية جديدة، وأقاموا في إسرائيل، وقامت الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية الأعضاء في حلف الناتو بإرسال خبرائها إلى إسرائيل لفحص الطائرة «ميج 21» والتعرف على قدراتها والتكنولوچيا المتطورة المستخدمة فيها، وحصلت إسرائيل في المقابل على الكثير من المزايا والمساعدات العسكرية من تلك الدول.

*قضايا سرقات إسرائيل من دول أجنبية :

إذا كان هناك من منطق فيما تقدم يمكن إدراكه بشأن قيام إسرائيل بسرقة إحدى الطائرات من مصر أو من العراق، وما يبرر ذلك من كون الدولتين بينهما وبين إسرائيل حالة حرب وعداء معلنين، فما هو تبرير

قيام إسرائيل بسرقة تصاميم الطائرة الفرنسية «ميراج» من سويسرا، وزوارق الطوربيد من فرنسا، وكلتا الدولتين من أصدقاء، بل وحلفاء إسرائيل؟ والإجابة هي أن إسرائيل لا تتورع عن القيام بأي عمل عدائي حتى ضد أصدقائها وحلفائها، وبالتالي فإن إحدى السمات المميزة في السياسة الإسرائيلية هي الطعن من الخلف، والدليل على ذلك هو ما حدث في القصتين التاليتين اللتين عرفتهما أيضًا خلال جلسات التلقين قبل سفري إلى تل أبيب.

فقد تم رصد مهندس سويسري يُدعى ألفريد فرونكنيخت (Alfred Frouenknecht) عام 1971، يعمل في شركة سويسرية تقوم بتصنيع محركات المقاتلة الفرنسية «ميراج»، وكانت لديه نقطتا ضعف تتمثلان في النساء والمال، وكان العقيد دوف سيون «Dov Sion» - زوج ابنة موشي دايان - الذي يعمل كملحق الدفاع الإسرائيلي في باريس، قد التقى المهندس السويسري أكثر من مرة، قبل أن يقدمه إلى عدد من مهندسي الطيران الإسرائيليين - وكانوا من عملاء جهاز لاكام - والذين طلبوا منه القيام بتسليمهم نسخة من تصميمات محرك وهيكل الطائرة «ميراج» في مقابل مليون دولار، ووافق على القيام بالمهمة، واستعان بابن أخيه لإنجاز الكثير من التصوير والنسخ للتصاميم ووضعها في صناديق وتسليمها في لقاءات تمت بعدد من الفنادق، وقام عملاء إسرائيل بنقلها من سويسرا إلى ألمانيا، ثم إلى إسرائيل.

وكانت السلطات السويسرية قد وضعت المهندس تحت المراقبة، وألقت القبض عليه، واعترف بما فعله وتم تقديمه للمحاكمة؛ ليصدر ضده حكم بالحبس لمدة عام واحد فقط في مفاجأة للجميع! وقيل إن إسرائيل قد مارست ضغوطًا كبيرةً على قاضي المحكمة، وبعد ستة أشهر فقط قامت إسرائيل بتصنيع طائرة مقاتلة أطلقت عليها اسم «نيشار» Neshar وبها بعض ملامح المقاتلة «ميراج»، وفي إبريل 1975 أعلنت إسرائيل عن تصنيعها الطائرة المقاتلة «كفير» Kfir، وكانت صورة طبق الأصل من المقاتلة الفرنسية «ميراج».

أما القصة الأخرى فتوضح قيام إسرائيل بدور اللص، عندما نفذت عملية سطو مسلح لسرقة خمسة زوارق طوربيد مجهزة من ميناء شيربورج بفرنسا، وذلك بعد أن قررت فرنسا عقب حرب 1967 حظر بيع السلاح لإسرائيل كموقف سياسي، وكانت إسرائيل قد تعاقدت على شراء الزوارق الخمسة بمواصفات خاصة، وبعد القرار الفرنسي قررت الحكومة التحفظ على الزوارق في ميناء شيربورج إلى حين التوصل لحل فيما يتعلق بإنهاء الصفقة وفقًا للقرار السياسي الذي اتخذته الحكومة الفرنسية، وعرضت على إسرائيل استرداد مقدم ثمن الصفقة، لكن إسرائيل رفضت ذلك، وقررت سرقة واختطاف الزوارق، وقد اشترك جهازا الموساد وآمان في تخطيط عملية مشتركة، حيث تم تنفيذ عملية السرقة في ليلة عيد الميلاد 24 ديسمبر 1969، وذلك بسبب قلة الحراسة وحالة الاسترخاء الأمني في هذا التوقيت، كما تم رشوة عدد من مسئولي الميناء لتسهيل الإجراءات، وتقدم عملاء

إسرائيل إلى سلطات الميناء بعقود ووثائق مزورة، وأبحروا في رحلة من المفترض أن تكون تجريبية، ولم ترَ فرنسا هذه الزوارق مرة أخرى، حيث تم تزويدها بالوقود من سفينة بترول إسرائيلية انتظرتهم بالقرب من الميناء، وأبحرت الزوارق عبر البحر المتوسط باتجاه إسرائيل إلى أن وصلت إلى ميناء حيفا، وفي اليوم التالي أعلنت السلطات الفرنسية عن اختفاء الزوارق، في حين أعلنت إسرائيل أنها حصلت على ما يخصها وتستحقه.

كان ما سبق بعض ما تلقيته في أثناء جلسات ولقاءات التلقين، التي أضافت إليَّ الكثير، فشعرت بأنني حصلت على جرعة مكثفة من المعلومات التي ستصبح سندًا لي عند بدء مهمتي في إسرائيل.

*لقاء شرم الشيخ وضرب المفاعل العراقي:

انتظمت في مقر عملي بالخارجية من أول يونيو 1981، وعرفت أن رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين طلب عقد لقاء مع الرئيس السادات، وأن الرئيس وافق على عقد اللقاء في شرم الشيخ على الرغم من استمرار الاحتلال الإسرائيلي للمدينة، وتم اللقاء يوم 4 يونيو، حيث وصل الرئيس السادات ومعه النائب كمال حسن، الذي اصطحب معه السفير عصمت رضا مدير إدارة التطبيع، وكنت قد مكثت معه في اليومين الأخيرين لإعداد ملفات الموضوعات المنتظر التفاوض بشأنها، وقد حضر من تل أبيب السفير سعد مرتضى للمشاركة في

اللقاء، ومن الجانب الإسرائيلي حضر مع بيجين كل من إسحاق شامير، وزير الخارجية - وقتها - وعدد من معاونيه، والجنرال إبراهام تامير «إبراشا»، وديفيد مدير عام وزارة الخارجية، وموشي ساسون السفير الإسرائيلي في القاهرة، واصطحب بيجين الرئيس السادات في جولة - في سيناء - بطائرة مروحية، في حين عقد الوفدان اجتماعًا في فندق «مارينا» برئاسة وزيري الخارجية، واستعرض الاجتماع مسيرة التطبيع وما تحقق منها والصعاب التي تكتنفها والطلبات الإسرائيلية، وأطلعني السفير عصمت رضا على محضر الاجتماع لمتابعة الموضوعات التي تم تداولها والتفاوض بشأنها، وعلى رأسها الطلبات الإسرائيلية التي كانت تتعلق بالسياحة، والتأشيرات، والطيران المدني، والبحث عن الجثث الإسرائيلية.. إلخ.

وفي 7 يونيو، أي بعد اللقاء بثلاثة أيام فقط، قامت إسرائيل بمفاجأة العالم حين قصفت المفاعل النووي العراقي ودمرته بالكامل، وقد علمت من أروقة الرئاسة والخارجية والأجهزة المعنية فيما بعد أن الرئيس السادات قد استشاط غضبًا عند علمه بالنبأ في ضوء أن اجتماعه مع بيجين قد بدأ يُثير التساؤلات، والقيل والقال، مثل: هل أطلعه بيجين على نية إسرائيل ضرب المفاعل العراقي أم لا؟ وكان التقدير في كل الأجهزة المعنية، أن هذا لم يحدث، خاصة مع ما هو متوقع من معارضة السادات لهذا التوجه، ولكن الأهم هو تخوف بيجين من أن إفشاء هذا السر سيؤدي إلى إجهاض الضربة. المهم أن التساؤلات استمرت حول اللقاء المنفرد، والذي أساء، لا شك، إلى مركز الرئيس

السادات - في العالم الإسلامي - بدون مبرر، وتسبَّب له في حرجٍ بالغٍ في مصر والعالم العربي.

وقد ذهبت لأودع الزملاء في الخارجية يوم 10 يونيو، وأبلغتهم بأنني سأسافر إلى تل أبيب عن طريق البر بسيارة جديدة اشتريتها من زميل لي في الخارجية، وطلبت مساعدتهم في السماح لي باستخدام معدية رقم (6) التابعة لوزارة الدفاع وذلك لعبور قناة السويس؛ إذ لم يكن نفق الشهيد أحمد حمدي قد تم بناؤه آنذاك، ، وقاموا بتدبير ذلك، وكان سفري برًّا مفاجأة لهم، وطالبوني بالحذر، كما قاموا بإبلاغ منفذ العريش لتسهيل إجراءاتي كافة.

وأدركت أنني ذاهب إلى إسرائيل في وجود حكومة يمينية متشددة، خاصة عقب تعيين شارون كوزير للدفاع - بعد استقالة عيزرا فايتسمان - كما أدركت اختلاف عناصر وتوجهات السياسة الخارجية الإسرائيلية في عهد بيجين.

وفي الوقت نفسه، كنت أمر بضغوط عائلية تتمثل في خلافاتي مع زوجتي، التي وصلت إلى أقصى مداها؛ إذ اعتبرت أن قبولي للعمل بسفارتنا في تل أبيب هو ترسيخ لهذه الخلافات، في ضوء علمي بمعارضتها للسفر إلى إسرائيل، بل ولاستمراري في العمل بوزارة الخارجية، وفي النهاية اتفقنا على الانفصال، وبقاء نجلي حسام وكريمتي دينا معها، على أن نقوم بإتمام إجراءات الطلاق في أول عودة لي إلى القاهرة، وهكذا كنت في طريقي إلى تل أبيب بمفردي.

*السفر إلى تل أبيب برًّا :

اتصلت هاتفيًا بالسفير سعد مرتضى في تل أبيب يوم 11 يونيو من مكتب النائب كمال حسن، وقلت له إنني سأسافر برًّا يوم 14 يونيو، وأبدى اندهاشه مما أقول، فأخبرته بأمر السيارة، قائلًا له إنني سألتقي محافظ العريش اللواء يوسف صبري أبو طالب - الذي تولى منصب وزير الدفاع لاحقًا - وسأدخل إلى الجانب الإسرائيلي من منفذ العريش، علمًا بأنني على علاقة عمل بكل العاملين في المنفذ الإسرائيلي وبقائده أيضًا، وكان اسمه شاخر، وذلك من خلال مشاركتي في اللقاءات الثنائية لبحث موضوعات المنفذ، وانزعج السفير بشدة، فحاولت طمأنته وطلبت منه إبلاغ المنفذ الإسرائيلي في العريش بمذكرة رسمية من السفارة، وإعداد تأمين شامل على السيارة ضد المخاطر؛ ليكون ساريًا منذ لحظة دخولي.

ويوم 13 يونيو، طلبت لقاء النائب كمال حسن لأودعه، وفي أثناء اللقاء اقترحت عليه أن أقوم بحضور اجتماعات التطبيع والحكم الذاتي؛ لأكون حلقة اتصال بين السفارة والوفود المصرية، وحتى تكون السفارة على اطلاع دائم بما يتم في هذه الاجتماعات من خلال أرشيف بالسفارة أقوم بإنشائه يتضمَّن كل محاضر جلسات لجان التطبيع والحكم الذاتي، ووافق النائب فورًا على الاقتراح وأصدر تعليماته بإرسال برقية بهذا المعنى للسفير سعد مرتضى.

ولم يكن النائب كمال حسن، بالنسبة لي، مجرد مسئول كبير فحسب،

وإنما كنت أشعر بطيبة قلب هذا الرجل وحنانه الأبوي تجاه العاملين معه، وكنت أحترم ذكاءه الشديد، وذاكرته القوية الفوتوغرافية، وسعة أُفقه وانفتاحه على المقترحات، وحُسن استماعه واحترامه للجميع، الصغير منهم قبل الكبير، كما كنت أُكنُّ كل التقدير لخبرته التراكمية، سواء من مناصبه العسكرية التي تقلدها حتى أصبح وزيرًا للدفاع، أو خلال رئاسته لجهاز المخابرات العامة، ثم تقلده منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، ثم تعيينه فيما بعد كرئيس لوزراء مصر.

ودَّعت السفير عصمت رضا وبقية الزملاء في المكتب، وبدأت رحلتي - ومعي الزميل صاحب السيارة - فجر اليوم التالي، من القاهرة إلى الإسماعيلية، وعبرنا معدية المخابرات الحربية، ووصلنا إلى مدينة العريش في العاشرة صباحًا، واستقبلنا العاملون بالمنفذ وبالمحافظة، ثم التقينا المحافظ، وعندما خرجت لأستقل سيارتي وجدت مفاجأة في انتظاري؛ فقد كنت أتوقع وضع لوحتَي «جمرك العريش» بدلًا من لوحتَي «جمرك السويس».. لكنني وجدت لوحتين لونهما أسود عليهما «هيئة دبلوماسية: بغداد العراق» باللغتين العربية والإنجليزية، ولم تكن المفاجأة سارة بالتأكيد، وعندما سألت عن السبب في ذلك، قال لي مسئول الجمارك إن السيارة لم تسدد التعريفة الجمركية الخاصة بها؛ لذلك فعند خروجها من مصر يجب أن توضع عليها اللوحتان المعدنيتان اللتان دخلت بهما إلى مصر، وأُسقط في يدي؛ إذ كيف سأعبر إسرائيل بمثل هذه اللوحات؟ وعندما وصلت إلى الجانب الإسرائيلي استقبلني مدير المنفذ بترحابٍ غير عادي، ودعاني

على غداء مبكر، ولكن كانت بانتظاري مفاجأة أخرى، حيث أبلغني بوجود تظاهرات فلسطينية في قطاع غزة، قائلًا إن بعض الطرق مغلقة؛ لذلك عليَّ أن أسلك طريقًا آخر جنوبي القطاع، والالتفاف حول غزة للوصول إلى تل أبيب، وأعطاني خريطة ووضع علامات على الطرق التي يجب السير فيها، مضيفًا أن سيارة شرطة يمكن أن تدلني على أول الطريق، ولكنها لا تستطيع أن تصحبني إلى تل أبيب نظرًا للعجز في عدد سيارات الشرطة المتاحة واحتياج المنفذ لها!

انطلقت في طريقي الذي اقترحه مدير المنفذ، حيث مررت بمزارع ومساحات خضراء، كما مررت على عدد من المستوطنات، وقبل وصولي إلى تل أبيب بحوالي مائة كيلو متر، توقفت للتزود بالوقود من إحدى المحطات، وجاءني شخص بملابس عسكرية وتحدث معي بالعبرية، فقلت له بالإنجليزية إنني لا أتحدث العبرية، فتحدث معي بالإنجليزية، موضحًا أنه ضابط برتبة ملازم ثانٍ، وأنه في طريقه إلى تل أبيب، وطلب مني أن أُقله معي إذا كنت متوجهًا إلى تل أبيب، فوافقت على ذلك؛ لأن وجود ضابط جيش إسرائيلي معي بملابسه العسكرية سيكون مفيدًا في حالة وجود قلاقل أو مظاهرات، وفي أثناء السير تجاذبنا أطراف الحديث، فسألني عن جنسيتي، وعملي، وأخبرته بأنني دبلوماسي مصري، وأنني في طريقي لتسلم عملي بالسفارة المصرية في تل أبيب، وبدت عليه علامات الانزعاج والتردد، قائلًا إنه ظن أنني سائح أمريكي في سيارة تحمل لوحات معدنية أجنبية، وأضاف أنه لو علم بأمري لما حضر معي هذا الجزء من الطريق؛ لأن لديهم

تعليمات - باعتبارهم ضباط جيش - بعدم التواصل مع الدبلوماسيين الأجانب وعدم الاتصال بالسفارات، وبعد أن تردد للحظات، قرر المضي في طريقه معي إلى تل أبيب، وطلبت منه أن يدلني على عنوان السفارة التي تقع في شارع «بازل» وسط المدينة، فرفض ذلك قائلًا إنه سيضطر لمغادرة السيارة قبل كيلو متر على الأقل من السفارة حتى لا تراه الحراسة الإسرائيلية المتواجدة أمام السفارة، ثم وصف لي كيفية الوصول، وبالفعل أكملت طريقي ووصلت في الخامسة بعد العصر.

وبمجرد وصولي أخبرني رجال الأمن المصريين في السفارة بقلق السفير والزملاء عليَّ؛ لتأخري في الوصول، فاتصلت بالسفير سعد مرتضى الذي هنأني بسلامة الوصول، وعاتبني على اتخاذي الطريق البري في رحلة الذهاب لتسلُّم عملي.

وأجريت عدة اتصالات من السفارة، الأول بأخي «سمير» المقيم في أمريكا لأطمئنه على وصولي؛ لأنه الوحيد الذي كان يعرف أنني سافرت إلى إسرائيل برًّا، ثم اتصلت بابن خالتي في لندن، وكان اتصالي الثالث بسيدة إسرائيلية تدعى «هنريت»، كنت أحمل لها خطابًا وهدية رمزية من أحد أصدقائي وزوجته، وكنت قد التقيتهما قبل سفري، وعندما أخبرتهما بنقلي إلى سفارتنا في إسرائيل، ذكرا لي أنهما تعرَّفا على سائحة إسرائيلية من أصول هولندية، وقاما بدعوتها على العشاء، فكان حديثها شيقًا، وأكدا أنها من محبي السلام والمتحمسين للتطبيع، وسلَّماني في النهاية مظروفًا مفتوحًا أغلقته بنفسي، وبعد وصولي إلى السفارة اتصلت بها، فردَّت عليَّ شقيقتها وأعطتني رقم هاتف

منزل والديها في القدس، وأخبرتني أنها ستكون موجودة الليلة هناك، فاتصلت بها، وردت عليَّ بالفعل، وأبدت سعادتها عندما عرفت سبب اتصالي، واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي.

3

أيامي الأولى في إسرائيل

*أول مواجهه مع المخابرات الإسرائيلية :

حضر زميلي سكرتير أول السفارة الدكتور فاروق مبروك واصطحبني معه إلى منزله، حيث تناولت عشاءً عائليًا مع أسرته، ثم أخذني إلى الفندق الذي سأقيم فيه، وكان اسمه «دان هوتيل»، وهو فندق قديم، ومتواضع بعض الشيء، وبمجرد دخولي إلى الغرفة بالطابق الأول وضعت حقائبي وعدت للترحيب بزملائي في السفارة الذين جاءوا إلى بهو الفندق للترحيب بي، ولم أنسَ أن أضع علامات معينة قبل مغادرة الغرفة كاحتياط أمني، وبعد قضاء وقتٍ قليل مع زملائي، اقترح أحدهم اصطحابي في جولة مسائية في تل أبيب، ووافقت على ذلك، ولكن بعد أن أعود إلى غرفتي لإحضار حافظة نقودي، وصعدت السلم على عجل لعدم انتظار المصعد، وركضت في الممر المؤدي إلى غرفتي، فإذا بشخصين يسيران بسرعة في عكس اتجاهي، وعندما فتحت باب غرفتي اكتشفت أن العلامات التي كنت قد تركتها في غير موضعها، ولم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء لأدرك أنهما كانا في غرفتي، ولم يسمح لهما ضيق الوقت بإعادة وضع العلامات كما كانت، واكتشفت على الفور فتح حقائبي، وتيقنت أنني قد استثرت فضول المخابرات الإسرائيلية وحب استطلاعهم تجاه الدبلوماسي المصري الجديد الذي جاء إلى تل أبيب برًا بسيارته الخاصة.

عدت مسرعًا إلى زملائي، ولم أقل لهم شيئًا، وبدأنا جولة في وسط وأنحاء تل أبيب. كان عدد سكان تل أبيب - وقتها - يزيد قليلًا على

700 ألف نسمة، وكانت شوارعها نظيفة وتنبض بالحياة والحركة والنشاط التجاري، وشاهدت عددًا من المقاهي والمطاعم المليئة بالرواد في وسط المدينة وشارع الكورنيش، ومررنا على مبنى كبير قال زملائي إنه مركز ثقافي يضم قاعات كبيرة تعزف بها فرق الموسيقى الكلاسيكية، ثم ذهبنا إلى مركز النشاط التجاري في وسط المدينة، وهو شارع «ديزنجوف» المليء بمختلف أنواع المحال التجارية، كما مررنا على شارع «هايركون»، وهو على اسم نهر صغير يخترق تل أبيب، وفي نهايته - على بعد سبعة كيلو مترات - تقع مدينة يافا القديمة.

كانت جولة مفيدة أعطتني انطباعًا حقيقيًّا عن المدينة، وبعد عودتي إلى الفندق تحدثنا قليلًا أمام المدخل عن الشقق المتاحة وأسعار إيجارها مفروشة، لعدم رغبتي في تأثيث منزل.

وفي اليوم التالي، اصطحبني أحد زملائي إلى السفارة، ورحب بي السفير سعد مرتضى، وكذلك الوزير المفوض محمد بسيوني، ودار حديث مطول عن العمل في السفارة، وتوجهاتها، وأخبرني السفير بأنني إلى جانب عملي سأكون مكلفًا بحضور جلسات محادثات التطبيع والحكم الذاتي - حسب توجيهات النائب - وأبدى رغبته في تأسيس أرشيف منظم ومنفصل بملفاته لمواضيع هذه المحادثات، مشيرًا إلى أن ذلك سيدخل في إطار مسئولياتي.

مر اليوم سريعًا، ودعاني زميلي المستشار أحمد جمعة على الغداء في أحد المطاعم الشرقية المطلة على البحر، وعدت إلى الفندق

بسيارتي وهاتفت هنريت وأبلغتها باسم الفندق الذي أتواجد فيه واتفقنا على اللقاء في الثامنة مساءً.

وقبل الموعد بساعة، وفي أثناء تجولي بالفندق، وجدت قاعة للتلفزيون، ولاحظت وجود عدد كبير من المشاهدين فاعتقدت أنها مباراة كرة قدم أو برنامج سياسي، وجلست معهم للمشاهدة، فوجدت أن البرنامج الذي يشاهده الجميع كان عن المحرقة «الهولوكست»، ولقاءات مع الذين نجوا من بين أيدي الحكم النازي، وكان كلٌّ منهم يروي قصته، وكيف كان سيتم إعدامه أو قتله أو إدخاله إلى أفران الغاز البشرية، وكيف تم إنقاذه في اللحظات الأخيرة، وأن الذي أنقذه ضحى بحياته وذهب بدلًا منه، كما تحدث بعضهم عن فترات طويلة قضوها في معسكرات اليهود، وعن زملاء لهم في هذه المعسكرات لا يذكرون إلا أسماءهم الأولى والرقم المسلسل الذي تم وضعه بالوشم على أذرعهم، وأنهم لا يعلمون شيئًا عن هؤلاء منذ عام 1945، ثم يبدأ البرنامج في تتبع خط سير السجين الآخر، الذي يحمل هذا الرقم المسلسل، إلى أن يتم العثور عليه في إحدى دول أمريكا اللاتينية، وتكون المفاجأة الكبرى في لقاء هذين الشخصين في تل أبيب، ويكون اللقاء مؤثرًا للغاية ومليئًا بالدموع والأحزان، وفي أثناء تبادل حديث الذكريات المؤلمة، تأتي سيرة شخص ثالث، ويكون البرنامج قد تتبعه بالرقم المسلسل أيضًا، وعثر عليه في إحدى الدول الأوروبية.. وهكذا.

وشعرت – من منطلق إنساني بحت – أنني أتفاعل مع هذه المشاعر التي يمتلئ بها البرنامج، بل وأتأثر بها وأتعاطف مع حبكة وإتقان الإخراج

واللقاءات والعواطف والشعور بالإشفاق على الذين لقوا حتفهم في أهوال المحرقة وأفران الغاز، كما شعرت بالسعادة عندما شاهدت لقاء سجينين تزاملا وهرب كل منهما في طريقه إلى دولة مختلفة، حتى التقيا في تل أبيب بعد سبعة وثلاثين عامًا، وفجأة تنبهت إلى انسياب مشاعري وتفكيري، وأيقنت من مدى مهارة الإعلام الإسرائيلي في استثمار هذه البرامج واستغلالها بكل الطرق، وبمهارة تحسب له، وأدركت مدى إتقان إسرائيل لاستخدام وتوظيف الإعلام والأفلام التسجيلية والمعلومات المتاحة وأسلوب تتبع الأفراد اليهود وعقدة الذنب، بحيث تكتسب مشاعر التعاطف من جانب شعوب الدول كافة.

توقفت فجأة عن المشاهدة، وراجعت نفسي، وقررت عدم الانجراف والتعامل بالعقل والمنطق في مشاهداتي لبرامج الإعلام الإسرائيلي، وتمنيت لو كان لدى مصر والدول العربية نصف هذه الآلة الإعلامية الجبارة؛ لتعمل على إظهار الحقائق التي ترتكبها إسرائيل من مذابح ومجازر وأعمال عدوانية ضد الشيوخ والنساء والأطفال.

*لقائي مع أول سيدة إسرائيلية :

كانت الساعة قد مرت دون أن أشعر، حتى سمعت نداءً باسمي في ميكروفون الفندق، فتوجهت إلى الاستقبال لأجد هنريت في انتظاري. كانت شابة في السادسة والعشرين، جميلة، جذابة، شعرها قصير، ممشوقة القوام، مفعمة بالنشاط والحيوية والطاقة.

وحين سلمتها الخطاب والهدية، كانت مسرورة للغاية، وفاجأتني بقولها إنها كانت تتوقع أن تلتقي رجلًا في الخمسين من عمره، قصيرًا وبدينًا وأصلعًا، ويضع على عينيه نظارة سميكة، ولكنها فوجئت حين وجدت شابًا وسيمًا، فقلت لها ضاحكًا: «أرجو ألا أكون قد خيبت ظنك!»، ثم أخبرتها بأن لديَّ سيارة ومتسعًا من الوقت الليلة، وأنني على استعداد لدعوتها على العشاء، والمشكلة الوحيدة هي أنني وصلت أمس فقط إلى تل أبيب، ولا أعرف أي مطاعم أو أماكن بعينها، كما أنني لا أعرف الطرق أيضًا، وقد قبلت دعوتي لها، وذهبنا إلى مدينة يافا، واختارت هي أحد المطاعم الهادئة، وأبديت لها رغبتي في التعرف على المجتمع الإسرائيلي الحقيقي بمميزاته وعيوبه، فقالت: «دعني أولًا أعرفك بنفسي، فأنا هولندية الأصل، إسرائيلية الجنسية، يهودية الديانة، لا أمارس طقوس وصلاة المعابد، والآن دعني أقدم لك الشعب الإسرائيلي في كلمات مختصرة: فكلمة الأرض تعني الوطن باللغة العبرية؛ لذلك تضاف كلمة الأرض إلى إسرائيل (Israil Ha Aretz)، ولقد عاش اليهود عشرات القرون بلا وطن، وكلمة الأرض عندنا تعني أيضًا التمسك بالبقاء على قيد الحياة، ولقد كان أمن اليهود الشخصي مستباحًا، وعلى الرغم من وجود فوارق بين الطبقات، واختلاف في العديد من المفاهيم بين فئات الشعب الإسرائيلي؛ إلا أن لديهم إيمانًا راسخًا وعقيدة ثابته بأن أرض إسرائيل هي دولتهم ومقر تجمعهم بعد الشتات، وبها تاريخهم وحضارتهم ومعتقداتهم وحياتهم، وإليها مماتهم».

كانت منفعلة وهي تتحدث، فأردت إخراجها من هذه الحالة قائلًا: «وما هي قصة البخيل اليهودي؟»، فنفت تصديقها لهذه القصة، قائلة إن المجتمع اليهودي، ككل المجتمعات، فيه الكريم والبخيل، ولكن بصفة عامة فإن المواطن الإسرائيلي - حتى الثري - لا ينفق على المظاهر.

ثم تحدثت عن افتقاد الأمن، قائلة: «هل تعلم أن كل مواطن إسرائيلي يعتبر نفسه مسئولًا عن أمن وسلامة إسرائيل وشعبها، ومن أجل ذلك يتطوع السكان للتجول ليلًا بنظام المناوبات، حاملين السلاح، للإبلاغ عن كل ما يدعو للاشتباه؟»، وأضافت أنها تقوم شخصيًّا بهذه المهمة، ولها مناوبة واحدة كل شهر.

ثم حدثتني عن العادات الاجتماعية، فقالت إن يوم الراحة الأسبوعية هو يوم السبت، وهو عطلة تكتسب طابعًا دينيًّا، فتتوقف الصحف عن الصدور - وكان هذا مثار دهشتي - وتمتنع ربة المنزل عن الطهي؛ ولذا يتم إعداد طعام خاص بيوم السبت على نار هادئة للغاية، يبدأ إشعالها من بعد ظهر يوم الجمعة، ويمتنع اليهودي المتدين عن القيام بأي نشاط، ولا يعمل ولا يستطيع ركوب السيارة، وتتوقف المواصلات العامة.

وذكرت أن والديها يعيشان في هولندا، ويحضران لزيارتها، وتستقبلهما عادة بشقتها في القدس، مشيرة إلى أنهما غادرا إلى أمستردام بعد أن حضرا حفل «بارميتسفا» لابن أحد أقاربهما، وأوضحت أن أي والدين يقيمان هذا الحفل لنجلهما البالغ من العمر

ثلاثة عشر عامًا، بينما يقام للبنات حفل مماثل اسمه «ميتسفا» عندما تبلغ الفتاة اثني عشر عامًا، حيث تبدأ مرحلة الرجولة بالنسبة للأولاد، والأنوثة بالنسبة للبنات في هذين السنين، واسترسلت بأنه عادة ما يبدأ الاحتفال في المعبد اليهودي «السيناجوج»، وينتهي بحفل في المنزل، حيث يُلقي الطفل «كلمة» - بهذه المناسبة - يتم إعدادها له مسبقًا.

وسألتني فجأة، وكأنها تذكرت شيئًا كانت قد نسيته: «هل تعلم ما هو معنى كلمة تل أفيف؟» - الإسرائيليون يقلبون الباء فاءً في كلمة «أبيب» - فرددت بالنفي، فواصلت كلامها كأنها كانت تتوقع ردي: «إنها تعني تل زهور الربيع، وستجد في كل منزل وشقة مهما صغرت أو كبرت نباتات وورودًا وأزهارًا، وستكتشف أن أجمل هدية يمكن أن تقدمها لأصدقائك عند دخولك منزلهم لأول مرة هي النباتات الخضراء والزهور».

كنت مستمتعًا بحديثها، وفي نهاية العشاء ذكرت لي أنها غير مرتبطة بأحد، وسألتني إن كنت متزوجًا أو مرتبطًا، فأخبرتها بأنني متزوج ولي طفلان، ولكنني انفصلت عن زوجتي مؤخرًا، وبدأت الكيمياء في التفاعل ما بيننا، وبصراحة كنت أرغب في خوض هذه التجربة.

*انتقالي إلى فندق «ديبلومات»:

ذهبت إلى مكتبي في اليوم التالي، وبدأت بالاطلاع على كتاب البعثات الأجنبية، ووجدت نحو خمس و ثلاثين بعثة وسفارة في تل

أبيب، معظمها سفارات للدول الغربية، ولم تكن هناك سفارة لأي دولة من دول أوروبا الشرقية ما عدا سفارة رومانيا، كما لم تكن هناك أي سفارات أفريقية، وبالطبع عربية.

بدأت في ترتيب الاتصالات لعقد لقاءات مع نظرائي في السفارات المختلفة، وأخذت مواعيد للقاء مع سكرتير أول السفارة الأمريكية، وكذا سكرتير أول السفارة البريطانية.

وفي اليوم نفسه، وبعد مناقشة مع عدد من الزملاء، اتخذت قراري بتغيير إقامتي من فندق «دان هوتيل» ذي النجوم الثلاث والخدمة المتواضعة، وذهبت مع أحد الزملاء في جولة لعدد من الفنادق، وأعجبني - إلى حد كبير - فندق على الكورنيش اسمه «ديبلومات»، فعدت إلى السفارة وطلبت من السكرتيرة الاتصال بمدير الفندق، الذي أبدى ترحيبه وتحمسه واستعداده لعمل خصم إذا ما طالت مدة الإقامة، واقترح إرسال نائبه إلى السفارة لعرض خدمات وتسهيلات الفندق، وبعد ساعة أبلغتني السكرتيرة بوجوده في انتظار لقائي، ودخل إلى مكتبي شاب في منتصف الثلاثين من العمر، وقدم نفسه لي باسم روبرت ياديد - وهو اسم حقيقي - وفوجئت به يتحدث العربية بلهجة لبنانية، وقال لي إنه لبناني يهودي، ولد وعاش طوال عمره في لبنان، وغادره عام 1968 إلى فرنسا لإتمام دراسته في مجال الفندقة والسياحة، ثم انتقل إلى تل أبيب عام 1971 حيث تلقى تدريبه وعمل في عدد من الفنادق، وانتهى به المطاف للعمل في فندق «ديبلومات»، وهناك ترقى بسرعة ليتقلد منصب نائب مدير عام الفندق، واستعرض

معي إمكانيات الفندق، وقدم لي عرضًا مغريًا بخصم يصل إلى 50 % على سعر الغرفة المزدوجة المطلة على البحر، مع تقديم خصم إضافي على فواتير المأكل والطلبات الخاصة.

وبالفعل انتقلت مساء اليوم نفسه إلى الفندق، وبمجرد دخولي إلى الغرفة اتصل بي روبرت ودعاني على العشاء في أحد المطاعم، وذهبت معه إلى مطعم إيطالي في وسط المدينة، حيث حضر مالك المطعم ليرحب بي مبديًا اهتمامه وحفاوته، وقال إنه سيحضر بعد أن نتناول العشاء للحديث معنا. وأخبرني روبرت بأن زوجته مغربية، مؤكدًا أنها متحمسة للقائي ودعوتي على غداء عائلي، وانتقل حديثنا إلى المطاعم، فذكر أن كثيرًا من المطاعم تراعي التقاليد الدينية «الكوشير»، خاصة في مطاعم الفنادق، وأن لديهم في الفندق رجل دين «راباي» يتواجد في المطابخ للإشراف بنفسه على تطبيق هذه التعليمات، والمتمثلة في عدم تقديم اللبن أو مشتقاته بعد تقديم وجبة من اللحم، وكذلك عدم تقديم الجمبري أو المحار أو الأسماك التي لا قشر لها، مضيفًا أنه إذا تم اكتشاف أي خرق للتعليمات فمن حق الراباي أن يُغلق مطبخ الفندق وتصبح مشكلة كبيرة، وقال إنه بالرغم من أن 20 % فقط من اليهود يتمسكون بهذه التعليمات - وهو ليس واحدًا منهم - إلا أن الجميع يحترمونها ويعتبرونها جزءًا من تراثهم حتى في حالة عدم اتباعها بدقة، وقال مختتمًا حديثه عن المطاعم، إنه دعاني إلى هذا المطعم لأنه يتمتع بحرية تقديم الأطعمة المطلوبة على الطراز الإيطالي.

بعد ذلك حضر مالك المطعم، وفوجئت بأنه يتحدث العربية بلهجة ليبية، وقال إن عائلته تركت ليبيا في منتصف الستينيات، وانتقل هو إلى إيطاليا، ثم هاجر إلى إسرائيل عام 1968، واكتشفت أن لنا أصدقاءً مشتركين، وانتقل الحديث - من حيث لا أدري - عن الجبهات القتالية المختلفة في حرب 73، فذكر أن القيادة العسكرية منحته الخيار للتواجد على الجبهة المصرية أو السورية، وأنه اختار بلا تردد أن يكون على الجبهة السورية، مضيفًا أن كل اليهود الليبيين رفضوا أن يحاربوا على الجبهة المصرية أيضًا، وقال إن القيادة العسكرية الإسرائيلية كانت ترفض وضع اليهود المصريين على الجبهة المصرية، ربما لرفع الحرج عنهم، أو لتشككها في جدية أدائهم القتالي أمام إخوانهم المصريين؛ لأن معظمهم تركوا مصر دون أن تكون لديهم مشاعر سلبية أو ذكريات أليمة؛ فقد تركوا مصر بعزة نفس وبملء إرادتهم، بعد أن تم حصولهم على معظم أموالهم، كما سُمح لهم ببعض التحويلات، ولم يتعرضوا لأي أذى سواء من الحكومة أو من الشعب المصري، وتمت معاملتهم بكل احترام حتى لحظة مغادرتهم.

وعلّق روبرت بأن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية كانت تضع اليهود من أصول سورية ولبنانية وعراقية على الجبهة السورية، وأنه حارب على جبهة الجولان، مشيرًا إلى أنه في اليومين الأولين، ومع تقدم القوات السورية، كانت الدبابات تقوم بتسوية كل شيء بالأرض، وأنه أصيب بشظية في ساقه ونقل للعلاج، إلا أنه أصر على العودة مرة أخرى إلى الجبهة في أثناء استرداد القوات الإسرائيلية للجولان، وقد

سُمح له بالعمل الإداري واللوجيستي، وذلك بسبب لهجته اللبنانية وهيئته السورية، ولكنه مُنع من المشاركة في الوحدات القتالية.

وتأكيدًا لحديثه، ذكر مالك المطعم أن القيادة العسكرية كانت تثق في أداء اليهود من أصول سورية ولبنانية وعراقية على الجبهة في الجولان؛ لشعورهم بالمرارة والأسى والحزن والذل كمواطنين منبوذين من الدرجة الثالثة، كانوا مضطهدين ومهمشين في أثناء إقامتهم في سوريا والعراق ولبنان، وتعرضهم للقتل والشنق في الميادين العامة، وبعد لحظة صمت، استرجع ذكرياته عن مظاهرات كانت تنظم تحت شعار: «فلسطين بلادنا.. واليهود كلابنا»، واستطرد قائلًا إن روحهم المعنوية العالية كانت أحد أسباب استعادتهم للجولان بسرعة.

وبعد العشاء، ودعني مالك المطعم بحرارة، وأكد أن لي معاملة خاصة ومميزة عند حضوري مرة أخرى إلى المطعم لإعجابه بمصر وبالسفير المصري وبي شخصيًّا، وشكرته على مجاملته، وحين عدت إلى الفندق، دعاني روبرت على مشروب في بار الفندق، قائلًا إن زوجته ومجموعة من الأصدقاء ينتظروننا هناك، وعند وصولنا قدَّمني روبرت إلى زوجته «راحيل» - وهو اسم حقيقي أيضًا - التي رحبت بي بحرارة، معربة عن سعادتها بلقائي، وقامت بتقديم أصدقائها وصديقاتها.

*عشاء مع اليهود من أصول مصرية :

طلب مني السفير سعد مرتضى مرافقته في حفل يقيمه اليهود من أصول مصرية بشكل سنوي يوم 23 يونيو في فندق «هيلتون»، وكان هو ضيف شرف هذا الحفل، فرحبت بذلك، وذهبت معه في سيارته الرسمية، وكانت مفاجأة لي أن أرى حشدًا يزيد على سبعمائة مدعو كلهم من اليهود المصريين من الفئات العمرية المختلفة، وقد رحبوا بالسفير الذي قدمني لهم باعتباري أحدث عضو في السفارة، ولاحظت أن الجميع يتحدثون بشوق وبحب عن ذكرياتهم في مصر، وكانوا جميعًا يسألوننا عن حال مصر، كما كانوا يسألون عن الأماكن التي تربوا فيها، هل ما زالت موجودة أم لا؟ وتحدثوا عن ذكرياتهم في القاهرة، والإسكندرية، وحارة اليهود، والسكاكيني، والضاهر، وأكدوا على عدم تخليهم عن عاداتهم وتقاليدهم المصرية، وأعرب معظمهم عن شدة حرصهم على أن يتزوج الذكور من اليهود المصريين بيهوديات مصريات، وأن حرصهم على إتمام هذا النوع من الزيجات نتيجة قناعتهم بأن الزوجة المصرية ستتفهم عادات زوجها بطريقة أفضل من أي جنسية أخرى.

كانت ليلة شيقة استمرت إلى الواحدة صباحًا، وكانت الأغاني المصرية لأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ هي الطابع الغالب على هذا اللقاء الذي اتسم بالود وساعدني في بداية مشواري لفهم فئات المجتمع الإسرائيلي.

***

تكررت لقاءاتي مع هنريت خلال شهر يونيو، وقدمتني إلى صديقة لها من أصول هولندية أيضًا تُدعى آيلا، وقد دعتني صديقتها إلى حفل أقامته في منزلها بحضور العديد من الأصدقاء الإسرائيليين المقيمين في أوروبا والولايات المتحدة، وبدأت دائرة معارفي من كل الأطياف في الاتساع.

ورغم إقامتي في الفندق إلا أنني كنت مستمرًّا في البحث عن شقة كبيرة، على أن تكون مفروشة، وفي منطقة راقية، وبعد بحثٍ مضنٍ مع عدد من سماسرة العقارات حضرت إلى السفارة سيدة تُدعى شولا، وطلبت من السكرتيرة مقابلتي باعتبارها سمسار عقارات، وقد شرحت لها أن كل ما رأيته لم يعجبني، وبعض الشقق الملائمة كان إيجارها مرتفعًا للغاية رغم عدم خلوها من العيوب، فقالت وهي تحمل على وجهها ابتسامة هادئة إنني سأجد السكن الملائم والمناسب من خلالها، ولكن ذلك يتطلب الصبر والوقت، وشعرت أن الرسالة وصلتني من أجهزة الأمن الإسرائيلية؛ فهي بلا شك على اتصال بسماسرة العقارات، كما أن جهاز الشين بيت - لا شك أيضًا - يقوم بإعداد شقة مجهزة بأحدث وسائل التنصت، وإذا ما حاولت العثور على غيرها ستظهر لي العديد من العوائق والعقبات، وقد حاولت بالفعل من خلال بعض الإعلانات والأصدقاء، حيث عثرت على شقة متميزة، ودفعت مقدم الإيجار، وفي اليوم التالي ذهبت لتوقيع عقد الإيجار مع مالكة الشقة، إلا أنني فوجئت باتصالها لتعتذر بأدب شديد بحجة أنها لم تعلم أن زوجها قام بتأجير الشقة ووقع عقد إيجار بالفعل مع عائلة أمريكية،

وهنا أدركت أنني لا محالة سأقيم في الفندق، حتى يتم تجهيز شقتي بالشكل اللازم، وقد طال انتظاري لمدة شهرين ونصف الشهر، وهو أكثر مما توقعت.

*الإعداد لحفل العيد القومي :

في بداية شهر يوليو، عقد السفير سعد مرتضى اجتماعًا لطاقم السفارة - ونادرًا ما كان يحدث ذلك - استعدادًا لإقامة حفل العيد القومي في 23 يوليو، وكانت هذه هي المرة الثانية التي تقيم السفارة مثل هذا الحفل في تل أبيب، وأبلغنا أن رأيه استقر على فندق «هيلتون» لإقامة الحفل فيه، وبدأ في توزيع مهام إعداد الحفل على الزملاء كلٌّ في اختصاصه، وكلفني بتولي إجراءات تأمين الحفل مع الجهات الأمنية المعنية، ومع إدارة فندق «هيلتون»، وكان الإعداد والتحضير لهذا الحفل تجربة فريدة ومشوقة، حيث اتصلت برئيس قسم «مصر» في الخارجية الإسرائيلية وطلبت منه عقد لقاء معه على أن يضم القيادات الأمنية بالشرطة ووزارة الدفاع؛ لبحث الإعداد لحفل العيد القومي المصري، وتحمس محدثي واتصل بي في اليوم التالي وأبلغني بموعد اللقاء، وأطلعت السفير على ما قمت به، فطلب مني مصاحبته إلى فندق «هيلتون» لمعاينة المكان على الطبيعة، وبالفعل ذهبنا في اليوم نفسه، وكان مدير عام الفندق، ومدير أمن الفندق، في انتظارنا، ورحبا بالسفير وأكدا له أنهما سيبذلان كل ما هو ممكن للخروج بحفل

مشرف ستتحدث عنه تل أبيب وأجهزة الإعلام الإسرائيلية لعدة أشهر، وأكد السفير لهم أنني سأكون نقطة الاتصال بالسفارة فيما يتعلق بأي تفاصيل تخص الحفل، فأبلغتهما بأن لديَّ اجتماعًا مع رئيس قسم مصر في الخارجية الإسرائيلية وعدد من القيادات الأمنية، واتفقنا على مشاركة مدير أمن الفندق معنا في هذا الاجتماع، ثم قمنا بجولة في الفندق لمشاهدة موقع الحفل، وفوجئت بقاعة كبيرة للغاية، مفتوحة على تراس كبير، يطل على البحر مباشرة، ويتسع كل منهما لما يزيد على سبعمائة مدعو.

وذهبت في اليوم التالي إلى الخارجية الإسرائيلية في القدس والتقيت ثلاثة أفراد من القيادات الأمنية، وأخبروني باهتمام القيادات العليا بتأمين الحفل، وقالوا إن زوارق بحرية وسفنًا ستتواجد على مسافة كيلو متر تقريبًا من الشاطئ لمنع دخول أي مراكب صيد أو زوارق خاصة لمدة يومين قبل موعد الحفل، كما أن طائرات هليكوبتر ستحلق في دوريات فوق موقع الاحتفال، خاصة في الجزء المكشوف المطل على البحر، مؤكدين أنها ستكون من أكبر العمليات الأمنية التي تتم لتأمين حفل خاص أو عيد قومي لإحدى السفارات، بما في ذلك السفارة الأمريكية، وتكررت لقاءاتنا فيما بعد، أحيانًا في السفارة، ومعظم الأحيان في فندق «هيلتون».

وكان السفير سعد مرتضى في حيرة من أمره، حيث بدأ بدعوة حوالي سبعمائة مدعو، ثم بدأت تنهال عليه الطلبات من مختلف الجهات، وقال لي إنه لا يستطيع رد طلبات أعضاء الكنيست، حيث أبدى مَن لم

تتم دعوته منهم الرغبة في توجيه دعوة إليه لحضور هذا الحدث الذي وصفوه بالتاريخي، وكان هناك سباق بين الدوائر السياسية والبرلمانية والإعلامية والاقتصادية لحضور هذا الحفل، واتخذ التلفزيون الإسرائيلي قرارًا بنقل وقائع الحفل مباشرة لمدة تزيد على الساعات الثلاث، وهو ما لم أره في أي سفارة في الدول التي عملت بها من قبل، وطوال خدمتي في الخارجية فيما بعد.

وطلب السفير من أعضاء السفارة دعوة نظرائهم، وبدأت اتصالاتي لدعوة نظرائي في السفارات: الأمريكية، والأسترالية، والنرويجية، والفنلندية، كما اتصلت بسكرتير أول السفارة البريطانية، الذي اعتذر عن عدم الحضور بسبب نقله من السفارة، ورشح لي سكرتير ثاني السفارة رونا ريتشي، وقال إنها متواجدة حاليًا في عطلتها السنوية في أسكتلندا، ومن المنتظر حضورها قبل موعد الحفل بيومين.

ولم يكن التهافت على حضور هذا الحفل من الدوائر الإسرائيلية فحسب، بل كان من السفارات الأجنبية أيضًا؛ لذلك وصل عدد المدعوين إلى ألف ومائتي مدعو، اعتذر منهم سبعة فقط عن عدم الحضور لظروف طارئة، وبدأت أخشى من أن تعم الفوضى حفلًا يضم كل هذا العدد من المدعوين، أو أن يحدث العكس فتكون الإجراءات الأمنية صارمة بشكل قد يفسد جو الاحتفال، وأمضيت الأسبوعين السابقين للحفل في اتصالات واجتماعات مستمرة مع كل مَن له جانب في إعداد ترتيبات الحفل.

وجاء يوم الحفل، وكان رائعًا في كل شيء، فقد توافد المسئولون الإسرائيليون وعلى رأسهم مناحم بيجين، وأغلب الوزراء: موشي دايان، وشارون، وشامير، وبورج، وفايتسمان، وكانوا جميعًا يصطحبون زوجاتهم، وتم بث مراسم الحفل على الهواء في التلفزيون الإسرائيلي، ووسط هذا الازدحام تقدم أحد زملائي نحوي وبصحبته سيدة جميلة وجذابة، قدمت لي نفسها قائلة: «أنا رونا ريتشي من السفارة البريطانية، أود أن أشكرك وأعرب عن امتناني لدعوتك لي، خاصة أن سفيري فقط هو مَن تمت دعوته من السفارة، ولذلك فإن بقية زملائي يحسدونني على حضور هذا الحفل الرائع»، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي رونا فيها، وكانت شخصيتها مثيرة للجدل؛ فهي ممن يطلق عليهم feminist أي المدافعين عن حقوق المرأة، وبالتالي فهي لا تتزين ولاتضع أي مساحيق تجميل على وجهها، وكانت حريصة على إظهار ذلك لي، والحديث عن معتقداتها، ودار جدال بيني وبينها منذ أول لحظة، ويمكن القول أن الإعجاب المتبادل بيننا كان سمة هذا اللقاء.

وفي الحفل، طلب مني السفير سعد مرتضى ترتيب مكان له لإجراء بعض المقابلات الإعلامية، وقد كان السفير يتمتع بشخصية جذابة، وبقدرة على التعامل مع وسائل الإعلام، خاصة في ضوء خبرته من عمله كمدير لإدارة الإعلام والصحافة قبل أن يصبح سفيرًا في تل أبيب، وكان الشعب الإسرائيلي يتلهف لسماع أحاديثه وتصريحاته خاصة عن السلام المنشود، وهو ما كان يفتقده الإسرائيليون بشدة في ذلك الوقت، وقد استثمر السفير قدراته وإمكانياته وخبرته في التعامل

مع آلة الإعلام الإسرائيلية، وكان سريع البديهة، ومحاورًا جيدًا قادرًا على مقارعة الحجة بالحجة، وفي هذا الحفل سرق الأضواء الإعلامية حتى من الوزراء الإسرائيليين.

وكان الذكاء أحد صفات السفير، فكان على علم بتواريخ ميلاد المسئولين وأعضاء الكنيست وذوي النفوذ في إسرائيل، وكان يفاجئهم بإرسال باقات الورود والهدايا الرمزية إلى منازلهم مع بطاقة تحية منه، وقد تجلى هذا الذكاء في نهاية الحفل؛ إذ فوجئ جميع المدعوين بدخول كعكتين، الأولى تقليدية عليها علم مصر، والثانية كُتبت عليها عبارة: «عيد زواج سعيد»، والتفت السفير إلى شارون ليهنئه هو وزوجته بعيد زواجهما، وكانت لفتة أدهشت الجميع، وأولهم شارون وزوجته!

وقد انتهى الحفل بأمان، وبنجاح ساحق، وانتظرت بجانب السفير لتوديع المدعوين، وجاءت رونا وقبلتني شاكرة للدعوة مع وعد منها بالاتصال بي للقاء، ونظر السفير إليَّ وعلَّق بجملة واحدة: «إنها ممشوقة القوام وجذابة!»، فلم أعلق، وانتظرت معه مغادرة الجميع، ثم صافحته لأنصرف، لكنه سألني عما سأفعل الآن، فأخبرته بأنني سأذهب إلى الفندق لأحصل على قسط من الراحة؛ لأنني لم أذق طعم النوم منذ يومين، فقال لي ضاحكًا: «اترك الراحة الآن»، ثم طلب مني أن أذهب إلى الفندق لأغير ملابسي، ثم أعود إلى السفارة لإرسال برقية بمجمل لقاءاته مع رئيس الوزراء والوزراء الإسرائيليين في أثناء الحفل، مشيرًا إلى أنه سيدعوني بعد ذلك إلى تناول عشاء فاخر مع بعض أصدقائه المقربين له في مطعم روسي، كمكافأة على جهودي الاستثنائية التي بذلتها ليخرج حفل العيد القومي بشكل رائع.

بعد ذلك التقيته في السفارة، وأعددنا برقية تضمنت لقاءاته الجانبية، وتم إرسالها على الفور، ثم ذهبنا في سيارته الرسمية، وكنت أعلم أن لديه حارسًا شخصيًا ولكنني لم أعلم بوجود سيارة تتبعه من الخلف بها أربعة أشخاص، وسيارة أمامية تفتح له إشارات المرور الضوئية إلكترونيًا، وكان ذلك بمثابة اختراع مدهش في ذلك الوقت!

كما فوجئت به يحدثني، وهو يشير إليهم، قائلًا: «إنهم دائمًا فوق رأسي في كل مكان، حتى إنني أشعر بأن المهمة المكلفين بها ليست حمايتي الشخصية وإنما التجسس عليَّ وتسجيل كل تحركاتي ولقاءاتي»، وأضاف بأسى: «إنني لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان للعشاء قبل أن يدخل حراس الأمن الأربعة في المقدمة لمعاينة المكان إذا كان ذلك مطعمًا، مع بقاء أحدهم في طاولة بالقرب مني، أما إذا كانت الدعوة في منزل أحد الأصدقاء فيتسبب هذا الإجراء في الكثير من الحرج لي مع الداعين، ولذا أفضل دائمًا أن أكون أنا الداعي، وأن يكون في أحد المطاعم، على أن يقوموا بمهمتهم قبل وصولي». كنا قد اقتربنا من المطعم، فقال إنه مطعم روسي، ولكنه فاخر وبه فرقة تعزف عزفًا جميلًا لكل أنواع الموسيقى الروسية الكلاسيكية، مشيرًا إلى أنه دعا مجموعة صغيرة من الأصدقاء المقربين من يهود كندا.

وعند دخولنا إلى المطعم فوجئت بتوقف الفرقة الموسيقية عن العزف، حيث أعلنت بالميكرفون عن تشريف سفير مصر، وحضر مالك المطعم على الفور مرحبًا بالسفير، مبديًا سعادة غامرة بحضوره، كما فوجئت بقيام رواد المطعم وتصفيقهم ترحيبًا بالسفير.

وفي نهاية السهرة، تحدث السفير عن اتصالاتي الجيدة التي أجريتها مع الأجهزة الأمنية الإسرائيلية خلال الإعداد لحفل العيد القومي، وأعرب عن امتنانه الشديد لي إذا ما تمكنت من إزاحة العدد الكبير من حراس الأمن الإسرائيليين عن كاهله، قائلًا إنه يمكن الاكتفاء بحارس الأمن الموجود في السيارة، ووعدته بفعل ذلك، وانتهى اليوم الحافل بسلام، وعدت إلى الفندق منهكًا، وقفزت إلى سريري دون أن أغير ملابسي؛ لأستغرق في نوم عميق.

وفي اليوم التالي، جدَّد السفير طلبه بالاتصال بالدوائر الأمنية لتقليل الحراسة الإسرائيلية الموجودة في دار السكن؛ إذ يتواجد حراس الأمن الإسرائيليون بكل مكان في الحديقة، وأحد مواقع الحراسة عبارة عن منصة عالية تطل على غرفة نومه مباشرة ما يجعله لا يرى الشمس لأنه يسدل الستائر في غرفة نومه ليل نهار، وقد شعرت بمدى ضيقه وعدم راحته، وقررت المضي قدمًا في تحريره من هذه القيود، فاتصلت بعدد من المسئولين الأمنيين وعقدت اجتماعًا بالسفارة، وبعد مفاوضات - طوال اليوم - توصلت معهم إلى حل وسط، وهو الاستغناء عن السيارتين الأمامية والخلفية مع استبقاء حارس الأمن المتواجد في سيارة السفير، وتقليل أعداد الحراسة في حديقة دار السكن، ولكنهم أصروا على وجود حراس الأمن بالمنصات الثلاث الموجودة في المكان، مع تغيير موقع المنصة من أمام غرفة النوم مباشرة وإزاحتها عشرة أمتار بحيث يستطيع السفير أن يفتح نافذة غرفة النوم بشكل جزئي، وأبلغته بذلك وكان في منتهى السعادة لهذه النتيجة.

*تطور علاقتي مع رونـا :

دعوت نظرائي بعدة سفارات على غداء حول حمام السباحة في يوم سبت، وكان من بين المدعوين رونا ريتشي، وطلبت من المدعوين إحضار «لباس الاستحمام» لقضاء يوم بدون أي رسميات، ولم تحضر سوى رونا، واستقبلتها ببهو الفندق، ثم بدأنا يومنا بالاسترخاء حول حمام السباحة، وطلبت منها أن تحدثني عن نفسها، فقالت لي إنها كانت تحتفل بعيد ميلادها مع والديها في أسكتلندا، وإنها من مواليد 15 يونيو 1952 وإن والديها طبيبان وليس لها أشقاء أو شقيقات، وإنها تخرجت في كلية الحقوق بجامعة جلاسكو عام 73 بمرتبة الشرف، وتم تعيينها معيدة في الجامعة منذ عام 74 وحتى عام 79، وإنها تخصصت في القانون الأوروبي وتم ترقيتها إلى مساعد مدرس، ثم إلى مدرس بعد حصولها على درجة الماجستير، وفي ديسمبر 1978 تقدمت بطلب للالتحاق بالسلك الدبلوماسي وبعد أن اجتازت الاختبارات وحصلت على الموافقات المطلوبة تم تعيينها في سبتمبر 1979، وبدأت عملها في قسم «هونج كونج»، ثم في «الإدارة العامة»، ولاحت أمامها فرصة النقل إلى سفارتهم في تل أبيب، فتقدمت بطلب لنقلها، وفي مارس 1980 صدر قرار نقلها لتحل محل السكرتير الأول الدكتور هاريس، وفي أغسطس 1980 سافرت إلى تل أبيب ولم تلتحق بالسفارة مباشرة، بل بدأت دورة مكثفة لتعلّم اللغة العبرية في أحد «الكيبوتسات» - أي المستعمرات - القريب من تل أبيب، ثم انتقلت للحصول على دورة رفيعة المستوى في كلية اللغات بحيفا، ثم ذهبت في عطلة إلى أسكتلندا وعادت لتسلم عملها في السفارة منذ أسبوع.

وبعد انتهائها، بدأت في سرد قصة حياتي باختصار، وأخبرتها بأنني منفصل عن زوجتي، وأن لي طفلين منها، ثم سألتها إذا كانت مرتبطة أو متزوجة، فقالت إنها غير متزوجة، وغير مرتبطة بأحد منذ أكثر من عام.

سرنا بعد ذلك على الشاطئ الخاص بالفندق، ثم عدنا لتناول الغداء، وكان كلٌّ منا قد أيقن أن توافقًا بين شخصيتينا بدأ في التفاعل، وكانت تمتلك شخصية جذابة للغاية، وقد قررنا أن نستمر معًا لفترة أطول، فتوجهنا إلى فندق «هيلتون» وتناولنا عشاءً هادئًا على ضوء الشموع، ثم رقصنا سويًّا لكننا لم نستطع التمادي في إظهار عواطفنا في مكان عام حفاظًا على موقع ووظيفة كلينا، فنظرت إليَّ في نهاية الرقصة وقالت: «دعنا نتناول القهوة في منزلي أو في فندقك»، فقلت لها: «فندقي قريب»، وعادت معي إلى فندقي؛ لتقضي معي أول ليلة، وكانت هذه هي بداية علاقتي مع رونا، التي استمرت دون انقطاع حتى آخر يوم لها في تل أبيب - وتحديدًا يوم 13 مارس 1982 - وكنت أستمتع بلقاءاتي معها وبأحاديثنا حول المجتمع الإسرائيلي، وأوضاعه الداخلية، وأداء الأحزاب والقوى السياسية والشخصيات الفاعلة في كل المجالات السياسية والاقتصادية والدينية، والبحث العلمي وتطبيقاته، وكنت أستفيد بلا شك من أحاديثها خاصة أنها أمضت عامًا كاملًا في «الكيبوتسات»، وتعلمت وأتقنت اللغة العبرية، حتى إن كثيرين عندما كانت تتحدث بالعبرية لم يتخيلوا أنها غير إسرائيلية.

ومن الأحاديث المهمة، رصدها للصحف الإسرائيلية وتوجهاتها السياسية، مثل: صحيفة «علهمشمار» التي تعبر عن مواقف حزب

«المابام» اليساري وتعارض مواقف «الليكود»، وصحيفة «إيدعوت إحرنوت» ذات الاتجاهات اليمينية التي تتماشى مع «الليكود»، وهي أكثر الصحف توزيعًا، وصحيفة «دافار» التي تعبر عن توجهات «الهستدروت» - أي اتحاد عمال إسرائيل - وصحيفة «هآرتس» المستقلة، والتي يقرأها صفوة المجتمع الإسرائيلي، أما صحيفة «معاريف» فتتماشى مع مواقف حزب «العمل»، وصحيفة «هاتسوفيه» الناطقة بلسان «الحزب الديني الوطني»، وأخيرًا صحيفة «جيروسالم بوست» التي تصدر في القدس باللغة الإنجليزية، وهي صحيفة مستقلة لها مكانتها داخل إسرائيل.

واختتمت حديثها بقولها إن الصحافة الإسرائيلية تتمع بحرية لا تحدها إلا الخشية على أمن الدولة، وحذرتني قائلة إن الصحافة الإسرائيلية تهتم كثيرًا بالإثارة والعناوين الجدلية والملتهبة، واتخذنا قرارًا مشتركًا بعدم الظهور في الأماكن العامة بمفردنا، والحرص على أن يكون تواجدنا في إطار مجموعة من الأصدقاء أو الزملاء.

***

بعد يومين التقيت رونا في فندقي بعد العمل لتناول الغداء، ثم ذهبنا للسير على الشاطئ، وكان مزدحمًا للغاية، وفجأة نشبت مشادة كلامية بين مجموعتين من الشابات، سرعان ما تطورت إلى تشابك بالأيدي، وأبديت اندهاشي من هذا التصرف، فقالت رونا: «إنها مشاجرة بين مجموعتين إحداهما من الإشكناز، والأخرى من السفارد»، ثم أضافت:

- لا تنسَ أن الشعب الإسرائيلي يتكون من خمس وثمانين جنسية مختلفة في خلفيتها ونشأتها ولغتها وأسلوب حياتها وتفكيرها، وأن العامل المشترك الوحيد بينهم هو الديانة اليهودية، ولذلك فقد حرصت الحكومة الإسرائيلية على تعليم اللغة العبرية كلغة رسمية موحدة في أقرب وقت، وفور وصول المهاجرين، عن طريق معاهد خاصة بالمهاجرين الجدد تسمى «أولبان»، تقوم بتقديم دروس مكثفة تصل إلى ثماني ساعات يوميًا بحيث يستطيع المهاجر البدء في تحدث العبرية بعد عشرة أيام فقط من بدء الدراسة.

وواصلت رونا حديثها، قائلة إن الديانة اليهودية نفسها، والتي يعتبر الجميع أنها العنصر الرئيسي الذي يجمع عليه المجتمع الإسرائيلي، تضم في داخلها انقسامًا أيضًا؛ فهناك اليهود «الإشكناز»، نسبة إلى ألمانيا والدول الأوروبية الذين هاجروا منها إلى إسرائيل؛ واليهود «السفارد»، نسبة إلى اسم إسبانيا - باللغة العبرية ـ حيث يوجد اليهود الشرقيون القادمون من الدول العربية و إيران - وهم جزء من السفارد - وأن السلطة الدينية العليا في إسرائيل تتمثل في «المجلس الأعلى للحاخامية»، وعادة ما يرأسه حاخامان أحدهما أوروبي إشكنازي والآخر شرقي سفاردي، ويُشرف كلاهما على كل الشئون الدينية بما في ذلك «المحكمة الحاخامية العليا».

واستطردت رونا قائلة إنها لاحظت - في أثناء تواجدها في «الكيبوتس»، ومن خلال اختلاطها بطوائف المجتمع الإسرائيلي- نقاط خلاف رئيسية بين الطائفتين؛ فـ «السفارد» يتبعون «التلمود البابلي»، وقد لاحظت «اللحن» الشرقي في تلاوة السفارد للتوراة،

وهم يحتفظون بكتابهم المقدس في صندوق خشبي مطلي بالفضة، في حين أن «الإشكناز» يتبعون «التلمود الأورشليمي»، ويتلون توراتهم «بلحن» غربي، ويحفظون كتابهم المقدس في قماش عادي، وبالتالي لا تخضع الطائفتان لفرائض دينية موحدة.

وواصلت رونا شرح الفروق بين الطائفتين، قائلة إن هناك أعيادًا مشتركة بينهما مثل رأس السنة العبرية، وعيد الغفران، ويوم كيبور – أي اليوم الكبير – وعيد المظلة والأنوار، وعيد الفصح، وعيد الاستقلال، ولكن على الجانب الآخر هناك اختلافات في الأعياد.. ففي حين يحتفل «الإشكناز» برأس السنة الميلادية، يُحرِّم «السفارد» ذلك، لكنهم يحتفلون – خاصة فئة المغاربة – بأعياد خاصة بهم في آخر أيام عيد الفصح، ويحرم «الإشكناز» أكل الأرز في عيد الفصح، بينما يرى «السفارد» أنه حلال، ولا شك أن هناك فارقًا واضحًا في ملابس الفئتين، خاصة لدى كبار السن، ويمكن التمييز بينهما بسهولة، حيث ستجد لون البشرة الأبيض هو الغالب لدى «الإشكناز»، في حين أن لون «السفارد» هو الأسمر أو القمحي، وتنتشر اللغة اليهودية القديمة «اليديشية» بين «الإشكناز»، بينما يجهل قواعدها «السفارد» والشرقيون.

واختتمت رونا حديثها – الذي شعرت أنه يأخذ طابع المحاضرة – بأنه في عام 1972 كانت أعداد اليهود «السفارد» والشرقيين تمثل 46 % من إجمالي عدد سكان إسرائيل، ثم انخفضت هذه النسبة لتصبح 34 % في عام 1981، وذلك بسبب ارتفاع معدل هجرة اليهود «الإشكناز» من دول غرب وشرق أوروبا، وبصفة خاصة من الاتحاد السوفيتي.

4

توطيد علاقتي بالإسرائيليين

*ذعر بعد سرقة اللوحة المعدنية لسيارتي :

كنت مدعوًّا مع مجموعة من الزملاء في الثاني من أغسطس على العشاء بمنزل زميلي القنصل، ووفقًا للتقليد المصري اشتريت «تورتة» لتقديمها إلى قرينته، وتوجهت إلى سيارتي في الموقف المخصص لنزلاء الفندق، وقبل أن أفتح الحقيبة الخلفية للسيارة لوضع «التورتة» فيها، لفت نظري عدم وجود اللوحة المعدنية الخلفية، وكانت لوحات بغداد ما زالت عليها بشكلها الملفت للنظر، وقد اعتدت أن يستوقفني المارة أو السائقين في إشارات المرور ليسألوني بدهشة عن كيفية حصولي على مثل هذه اللوحات المعدنية، وعقب اكتشاف اختفاء اللوحة المعدنية، توجهت إلى استقبال الفندق لإبلاغهم بما حدث باعتبارها مسئوليتهم لأن السيارة موجودة في المكان المخصص للنزلاء فقط، وعندما أبلغت الموظف بالأمر لاحظت إصابته بقلقٍ شديدٍ، ثم قام باستدعاء أحد المسئولين عن أمن الفندق، الذي اصطحبني إلى موقع السيارة، وبدأ يفحصها - دون أن يلمسها - ثم طلب مني عدم لمس السيارة والعودة معه إلى الاستقبال، وفوجئت بمدير الاستقبال يتصل بإدارة مكافحة المفرقعات، وخلال دقائق معدودة وصلت سيارات الشرطة والإسعاف، كما وصلت سيارة ترجَّل منها ستة أشخاص بلباسٍ خاصٍّ - يشبه ملابس رجال الفضاء- ووجدت العديد من مسئولي الأمن يتوافدون على عجل، وزادت دهشتي بوصول سيارة خاصة بالبث المباشر للتلفزيون والإذاعة، ثم بدأ إخلاء نزلاء الفندق،

ووضع سواتر معدنية ذات شبابيك زجاجية سميكة، وإحاطة المكان المخصص لسيارات النزلاء، وقطع التلفزيون إرساله ليبدأ بثًّا مباشرًا لما يجري، وقال المذيع إن القناة التلفزيونية تنقل وقائع مثيرة قد تتضمن انفجارًا في سيارة أحد الدبلوماسيين المصريين المقيمين في فندق «ديبلومات» بعد أن تشكك موظفو الفندق في احتمال أن تكون السيارة مفخخة، ورأيت خبراء المفرقعات يقتربون بحذر من سيارتي، ثم شرعوا في توصيل أسلاك معدنية على مقابض الأبواب الأربعة، وغطاء المحرك، وغطاء الحقيبة الخلفية للسيارة، وحبس جمهور المشاهدين من النزلاء أنفاسهم، وتوقعوا انفجارًا مدويًا عندما قام خبراء المفرقعات بفتح الأبواب الأربعة وغطائي المحرك والحقيبة في لحظة واحدة بالتحكم الإلكتروني عن بعد وهم خلف السواتر المعدنية، ثم تقدم خبراء المفرقعات ببطء وحذر شديدين، وفتشوا السيارة بعناية، وكسروا تابلوه السيارة المغلق، ثم استخدموا آلات حادة لقطع الأغطية الداخلية للأبواب الأربعة، وشق جلد المقاعد الأمامية والخلفية وفحصها جيدًا تحسبًا لوجود قنبلة زمنية، وبعد أن قاموا بتأمين السيارة وتأكدوا من عدم وجود أي متفجرات بها، وبعد أن أصبحت السيارة حطامًا من الداخل، نظر رئيس فرقة مكافحة المفرقعات إليَّ وقال ضاحكًا: «سيارتك نظيفة ويمكن أن تأخذها وتذهب إلى عشائك!»، فابتسمت بسخرية وقلت له إن السيارة لا تصلح الآن للاستخدام الآدمي، فرد باقتضاب قائلًا إن إدارة الشرطة ستقوم بإصلاح السيارة على نفقتها في إطار التأمين الشامل على سياراتها والسيارات المتضررة من جراء أحداث مماثلة، فقدمت شكري له وتركت سيارتي في مكانها

وتوجهت إلى موعد العشاء، وعندما وصلت وجدت الجميع في حالة قلق حيث تصادف أن شاهدوا ما حدث في إرسال تلفزيوني مباشر، وقد أرسلوا بالفعل أحد الزملاء للاطمئنان عليَّ ولم يستطع الوصول إلى الفندق نظرًا لوجود الحواجز الحديدية ومنع الشرطة لدخول أو خروج أي سيارات من المنطقة.

وبدأت التعليقات الظريفة تتوالى من زملائي، ورغم تفاعلي مع تعليقاتهم إلا أنني كنت قلقًا مما حدث خشية أن يكون مجرد مقدمة لشيء سيئ، وقد حضر في اليوم التالي - إلى السفارة - نقيب من الشرطة الإسرائيلية، وذكر أن تقديرهم للموقف هو قيام أحد المواطنين بسرقة اللوحة المعدنية للاحتفاظ بها كتذكار، وأن هذا الشخص لا بد أن يكون من هواة جمع التحف والأشياء الغريبة، وأكد عدم وجود شبهة جنائية أو إرهابية في هذا التصرف، ولا أدري من أين تأكد من هذا التقدير وهذه المعلومات.

*توطيد علاقتي بنزلاء الفندق :

بدأت علاقتي تتوطد مع روبرت ياديد - نائب مدير الفندق - الذي قدمني إلى مجموعة من الأصدقاء المقربين له، فقدمني إلى رجل أعمال إسرائيلي يدعى ديفيد، وكان مقيمًا في جناح مخصص له في الفندق بصفة دائمة، وهو من أصل روسي، وكان له العديد من الصديقات من أصول روسية، وفي أول حفل أقامه ديفيد بجناحه الخاص دعاني، وذكر

أنه يعمل في مجال استيراد المواد الكيماوية، ولم يفصح عن ماهية هذه المواد، وكان كثير السفر والاختفاء أحيانًا، وبالنسبة لي كان ديفيد يمثل لغزًا، كما قدمني روبرت إلى صديق له من أصل بولندي اسمه آفي، وكانت زوجته التي تدعى دوريت يهودية من أصل يمني.

وعادة ما كنت ألتقي - ومعي رونا - روبرت وآفي وزوجتيهما في الفندق، وكانت علاقتي مع روبرت تزيد قوة كل يوم، حتى تركت الفندق فجأة، ولهذا قصة.. فقد كان الصيف حارًّا للغاية، وشكوت من تعطل جهاز التكييف أكثر من مرة، وكنت أتصبب عرقًا ولا أستطيع النوم ليلًا بسبب ارتفاع درجة الحرارة التي كانت تصل أحيانًا إلى 40 درجة مئوية، مع ارتفاع نسبة الرطوبة إلى ما يزيد على 90 % كون تل أبيب مدينة ساحلية مطلة على البحر المتوسط، وكان ضيق الغرفة يزيد من الوضع سوءًا، ولم يستجب أحد في الفندق لطلبي بإصلاح جهاز التكييف أو تغييره، وفي يوم من أيام أغسطس، كانت الحرارة شديدة لدرجة لا تحتمل، فطلبت روبرت ليضع حدًّا لمعاناتي لكنني لم أعثر عليه لا في الفندق ولا في منزله، وقررت ترك الفندق فورًا، وجمعت متعلقاتي كلها، وكانت رونا معي تحاول إثنائي عن هذا القرار طالبة مني الانتظار لليوم التالي، لكنني رفضت ذلك بإصرار، فعرضت عليَّ أن أذهب معها إلى منزلها لقضاء هذه الليلة حتى يتم حل المشكلة، فرفضت ذلك أيضًا وطلبت من الاستقبال إرسال شخص لحمل حقائبي، وكنت قد قررت الذهاب إلى فندق «دان هوتيل» الذي مكثت فيه أول يومين لي بعد وصولي، إلا أنني لم أخبر موظفي استقبال فندق

«ديبلومات» عن وجهتي، وحاول موظفو الاستقبال إقناعي بالعدول عن قراري لكنني رفضت، وتركت الفندق غاضبًا، وفي اليوم التالي توجهت إلى السفارة فوجدت روبرت في انتظاري، وفي مكتبي اعتذر كثيرًا، وأخبرته بأن ما حدث لا علاقة له بصداقتنا، فكرر اعتذاره نيابة عن إدارة الفندق، وأصر على إعادة حقائبي إلى الفندق ولكنني رفضت، وبعد ساعتين من ذهاب روبرت، عاد إلى السفارة مرة أخرى، وأخبرني بأن حقائبي نُقلت إلى فندق «ديبلومات» ، مؤكدًا أن لديه مفاجأة لي عند عودتي إلى الفندق، وبعد انتهاء يوم عمل مرهق، وجدت روبرت ينتظرني في بهو الفندق، حيث اصطحبني إلى الجناح الرئاسي - كما يطلقون عليه - وكان جناحًا فاخرًا، عبارة عن غرفة نوم كبيرة، وقاعة استقبال كبيرة أيضًا، ومطبخ مصغر، وحمَّامين فاخرين، وشكرته على هذه اللفتة مع تأكيد رفضي قبول الإقامة في هذا الجناح لعدم قدرتي على تحمل نفقاته، فقال إن تقديم الجناح لي بمثابة اعتذار عما ارتكبته إدارة الفندق من خطأ في حقي، مؤكدًا أنه بعد التشاور، قرر مالك الفندق أن أقيم في هذا الجناح بالسعر نفسه الذي كنت أدفعه مقابل الغرفة، وبالفعل أقمت في هذا الجناح حتى موعد انتقالي لشقتي.

*قصتي مع البارمان «دانيال» :

منذ وصولي إلى تل أبيب، كنت قد اعتدت على أن أغير ملابسي فور عودتي من السفارة، ثم أتوجه إلى النادي الرياضي لممارسة رياضة الركض وبعض التمرينات الرياضية، ثم أتوجه إلى حمام السباحة

لممارسة رياضة السباحة وتناول غدائي هناك، وكان يقوم على خدمتي بارمان يدعى دانيال، وهو شاب في الثلاثين من عمره، كانت شخصيته طريفة ومثيرة للاهتمام والجدل، وكان يأتي عادة إليّ ويحاول فتح أي موضوع للحديث، وكثيرًا ما أبدى انبهاره وإعجابه بشخصي وما أقوم به، ولا أدري لماذا! وذات مرة قال لي في أثناء تقديمه الغداء: «السيدة ذات المايوه الأخضر في الجانب الآخر المقابل لك هي نزيلة جديدة حضرت مساء أمس فقط، وعمرها حوالي 32 عامًا، وهي بريطانية الجنسية، ومطلقة، ولديها طفل في الثامنة من عمره، سبق وجاءت العام الماضي وتعرفت على شاب إسرائيلي، وانتهت علاقتهما قبل مغادرتها بيوم واحد، وأعتقد أنها جاءت هذا العام على أمل أن تتكرر القصة.. ومشروبها المفضل على العشاء هو النبيذ الأحمر!»، لم أُبدِ اهتمامًا في ذلك اليوم، ولكن في اليوم التالي كانت هذه السيدة متواجدة، وبالفعل شعرت أنها وحيدة وتبحث عن رفيق، فطلبت من دانيال أن يرسل لها مشروبها المفضل، فما كان منها إلا أن توجهت نحوي وقدمت لي شكرها واستأذنت في الجلوس معي، وانتهى حديث التعارف بيننا بدعوتها لي على العشاء، فقلت لها إنني أستطيع قراءة الكف، وبدأت أسرد عليها بعض المعلومات التي عرفتها من «البارمان»، فأبدت اندهاشها من دقة ما أسرده عنها، وبعد العشاء، وبمجرد دخولي إلى غرفتي اتصلت بي وطلبت مني الحضور لتناول القهوة، وغادرت صباح اليوم التالي مبكرًا.

وأدركت مدى مهارة دانيال في عمله كـ«قواد»، ولا أدري لماذا كان يخصني أنا تحديدًا بهذا المجهود، وقد علمت فيما بعد أنه تلقى العديد من الهدايا القيمة - حيث كان يرفض تقاضي أي مبالغ مالية - من نزيلات الفندق اللاتي اكتملت قصصهن معي.

وقد كان دانيال مفيدًا بالنسبة لي، وكان مصدرًا مباشرًا للمعلومات عن نزلاء الفندق، وحصلت من خلال خدماته على العديد من الصداقات التي أثمرت عن تعرفي على فتاة ألمانية من فرانكفورت رائعة الجمال اسمها سيجي، كانت مسيحية بروتستنتية المذهب، في الحادية والعشرين من عمرها، وقد تعرفت عليها بالطريقة المعتادة، في اليوم الثاني لوصولها إلى الفندق، وشعرت بانجذاب شديد تجاهها، واستمرت علاقتنا قرابة أسبوعين، وفاجأتني قبل سفرها بثلاثة أيام بالحديث عن مشاعرها وعواطفها تجاهي، وصرَّحت لي بأنها وقعت في غرامي، وأنها على استعداد للعودة مرة أخرى للإقامة والعمل في إسرائيل لو شجعتها على ذلك، وكنت حريصًا على عدم التمادي في مشاعري تجاه أي من صديقاتي الأجنبيات، وذلك نابع من حرفيتي وعدم رغبتي في الوقوع في شراك الحب مع أي فتاة، فأنا لا أريد أن أكون طرفًا في علاقة حب حتى لا أفقد السيطرة على العلاقة مع مَن أحب، ولأن انجذابي إلى سيجي كان قويًّا، استشعرت خطورة ذلك وفضلت إنهاء هذه العلاقة وتوقفها عند هذا الحد، وأبلغتها بذلك، وأمضينا الأيام الباقية معًا رغم ذلك، واعتقدت أنها تفهمت موقفي، وفي الليلة الأخيرة اتفقنا على اللقاء قبل مغادرتها إلى المطار، لكنها

فضلت عدم لقائي، وتركت لي رسالة لدى استقبال الفندق، بررت لي عدم حضورها بخوفها من أن تضعف، وشكرتني على اللحظات الجميلة التي قضتها معي، مؤكدة أنها لن تنساني أبدًا.

وقد تكرر مثل هذا الموقف مع عدد من السائحات نزيلات الفندق، وكانت كل هذه العلاقات خارج نطاق أي عمل بالنسبة لي.. فكل هؤلاء السيدات كن يتواجدن معي ويُسعدن مشاعري ويشغلن وقتي، أما رونا، فقد كان موقفي معها واضحًا، ولم أقطع على نفسي أي وعود.. وكنت قد عرضت عليها الاستمرار في علاقتنا، على أن يكون لي مطلق الحرية لإقامة أي علاقات أخرى - بشكل مستتر وبقدر المستطاع دون أن أجرح مشاعرها - لدواعي العمل، وبشرط ألا تقيم هي أي علاقات أخرى، ووافقت رونا على ذلك، وأبدت سعادتها باستمرار علاقتنا ولقاءاتنا كلما سنحت الفرصة، مع التعهد بعدم التدخل في شئوني الخاصة، ولكن هيهات أن تستطيع حواء الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها!

*تفاصيل تدمير المفاعل النووي العراقي :

كنت أذهب كل يوم جمعة إلى مقهى اسمه «إكسودس»، ومعناه بالعربية «الخروج»، أو «الرحيل»، وكان روبرت هو الذي يدعوني إلى هذا المقهى، وفي المرة الأولى التي لبيت فيها الدعوة وذهبت معه ومع زوجته، قدمني إلى نخبة كبيرة من الكتاب والسياسيين وأعضاء

الكنيست والشعراء والممثلين ورجال الأعمال والقادة العسكريين، وكانت دهشتي كبيرة بسبب تواجد كل هؤلاء في الفترة من الواحدة ظهرًا وحتى الرابعة بعد العصر، ولا أدري ما هو سبب تجمع هذه النخبة الكبيرة من صفوة المجتمع في هذا المقهى بوسط تل أبيب بالذات، والغريب أنهم ينصرفون جميعًا حتى يتناولوا غداءهم في أثناء مشاهدة أحد الأفلام المصرية التي تُبث في الخامسة مساء كل يوم جمعة، وقد لمست حرص الجميع على مشاهدة تلك الأفلام، خاصة القديم منها، والتي تكون مترجمة إلى العبرية والإنجليزية.

وقد سعدت بحضور هذه اللقاءات لأنها كانت بمثابة سبب لنفاذي إلى هذه الدوائر المتسعة وتعرفي على عدد من الشخصيات الإسرائيلية والحديث معهم في مختلف الموضوعات، وذات يوم قدمني روبرت إلى طيار برتبة رائد، علمت فيما بعد أنه كان ضمن الطيارين المشاركين في تدمير المفاعل النووي العراقي، وقد تم إرساله في أوائل عام 1984 للحصول على دبلوم في علوم الكمبيوتر بجامعة نيويورك، وكان بصحبته نقيب طيار في القوات الجوية الإسرائيلية، لاحظت أنه يتناول المشروبات الكحولية بشراهة منذ الصباح، وبحلول المساء يكون غير مسيطر على تصرفاته وأحاديثه، وذكر لي أحد المتواجدين أن الاثنين من الأبطال القوميين، وسألت النقيب عما إذا كان شارك في حرب أكتوبر 73، فرد بالإيجاب، وقال إنه كان قد تخرج حديثًا وقتها، وشارك على الجبهة السورية في طلعات الطيران والقصف المكثف والاشتباك مع عدد من الطائرات السورية، وتبادلنا أرقام الهواتف قبل أن نغادر

المقهى، وفي الأسبوع التالي فوجئت بأنه يتقدم نحوي مع صديقين قدمهما باعتبارهما زملائه في سلاح الطيران، ولاحظت أنه كان ثملًا من كثرة الشرب، وفي نهاية اللقاء ذهبت إلى سيارتي وأخذت زجاجتين من الويسكي الفاخر وقدمتهما له كهدية مؤكدًا أنني أقدر هذا النوع من الشراب وأستمتع باحتسائه أيضًا، وكان لهذه الخطوة مفعول السحر معه، وقد أكد على شكره وتقديره وسعادته لأن يجد رفيقًا يستمتع بمشروبه المفضل، وبعد ثلاثة أيام تلقيت اتصالًا منه في أثناء تواجدي بالفندق، واستشعرت ثقل لسانه حين سألني إن كان لدي أي زجاجات من الويسكي الفاخر الذي أهديته إياه، فدعوته للمرور بجناحي في الفندق، ولم تمر نصف ساعة حتى وجدته يطرق الباب، ولم أضيع الوقت، حيث قدمت له زجاجة ويسكي هدية وفتحت زجاجة أخرى، وبدأنا في الشراب معًا، وبدأ هو في حديث يتسم بالغضب والحزن والاكتئاب، قائلًا إنه كان واحدًا من أربعة عشر طيارًا قادوا طائرات من طراز «إف 15» التي شاركت في غارة تدمير المفاعل النووي العراقي!

أذهلتني المفاجأة ولكنني لم أظهر أي رد فعل، وقلت بهدوء إنني من أشد المعجبين بدقة تنفيذ هذه العملية، ثم سألته عن دوره البطولي فيها وكيفية تنفيذها، فقال إن بيجين لم يكن أمامه غير خيار العمل العسكري، وإن الجهات المعنية بحثت إمكانية قيام القوات البرية – وخاصة الصاعقة – بعملية عسكرية مباشرة لتدمير المفاعل، إلا أن قيادة القوات الجوية قامت ببناء نموذج – ماكيت – للمفاعل بالحجم

الطبيعي من خلال ما هو متاح من المعلومات، سواء من الأصدقاء أو العملاء الموجودين في العراق، وواصل شرحه من تلقاء نفسه دون أن أسأله: «بدأنا في التدريب بالطائرات المقاتلة على تدمير النموذج، وتم وضع الخطة بشكل محكم، والخطط البديلة في حالة الفشل أو ظهور عناصر لم تكن بالحسبان، وقمنا بالتنفيذ في التاسعة من صباح اليوم المحدد – يوم 7 يونيو 1981 – بخط سير منخفض فوق الأرض إلى الأردن، ومنه إلى العراق، وتم التنفيذ بدقة وسهولة، ولم نواجه مقاومة حقيقية من جانب المدفعية العراقية المضادة للطائرات، كما لم يطلق علينا صاروخ واحد، وفي أقل من خمس عشرة دقيقة كانت جميع الطائرات قد أفرغت حمولتها وتم تدمير الموقع بالكامل، وعدنا جميعًا سالمين».

أبديت له إعجابي بما يقول، وقلت لا بد أنك حصلت على أعلى وسام استحقاق؟ فرد قائلًا بأسى إنه فوجئ بعد تنفيذ العملية بالتحقيق معه بسبب ما يدعونه من أنه «مفرط» في شرب الكحول، مضيفًا بمرارة أنه حاليًا لا يُسمح له بالطيران خوفًا على الطائرة، ثم بدأ يسرد ما حدث من جديد قائلًا: «هل تعلم أن كل وزراء الليكود، وعلى رأسهم شارون، تحالفوا لدعم رئيس الأركان في استعداداته لتنفيذ العملية التي قام بتخطيطها والإشراف على تنفيذها العميد ساجوي، وكان يعمل بالمخابرات الحربية آمان؟ وهل تعلم أن شيمون بيريز – على الرغم من سرية العملية – علم بها من خلال اتصالاته السابقة بالأجهزة المعنية في وزارة الدفاع، وأنه طلب من بيجين عدم تنفيذ الهجوم على

العراق؟»، ثم قال منفعلًا إن هذا المطلب لم يكن خوفًا على العراق، أو خشية رد الفعل الدولي، بل كان تحسبًا – في حالة نجاح العملية – من حدوث دعاية انتخابية كبيرة لليكود، وهو على أبواب الانتخابات، وقد حدث بالفعل وفاز الليكود.

كان منفعلًا فحاولت تهدئته حتى انصرف من عندي، وفي اليوم التالي اتصل بي ليسألني عن موضوع حديثنا أمس، قائلًا إنه أفرط في الشراب ولا يذكر شيئًا مما دار بيننا، فأخبرته ضاحكًا بأننا كنا نتحدث عن النساء الساحرات، ومغامراتنا النسائية التي لا تنتهي، ويبدو أن ردي أشعره بالارتياح، وقد التقيته مرتين بعد ذلك في المقهى، وبدا حريصًا في تحيته لي، ولم أشأ إحراجه وراعيت عدم الحديث معه إلا بصحبة مجموعة من أصدقائه، وتعمدت أن يكون حديثنا عامًّا وعابرًا.

وقد تأكد لي بعد ذلك أن ما فعلته مع هذا النقيب كان صائبًا؛ إذ بعد عودتي إلى القاهرة في أكتوبر 1981 ولقائي بزملائي العاملين في إدارة الأمن بالخارجية، تحدث أحدهم عن برقية أرسلت من السفارة، بدأت بعبارة: «علمت السفارة من مصادرها الموثوق بها ما يلي بشأن عملية تدمير المفاعل النووي العراقي...»، وسألني زميلي: «هل كنت أنت مصدر هذه البرقية؟»، فرددت بالإيجاب، وسردت القصة، فنصحني بعدم الاقتراب من هذا الطيار مرة أخرى، وتحاشيه بقدر الإمكان حتى لو أراد هو الاقتراب مني، وتعليقًا على ما جاء في البرقية بشأن معارضة بيريز القيام بهذه العملية، أكد زملائي في إدارة الأمن أن المعلومات

الواردة إليهم تؤكد أيضًا معارضة إسحاق حوفي (رئيس الموساد من 74 - 81 قبل تنفيذ العملية)، وكذلك شلومو جازيت رئيس جهاز آمان (حتى فبراير 79)؛ لأنهما كانا على قناعة بأن الوقت المتاح ما زال طويلًا حتى يصل المفاعل النووي العراقي إلى مرحلة «الإنتاج»، وأنه يمكن استخدام أساليب وضغوط سياسية وأمنية، وذلك تخوفًا من أن يكون ضرب المفاعل العراقي سببًا في وقف الحرب ما بين العراق وإيران - والتي بدأت عام 80 - وكانت إسرائيل هي المستفيد الأكبر منها، وخوفًا من توحيد جهودهما معًا لضرب إسرائيل.

*الانتقال إلى شقتي الجديدة:

اتصلت بالسيدة شولا، التي سبق وحضرت إليَّ في السفارة باعتبارها سمسار عقارات، وقلت لها إن صبري قارب على النفاد انتظارًا للشقة التي وعدتني بها، وكنت أعرف أسلوب «الموساد» أو «الشين بيت» في العمل، حيث يبدأ من خلال وسيط عقارات أو أكثر، يقوم بعرض شقق رديئة ومرتفعة الإيجار على الهدف، حتى يقترب من فقدان الأمل في العثور على شقة مناسبة، وفجأة تظهر شقة مميزة بها كل المواصفات المطلوبة، وبإيجار معقول، وهذا ما تم معي بالضبط، حيث اتصلت بي شولا في اليوم التالي، وأخبرتني بوجود شقة ممتازة، وبالفعل ذهبت معها في اليوم نفسه، وكانت شقة متميزة في كل شيء؛ فهي في الطابق الثالث، على بعد 300 متر من السفارة، عبارة عن شقتين تم فتحهما

وضمهما إلى بعضهما، فأصبحت تضم غرفة استقبال كبيرة، وغرفتي نوم إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وحمامين فاخرين، و«تراس» كبيرًا، وقد أخبرتني شولا بأن التأثيث تم خلال الأسبوعين الماضيين، وأنها عثرت على مالكة العقار بالمصادفة، وتفاوضت معها على القيمة الإيجارية وأنا على يقين من أنني سأصل إلى اتفاق؛ فقد كانت هي الشقة المطلوب أن أقطن فيها، وكنت على يقين ـ ولم يساورني الشك للحظة ـ أن «الشين بيت» قام بإعداد الشقة إعدادًا جيدًا، وأن أعمال البناء والهدم تضمنت وضع الميكروفونات وأجهزة التنصت داخل الحوائط، وفي كل مكان، وأن الإعداد الأمني تم بطريقة متقنة بحيث لا أستطيع كشف هذه الأجهزة، وبالفعل دفعت مقدم الإيجار وشهرًا تأمينًا وحصلت على مفاتيح الشقة، وقد أبهرني أن الباب الرئيسي عندما يغلق بالمفتاح تخرج منه أربعة ألواح من الصلب في الاتجاهات الأربعة - أي داخل الحائطين والأرض والسقف - وقد أكدت المالكة أن الشقة مؤمنة تمامًا ضد السرقة أو الاختراق، موضحة أن القفل المستخدم في الباب له ثلاثة مفاتيح فقط، ولا يمكن استخراج نسخة إلا من الشركة الأم في ألمانيا الغربية.

كنت سعيدًا بحصولي أخيرًا على شقة خاصة بي، فعدت إلى الفندق وأبلغت روبرت بأنني سأنتقل إلى شقتي الجديدة في اليوم التالي، وقد ساعدني بالفعل في نقل أمتعتي ومتعلقاتي، وألقى نظرة مبديًا إعجابه واندهاشه من عثوري على مثل هذه الشقة بهذا الإيجار الزهيد، فقلت ساخرًا: «لقد استغرق الأمر كل هذا الوقت ليقوم الشين بيت بالإعداد

الجيد لها»، ضحك روبرت وقال: «أنت دائمًا تشك، حتى وأنت في الفندق كنت تشك في ذلك، وأقسم إنني لا أعلم ما إذا كان هناك أجهزة تنصت في غرف الفندق أم لا.. ولكن ما أعلمه جيدًا أن كل فندق تحت الإنشاء يتم توقف العمل فيه لمدة تصل إلى ثلاثة أو أربعة أسابيع؛ ليتم التفتيش عليه من ناحية السلامة الهندسية».

*تسجيل حديثي مع رونا على الشاطئ:

كنت أتعامل باستهانة مع أجهزة التنصت التي أشك في وجودها داخل غرف وأجنحة فندق «ديبلومات» عندما كنت أقيم فيه، فأحيانًا كنت أتحدث مع روبرت، ثم فجأة ألتفت إلى الأماكن التي أشك في وجود أجهزة فيها، وأبدأ في محادثتها قائلًا: «أنتم تسمعونني وربما تشاهدونني، وأنا أقول لكم كذا، وكذا.. وأنا أفعل كذا، وكذا..»، وكان هذا التصرف تعبيرًا عن شعوري بأنني مراقب طوال الوقت بالصوت والصورة، وكنت أرى أن ذلك ممكنًا في غرف الفندق، وقابلًا للتصديق، ولكن شعوري بأنني مراقب في منزلي كان مبعث ضيق لي، كان إحساسًا يبعث على الاختناق أحيانًا، وعندما كانت تحضر رونا، أو غيرها من الصديقات؛ لقضاء الليلة أو عطلة نهاية الأسبوع، كنت أحرص على عدم إجراء أي أحاديث عن أي موضوعات تخص العمل، وأنا بشكل عام لا أتحدث في أي شيء يخص عملي في منزلي أو سيارتي أو عبر أي هاتف، بما في ذلك هواتف السفارة؛ لأنني على يقين من أنها جميعًا مليئة بأجهزة تنصت، وكانت معظم أحاديثي عن

العمل تتم خارج مكتبي، بل وخارج مبنى السفارة كله، حيث كان يحدث هذا في الأماكن العامة، وفي أثناء سيري على الكورنيش، أو الشاطئ، أو بهو أحد الفنادق، بشرط وجود ازدحام من البشر وكثير من الضجيج.

ولكن يبدو أن كل هذه الاحتياطات لم تكن كافية، ففي أحد أيام شهر أغسطس كنت أتحدث مع رونا عن بعض الموضوعات الإسرائيلية، حيث أمضت معي اليوم في الفندق، تناولنا الغداء وقمنا بالسباحة في مسبح الفندق، ثم توجهنا إلى الشاطئ الخاص بالفندق، وكان يومًا طويلًا ومليئًا بالأحداث والأحاديث، وكانت رونا قد بدأته بقولها إنها لاحظت وجود علاقة جيدة بين السفير المصري سعد مرتضى ووزير الدفاع الإسرائيلي إرييل شارون، وأخذت تحدثني عن شارون، قائلة إن اسمه الحقيقي هو (Ariel Scheinerman)، وهو من «الصابرا» - أي الذين ولدوا في إسرائيل - وتدرج في جيش الدفاع الإسرائيلي حتى وصل إلى قائد سلاح المظلات، وكان يأمل أن يكون رئيسًا للأركان ولم يحصل على المنصب بسبب عدائه لكثير من القادة، الأمر الذي أسفر عن تقديم شارون استقالته في يوليو 73، وإن كان قد تم استدعاؤه في بداية حرب أكتوبر، وكان قائدًا للقوات التي أحدثت الثغرة، وبعدها اتجه للسياسة ونجح مع بيجين في ضم عدد من الأحزاب اليمينية لتكوين الليكود.

وأضافت رونا أن تقييمهم لشارون أنه ذو شخصية قوية، عدوانية وإن طموحه يجعله لا يتردد عن المواجهة، وذكرت أن بيجين كان

يطلق عليه لقب «البلدوزر» لتمتعه بنشاط ديناميكي، وهو يسلك أي طريق حتى لو كان دمويًا من أجل الحصول على ما يريده، ولا يتردد في اكتساح وسحق أي عقبات قد تقف في طريقه، واسترسلت رونا بأنه لا يلتزم بالطرق التقليدية، بل يتبع وسائل الحيلة والدهاء والعنف ولا يحفل بآراء الآخرين، وله تأثير كبير على بيجين، وهو محل ثقته لكفاءته العسكرية، الأمر الذي يثير ضيق وغيرة العديد من الوزراء، خاصة وأن شارون كثيرًا ما يقوم بأعمال تدخل في اختصاص وزراء آخرين وعلى رأسهم شامير وزير الخارجية.

وانتقلت رونا إلى الحديث عن شامير، قائلة إن الاسم الحقيقي لإسحاق شامير هو إسحاق يزرنيتسكي (Yitzhak Yezernitzki)، وقد بدأ حياته في الأعمال الإرهابية الخفية لعصابة شتيرن (Stern Gang)، ثم انضم للموساد إلى أن وصل إلى مسئول الموساد عن غرب أوروبا، وفي أثناء ذلك علم نفسه اللغة الفرنسية بدون معلم، وهو رجل عائلة، ويقدس زوجته شولاميت (Shulamit)، وله ولد وبنت، وابنه يعمل طيارًا في القوات الجوية، واستطردت قائلة إن شامير قدم استقالته من الموساد لأسباب لا أعلمها (وقد علمت فيما بعد أنه استقال احتجاجًا على تعيين مائير آميت رئيسًا للموساد)، واختتمت رونا كلامها عن شامير قائلة إنه حاول العمل في مجال القطاع الخاص لكنه فشل، ودخل عالم السياسة عام 72، واختاره بيجين لتولي حقيبة الخارجية، إلا أنه دائمًا ما كان يشير - في أثناء حديثه مع السفير البريطاني - إلى أن عمله في الموساد كان أسعد أيام حياته.

وحدثتني بعد ذلك عن ديفيد كيمخي، الرجل الثاني في وزارة الخارجية، قائلة إنه من أسرة من شرق أوروبا عاشت في سويسرا، ثم انتقلت للإقامة في المملكة المتحدة، حيث تلقى تعليمه هناك، ومن ثم احتفظ بشكله ومظهره وطريقة ملبسه ولغته الإنجليزية المتقنة وعاداته البريطانية أيضًا، وبعد لحظة صمت بدت خلالها كما لو كانت ترتب أفكارها، قالت: «لعلمك، هو من معتنقي الصهيونية؛ لذا ترك أسرته وهاجر إلى فلسطين عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة، والتحق بالموساد منذ عام 1953، وعرفت عنه قدراته العالية في تحليل المعلومات، واشتهر بأن تعابير وجهه تماثل وجه لاعب البوكر المحترف، الذي لا تظهر عليه أي ملامح توحي سواء بالفرح أو الغضب أو الخوف»، وأضافت وعلى شفتيها بوادر ابتسامة: «إن مظهره وشخصيته يتطابقان مع مظهر وشخصية الجاسوس البريطاني في الأفلام السينمائية».

كانت رونا تتحدث بوعي، فذكرت لي - باعتباري مسلمًا - أنه تخصص في إقامة علاقات مع الأقليات غير المسلمة أيًا كانت، كما تخصص في شئون القارة الأفريقية، وكان يعمل عادة تحت غطاء «دبلوماسي»، وبأسماء عدة مشتقة من اسمه الحقيقي، فقد عرفه أحد زملاء رونا - الذين عملوا في أفريقيا - باسم ديفيد شارون، وعرفه آخر باسم كيمخي شارون، كما عُرف باسم ديف، وعمل في عدة عواصم أفريقية، منها «أديس أبابا»، و«نيروبي»، و«كمبالا»، وكلها دول بها محطات نشطة للموساد، مضيفة أنه نظرًا لعلاقاته الوطيدة في أوغندا،

استعانوا به للحصول على مساعدة بعض المسئولين الأوغنديين في أثناء التفاوض في عملية عنتيبي عام 1976.

وقالت إنه تدرج في المناصب إلى أن تولى منصب نائب رئيس الموساد، وشارك في لقاءات بالمغرب بصحبة موشي دايان، مع السيد حسن التهامي، والسيد كمال حسن، رئيس المخابرات المصرية - آنذاك - وكان حلمه أن يصبح رئيسًا للموساد، إلا أن خلافاته مع رئيس الموساد ازدادت، وأدرك كيمخي أن فرصه ضئيلة في الاستمرار وصولًا للمنصب، فقدم استقالته في نهاية عام 1979، وفي بداية عام 1980 عرض إسحاق شامير عليه منصب سكرتير عام وزارة الخارجية، وهو المسئول التالي لوزير الخارجية، وقبله كيمخي على الفور، وإن كان يتردد أنه يحتفظ بكل اتصالاته وعلاقاته مع زملائه في الموساد، الذين يطلعونه بشكل دوري على ما يحدث داخل الموساد من أخبار ومعلومات ومهام.

وأخيرًا تحدثت رونا عن شخص آخر ذي ملامح بريطانية، هو المستشار عوديت إيران رئيس قسم مصر بالخارجية الإسرائيلية، وقالت إن له قصة غريبة، حيث بدأ كدبلوماسي بريطاني يهودي الديانة، عمل في عدة سفارات بريطانية، حتى عمل كسكرتير أول في السفارة البريطانية في تل أبيب في نهاية الستينيات، وقد عمل بنشاط في السفارة لمدة أربع سنوات، وكان مسموحًا له بالاطلاع على أكثر الملفات السرية حساسية، بل وحتى على شفرة الإرسال الرمزي، وفي نهاية مدة خدمته عاد إلى لندن وقدم استقالته إلى الخارجية البريطانية بحجة

أنه ينوي التوجه إلى العمل في قطاع الأعمال الخاصة، ثم عاد إلى تل أبيب، وخلال أسبوع واحد حصل على الجنسية الإسرائيلية، وتم تعيينه بدرجة سكرتير أول بالخارجية الإسرائيلية، وأُسقط في يد الحكومة البريطانية؛ لأنه بلا شك كان عين وأذن الموساد والخارجية الإسرائيلية داخل السفارة البريطانية، واستطردت بأنها علمت بتكوين لجنة لتقييم الضرر الذي حدث من جراء هذا الدبلوماسي كما لم تستطع الحكومة البريطانية الاحتجاج أو إظهار أي نوع من أنواع المعارضة لما حدث؛ لأن ذلك من حقه كمواطن بريطاني، وباعتباره يهودي الديانة.

وأضافت رونا بصوتٍ خافتٍ، وكأنها تهمس في أذني: «لهذا السبب أصبح هناك مبدأ غير مكتوب، هو عدم إرسال دبلوماسيين بريطانيين يهود للعمل في سفارتنا في تل أبيب».

كنت مستمتعًا بالحديث مع رونا التي ملأت الكثير من الفراغات في معلوماتي عن المجتمع الإسرائيلي، وقد سهرنا في الملهى الليلي الخاص بالفندق، ولحق بنا روبرت وآفي وزوجتاهما، وديفيد وصديقته، واستمتعنا بالموسيقى والرقص، ثم انسحبت أنا ورونا بهدوء إلى الجناح الخاص بي حيث أمضت الليلة معي، وفي الصباح توجهت مباشرة إلى عملها.

*ليلـة هادئــة مع رونــا :

دعاني السفير سعد مرتضى للذهاب معه إلى نادي الجولف لنلعب سويًا، وعندما أخبرته بأنني لا ألعب الجولف، أصر على دعوتي لمشاهدته وهو يلعب، وقال إنه سيحضر في التاسعة والنصف صباحًا لاصطحابي.

كنا في عطلة نهاية الأسبوع الثاني من شهر أغسطس، وكان النادي يقع في بلدة «القيصرية» التي تقع في منتصف الطريق بين تل أبيب وحيفا، وكالعادة رحب الجميع في النادي بالسفير، وكانت قنصل عام كوستاريكا تنتظره هناك، وهي سيدة في بداية الخمسين من عمرها، قدمها لي السفير باعتبارها لاعبة جولف ماهرة، ثم بدأ كلاهما اللعب، وكنت أشاهدهما حتى بدأت أشعر بلهيب حرارة الشمس، فاستأذنتهما في الذهاب إلى مبنى النادي لاحتساء مشروب بارد، وفوجئت باتصال في النادي من رونا، وكنت قد أبلغتها من قبل بموعدي مع السفير فما كان منها إلا أن حصلت على رقم هاتف النادي من دليل التليفون، واتصلت بي لتدعوني على الغداء، واعتذرت لأنني مدعو مع السفير، واتفقنا على اللقاء في العشاء.

انتهى السفير من مباراته وكان سعيدًا لفوزه على منافسته التي كانت مفعمة بالحيوية واللياقة البدنية، وانتقلنا بعد ذلك إلى مطعم «هيرود» بالمدينة القديمة لتناول الغداء، وكان يملك المطعم شاب مغربي، يهودي، اسمه رافي، وبعد تناول طعام الغداء أصر - كعادته مع السفير - على دعوتنا إلى منزله للجلوس مع أسرته وتناول الشاي والحلوى المغربية.

وبعد عودتي، اتفقت مع رونا على اللقاء في شارع «ديزنجوف»، وهو شارع يضم العديد من المحال التجارية، وفي مقدمتها محل «ماركس آند سبنسر»، وهي سلسلة محال بريطانية شهيرة يمتلكها يهودي بريطاني، وعند دخولنا المحل قالت لي رونا: «هل تعلم أن إدارة المحل تقدم خصمًا قدره 10% لجميع الدبلوماسيين الأجانب عند تقديمهم لبطاقات تحقيق الشخصية، ما عدا الدبلوماسيين المصريين، الذين تختصهم إدارة المحل بخصم قدره 25%؟ لذلك فإن لقاءنا الليلة كان لمصلحتي!»، وقامت بشراء الكثير من المحل، وعندما ذهبت إلى مكان الدفع وقدمت بطاقة تحقيق شخصيتي، استقبلتني البائعة بحفاوة، ورحبت بوجودي في المحل باعتبارها المرة الأولى لي في المكان، ودعتني للعودة مرة أخرى، وكان هذا الثناء مصدرًا لغيرة رونا، لكنها لم تنطق بحرف حتى تتمكن من الشراء والاستمتاع بالخصم الأكبر على بطاقتي الشخصية.

بعد ذلك انطلقنا إلى شارع «الهايركون» بوسط المدينة، وتناولنا العشاء مع مجموعة روبرت وزوجته في أحد المطاعم اللبنانية، ثم حضرت رونا لأول مرة إلى شقتي، وأمضينا ليلة هادئة بعد يوم حافل.

*الصحفية الحسناء ذات الشعر المستعار:

وصل إلى السفارة خطاب موجه للسفير سعد مرتضى لترشيح أحد أعضاء البعثة المصرية لتمثيلها في مسابقة ملكة جمال إسرائيل، التي

أطلق عليها الكاتب المصري أنيس منصور مسمى «أميرة السلام»، وذلك من خلال مجلة «أكتوبر» - المصرية - التي كان يرأس تحريرها وقتها، والتي كانت تقدم تذاكر سفر إلى مصر للفائزة باللقب ووالديها؛ لقضاء أسبوع في مصر يمتلئ ببرنامج سياحي متميز، وتلتقي في نهايته مع الرئيس المصري أنور السادات.

وكنت مدعوًّا إلى حفل العيد القومي لإحدى السفارات، فعرضت الأمر على السفير في أثناء حفل الاستقبال، والذي كان يحضره الوزير المفوض محمد بسيوني، واقترح السفير إرسال برقية إلى الخارجية بالقاهرة للحصول على التعليمات في هذا الشأن، وقال بسيوني إن الرد سيكون بحضور أصغر الأعضاء الدبلوماسيين درجة، وصدق توقع الوزير المفوض، حيث جاء الرد من القاهرة بتكليف أصغر دبلوماسي «درجة» لتمثيل السفارة في هذا الحدث الذي كان سيتم في مدينة حيفا بتاريخ 15 أغسطس 1981، وفي أثناء الحفل تقدمت نحوي سيدة في نهاية الخمسين من عمرها، اسمها إنجه دويتشكرون نقيبة الصحفيين في إسرائيل، وأخبرتني بأن لديها عددًا من الصحفيات اللائي يرغبن في لقائي وعمل مقابلات صحفية معي، واعتذرت لها بلباقة مؤكدًا وجود رئيس البعثة السفير، ومستشار إعلامي يتحدث العبرية بطلاقة، وكلاهما مؤهل أكثر مني في إجراء اللقاءات الصحفية.

وفي صباح اليوم التالي، تلقيت اتصالًا أخبرتني المتحدثة خلاله بأنها طالبة دراسات عليا تسعى للحصول على درجة الماجستير في موضوع العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية، وطلبت لقائي لأخذ

النصيحة والمشورة الأكاديمية في ضوء معرفتها - من نقيبة الصحفيين - بمشاركتي في جلسات لجان الحكم الذاتي، مضيفة أن عدم رغبتي في الإدلاء بأحاديث صحفية هو ما شجعها على الاتصال بي، وقالت إنها تقيم في القدس وعلى استعداد للحضور إلى تل أبيب من أجل ذلك، مشيرة إلى أن لديها قائمة بالأسئلة التي تود طرحها ويمكن أن ترسلها بالفاكس على السفارة حتى أتمكن من إعداد الرد المطلوب، ومنذ البداية أدركت أنها مدفوعة سواء من جهه أمنية أو إعلامية، ورغبت في مناورة الجهة التي أرسلتها، ولذلك وافقت من ناحية المبدأ مشترطًا ألا يتضمن اللقاء أي أحاديث صحفية، واتفقنا على اللقاء في السابعة من مساء اليوم نفسه في فندق «ديبلومات» - حيث كان ذلك قبل انتقالي إلى شقتي الخاصة - وعندما تأخرت عن موعدها، قررت أن أترك الفندق، وفي أثناء خروجي رأيت شابة صغيرة شقراء تسرع باتجاه الفندق، فواصلت طريقي وتوجهت إلى فندق «رمادا» الملاصق لفندق «ديبلومات»، وسألت عن أي رحلة سياحية ليلية تتضمن زيارة إلى معالم تل أبيب، ووجدت رحلة على وشك القيام استغرقت ساعتين، وعند عودتي، توجست خيفة من أن تكون الضيفة ما زالت في انتظاري، فتوجهت إلى الملهى الليلي في فندق «رمادا»، وجلست على بار الملهى وطلبت مشروبًا.

بعد ذلك ألحت طالبة الدراسات العليا في الاتصال بي، وترك رسائل لي، وحين أجبتها أخبرتها بأنني غادرت الفندق لأنها تأخرت عن موعدها لأكثر من عشر دقائق، وهذا أمر غير مقبول بالنسبة لي، فاعتذرت بشدة

وطلبت موعدًا آخر، وماطلتها لمدة أسبوعين - لانشغالي - حتى اتفقنا على موعد آخر في فندق «ديبلومات» أيضًا، وقد حضرت هذه المرة قبل الموعد بنصف ساعة، وكنت أظن أن لقائي معها سيكون عابرًا، لكنها خيبت ظني؛ إذ بادرت بدعوتي على العشاء فقبلت ذلك، وذهبنا إلى أحد المطاعم، وفي أثناء العشاء أخبرتني بأنها طالبة دراسات عليا في كلية العلوم السياسية بجامعة القدس، مشيرة إلى أنها تعمل بشكل غير مستديم في إحدى الصحف، وأنها تحاول الحصول على الدراسة وعلى خبرة العمل معًا، ودار حوار بيننا عن مبادئ وضوابط الحكم الذاتي كما يراه الفلسطينيون المعتدلون، وتتبناه مصر، والفارق الكبير بينه وبين مفهوم الحكومة الإسرائيلية، وأكدت لها أن الدولة الفلسطينية سيتم إنشاؤها، حتى لو استغرق الأمر عدة سنوات، وفي أثناء حديثي لفت نظري أنها ترتدي شعرًا مستعارًا أشقر اللون، فسألتها إن كان لون شعرها الأصلي مطابقًا للون الشعر المستعار، فضحكت وقالت إنها يهودية أرثوذكسية، وإن عائلتها من اليهود المتحفظين، وأضافت أنه من المفترض ألا تكشف السيدة عن شعرها طبقًا لشعائرهم، وكما أن الحجاب في الإسلام يقوم بهذه الوظيفة، فإن الشعر المستعار في المبدأ الأرثوذكسي من الديانة اليهودية يقوم أيضًا بالوظيفة نفسها، وشرحت بعض عاداتهم - التي لم أكن على دراية بجزء منها - فذكرت أن يوم السبت مقدس لديهم ولا يعملون خلاله أي عمل، فمثلًا الضغط على مفتاح المصعد يعتبر عملًا، ولذلك فإن المصاعد في إسرائيل - خاصة في المباني والفنادق الخاصة بالطائفة الأرثوذكسية - مبرمجة كل يوم سبت بحيث يتوقف المصعد في جميع الأدوار أوتوماتيكيًا

حتى لا يضطر المواطن إلى الضغط على مفتاح الطابق المطلوب، أو يضطر المتدينون منهم إلى الصعود على الدرج، كما يوجد في منازلهم ما يسمى بالإشعال والإطفاء الذاتي لمفاتيح الكهرباء درءًا لإشعالها يدويًّا، حيث يُعتبر ذلك عملًا أيضًا.

ثم انتقلت إلى الحديث عن جزء غريب في المذهب الأرثوذكسي، مؤكدة أنها لا تحبه ولا تقتنع به ولكنها مضطرة لمسايرة عائلتها بشأنه، ألا وهو وضع المرأة؛ فالمرأة تعتبر جُنُبًا بصفة عامة، وأكثر نجاسة في أثناء فترة حيضها الشهري، وبصفة عامة لا يجب أن يلامس الرجل أي امرأة - ولو حتى بالمصافحة - إلا لو كانت زوجته، بل وحتى مع الزوجة، فمن غير المسموح لجسدها ملامسة جسد زوجها، وهنا لم أستطع التحكم في نفسي، فضحكت وسألتها: «وكيف ينجبون الأطفال؟»، فقالت إن الأصل هو خلق المرأة للإنجاب، ولا يجب على زوجها أن يراها بدون ملابس؛ لذا تستعد الزوجة، ويدخل الزوج غرفة النوم بعدها بدون أي إضاءة، وتوجد أغطية خاصة للأسرَّة توضع على جسد الزوجة حتى لا يلامس جسد زوجها، وبهذه الأغطية فتحة صغيرة تكفي لممارسة العلاقة الزوجية!

وأضافت قائلة بحسرة إنه من المفترض - حسب مذهبهم - ألا تستمتع المرأة لأن وظيفتها هي الإنجاب فقط، وبمجرد ظهور بوادر الحمل يمتنع على الزوج معاشرة زوجته حتى بعد الوضع بثلاثة أشهر!

بدت عليَّ علامات الاندهاش وربما عدم التصديق لما تقول، فإذا بها تؤكد لي أن كل ما تقوله صحيح ولا مبالغة فيه، ورغم أنها تمقته،

إلا أنها على يقين من أنها حين تتزوج ستطبق عليها هذه الطقوس، وبالتالي لن تستطيع الاستمتاع مع أيٍّ من اليهود الأرثوذكس المتاحين في الطائفة معها، حتى وإن أراد كلاهما ذلك.

استشعرت أن هذا هو مدخلها معي، وكنت مصيبًا؛ إذ بادرتني قائلة إنها ترغب في قضاء أوقات خاصة - بقدر إمكانها - قبل أن تستجيب لضغوط عائلتها للزواج، خاصة أنها في الثالثة والعشرين من عمرها، وتتوقع أن تتزوج خلال عام أو اثنين على الأكثر، وبوضوح أكثر قالت: «سأتحدث معك بصراحة.. لقد وصفتك لي نقيبة الصحفيين، وقد حضرت بالأساس وفي نيتي قضاء وقت خاص معك، وباعتبارك مصريًّا ومسلمًا فإن ذلك سيكون بمثابة تجربة فريدة بالنسبة لي سأعيش على ذكراها».

وبالرغم من كل هذه الأحداث، كانت علاقتي مع رونا تزداد قوة بمرور الوقت، وكنا نلتقي مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًّا، وكثيرًا ما حرصنا على أن يكون من بينها عطلة نهاية الأسبوع، وكنا نقضي وقتًا ممتعًا معًا؛ لأن علاقتي بها تضمنت المشاعر، والعقل، والأحاديث الأكاديمية، والقانونية، إضافة إلى تبادل المعلومات عن المجتمع الإسرائيلي الذي كانت تتحدث عنه من واقع خبرة إقامتها في المستوطنات، ومعايشتها للطلبة في جامعة حيفا، فضلًا عن إتقانها للغة العبرية، لقد أصبحت رونا جزءًا من روتين حياتي اليومي في تل أبيب.

*اختيــار ملكـــة جمــال إسرائيــل :

أخبرت رونا ساخرًا بأن القاهرة كلفتني بحضور حفل ملكة جمال إسرائيل في مدينة حيفا يوم 15 أغسطس، فضحكت وقالت لي إنني خير مَن يقوم بهذه المهمة، مؤكدة أنها لن تشعر بالغيرة؛ لأن المتسابقات صغيرات السن، لا تتجاوز أيهن عشرين عامًا، وكانت الهيئة الإسرائيلية المنظمة لمسابقة ملكة جمال إسرائيل قد اختارتني رئيسًا للجنة التحكيم، فعلقت رونا على ذلك قائلة إن العامل السياسي سيتدخل في الاختيار، ولم أكن أتفق معها في هذا الرأي، ومن جانبه، شجعني السفير سعد مرتضى على خوض التجربة، وأبديت له تخوفي من عدم علمي بحيثيات هذه المهمة، فنصحني بإعداد كلمة بالإنجليزية لإلقائها في أثناء الحفل، وعدم نسيان تذاكر السفر لتقديمها إلى الفائزة أمام وسائل الإعلام، وجلست مع رونا - بحضور روبرت - لصياغة كلمة قصيرة باللغة الإنجليزية، واقترح روبرت أن ألقي الكلمة باللغة العبرية بعد كتابتها بحروف لاتينية، وأعجبتني الفكرة، فقام كلاهما بترجمة النص إلى العبرية، وكتابته بحروف لاتينية حتى أستطيع إلقاءه، وحذرتني رونا من احتمال نصب فخ لي بهدف التقاط صور خارجة عن اللياقة مع بعض المتسابقات، ووعدتها بأن أكون حذرًا، وفي اليوم المحدد، اقترح روبرت مصاحبتي ليقوم بالترجمة، خاصة بالنسبة للمواطنين الذين لا يتحدثون إلا العبرية، ورحبت بوجوده معي ليقود سيارتي؛ لتلافي إيقافي خلال الطريق إلى حيفا، بسبب وجود لوحة معدنية واحدة غريبة الشكل على السيارة، وقبل مغادرتي اتصلت رونا

بي لتخبرني أنها ستظل مستيقظة حتى أعود؛ لتطمئن عليَّ، وقلت لها ساخرًا إنها تريد أن تطمئن على عودتي بمفردي!

وصلنا إلى حيفا، وكان الجميع بانتظاري واصطحبوني إلى الغرفة المخصصة للجنة التحكيم، كانوا سبعة محكمين، وأنا الثامن، وأخبروني بأنه في حالة تعادل التصويت على أي مرشحة ترجح الكفة التي بها رئيس لجنة التحكيم، مؤكدين اختياري كرئيس للجنة تقديرًا لمكانة مصر، وسفارتها، وفي ضوء الجائزة المقدمة من مجلة «أكتوبر» وشرف لقاء الفائزة مع الرئيس المصري.

بعد ذلك، بدأت مع طاقم الحكام في عمل لقاءات مع المتسابقات، وكانت الأسئلة بصفة عامة تتضمن اختبار المعلومات العامة، والثقافية، ومقياس الذكاء، وسرعة البديهة، وكان كل من الحكام يسأل سؤالًا أو اثنين على الأكثر، ويتم رصد درجات كل محكم وأخذ متوسط خلال اليوم بأكمله، وفي المساء بدأت التصفيات في «ستاد حيفا»، وفوجئت بحضور أكثر من عشرة آلاف متفرج، وبدأت تصفيات المتسابقات بعد أن تم تقديمهن للعروض بالملابس المختلفة، وظهر الجمال الفائق لإحدى المتسابقات، وكان عمرها سبعة عشر عامًا فقط، وبعد انتهاء كل العروض، وصلت إلى التصفيات النهائية خمس متسابقات، فاجتمعت لجنة التحكيم في غرفة مغلقة، واتفقنا جميعًا على حصول المتسابقة فائقة الجمال والذكاء واللباقة على اللقب، وكانت من تل أبيب، وعند الحديث عن الوصيفة الأولى التي ستحصل على المركز الثاني، أعلن أربعة حكام عن اختيارهم لمتسابقة يهودية من القدس، في

حين رأى ثلاثة محكمين أن تكون الوصيفة من عرب إسرائيل، سواء كانت مسيحية أو مسلمة، خاصة في ضوء إقامة المهرجان في حيفا، وانضممت إلى هذه المجموعة لأرجح كفتهم، وتم اختيار الوصيفة الأولى من عرب إسرائيل، وكانت مسيحية الديانة، وهنا تذكرت أن عنصر السياسة قام بلعب دوره في الاختيار كما توقعت رونا، ولم تكن هناك مشكلة في ترتيب بقية المراكز.

وفي مشهد مفعم بالترقب من المتسابقات وجمهور الحاضرين، عادت لجنة التحكيم إلى مقاعدها، وقام منظم المهرجان بتقديمي لإلقاء كلمة قصيرة، وكانت مفاجأة للجميع أنني ألقيت كلمة باللغة العبرية، وبنطق كلاسيكي، ودون النظر إلى الورقة – حيث حفظتها عن ظهر قلب – الأمر الذي لاقى استحسانًا لدى الجمهور الإسرائيلي، وفوجئت بتصفيقٍ شديدٍ من جمهور الحاضرين، وبعد إعلان اسم ملكة جمال إسرائيل «أميرة السلام»، ووصيفاتها الأربع، توجهت إلى المنصة لأهنئها وأسلمها تاج المسابقة ومظروفًا به تذاكر الطيران وخطاب الدعوة، ففاجأتني الفائزة بعناقي وتقبيلي ودموع الفرح تنهمر من عينيها أمام جمهور الحاضرين وكاميرات التلفزيون التي كانت تنقل الحدث على الهواء، وعند خروجي من الباب الخلفي وجدت روبرت بانتظاري، وأخبرني بأن ممول المسابقة – وهو أحد كبار رجال الأعمال من اليهود الإيرانيين – يريد مصافحتي، وحضر بالفعل، ووجَّه إليَّ دعوة لحضور حفل عشاء كبير في القصر الخاص به، مشيرًا إلى أن الدعوة موجهة إلى أعضاء لجنة التحكيم، ومحافظ حيفا السيد

إرييل جور، ولفيف من رجال الأعمال وزوجاتهم، فضلًا عن كل المتسابقات وعائلاتهن، ولم أكن أرغب في الذهاب لكنه أصر على حضوري مؤكدًا عدم دعوة التلفزيون أو الصحافة، فذهبت، وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة مساءً، وكنت أنوي الذهاب مبكرًا لوجود ارتباطات عمل في تل أبيب صباح اليوم التالي.. لكنني لم أشعر بالوقت في أثناء الحفل؛ فقد كان رائعًا في كل شيء، واتسم بالبذخ في مظاهره وتنظيمه وعدد المدعوين الذي تجاوز ثلاثمائة مدعو ومدعوة، كما كان يتسم بقدر كبير من الإباحية، وقد عرضت عليَّ بعض المتسابقات قضاء الليلة معي، وكانت الدعوات النسائية مفتوحة وصريحة بشكل عام، ودون مواربة، حيث عرضن عليَّ استعدادهن لعمل أي شيء أو ترتيب ما أريد مع مَن أختار من المدعوات، مع إبداء إعجابهن وانجذابهن لشخصي، ومضت أحداث الحفل المثيرة، فلم أشعر بالوقت إلا عندما قاربت الساعة الثالثة صباحًا، فتهربت بلباقة من السيدات اللاتي لاحقنني مع وعد مني بلقائهن بعد أن أعطتني كل منهن بطاقة بها اسمها ورقم هاتفها.

وكان من الواضح أن صاحب الحفل قد بذل جهدًا كبيرًا لتدبير لقاءات لي مع سيدات مجتمع، وهن يكن دائمًا في خدمة أجهزة الأمن والمخابرات، وعرض صاحب الحفل أن أبيت في جناح خاص بقصره، وأن سيارة فاخرة من عنده ستقلني في الصباح الباكر إلى تل أبيب، لكنني اعتذرت وانصرفت بينما تلاحقني السيدات للتأكيد على أهمية استمراري في الحفل.

وقد استشعرت - من الدقيقة الأولى - أن مشاركتي في هذا الحفل كانت بمثابة فخ مطلوب أن أسقط فيه، وقد نجحت بصعوبة في الخروج منه سالمًا، ووصلت إلى تل أبيب في الخامسة صباحًا؛ لأجد رسالة من رونا مسجلة على النداء الآلي للهاتف، تطالبني بضرورة الاتصال بها بمجرد وصولي، وبغض النظر عن التوقيت، واتصلت بها فعلًا فوجدتها قلقة لتأخري، واتفقنا على أن أحكي لها كل شيء عندما نلتقي.

صباح اليوم التالي، هنأني السفير سعد مرتضى على أدائي، معربًا عن مفاجأته بإلقاء كلمتي باللغة العبرية، ثم طلب مني أن أقص عليه كل ما حدث هناك، وفيما بعد سافرت «أميرة السلام» إلى القاهرة بصحبة والديها، وقابلت الكاتب أنيس منصور، الذي رحب بهم وأعد لهم برنامجًا سياحيًا حافلًا لمشاهدة معالم مصر، من القاهرة والإسكندرية، إلى الأقصر وأسوان، وفي نهاية الرحلة تم اللقاء مع الرئيس أنور السادات، وحظيت الزيارة بتغطية إعلامية كبيرة في تل أبيب.

*آخر لقاء بين السادات وبيجين:

وافق الرئيس السادات على لقاء مناحم بيجين يوم 25 أغسطس 1981، فكلفني السفير سعد مرتضى بإعداد ملخص بآخر ما توصلت إليه لجان التطبيع والحكم الذاتي لإرسالها مشفوعة بتقدير الموقف السياسي، وكان هذا هو آخر لقاء تم بينهما، حيث اصطحب بيجين شامير، وشارون، وبورج، وهم وزراء: الخارجية والدفاع والداخلية،

في حين شارك من الجانب المصري النائب كمال حسن، والمشير أبو غزالة، والدكتور بطرس غالي، وهم وزراء: الخارجية والدفاع والدولة للشئون الخارجية، وقد علمت فيما بعد من السفير سعد مرتضى، والسفير عصمت رضا، أن الجانب الإسرائيلي ركز على أنه نفذ التزاماته في مواعيدها المحددة طبقًا لاتفاقية السلام، مع التأكيد على تنفيذ الانسحاب الكامل من سيناء في الخامس والعشرين من إبريل 1982، وعلمت أيضًا أن السادات وبيجين قد عقدا اجتماعًا مغلقًا أوضح الرئيس السادات بعده - لأعضاء الوفد المصري - أن بيجين قد قدم اعتذاره له بشأن ضرب المفاعل النووي العراقي، وقد قرر الرئيس السادات وبيجين عقد لجنة التطبيع خلال 48 ساعة في إسرائيل، للتفاوض بشأن الموضوعات العالقة.

وقد حضر الوفد المصري كاملًا، وبدأت أعمال اللجنة في مساء اليوم نفسه، واستهل السفير عصمت رضا كلامه بسرد ما تحقق من إجراءات التطبيع، وما قُطع من شوطٍ طويلٍ في إبرام الاتفاقيات التي وصلت إلى اثنين وأربعين اتفاقًا فرعيًّا، كما أقر بوجود صعوبات نتيجة المطالب الإسرائيلية المبالغ فيها في بعض الأحيان، وقد طلب الوفد الإسرائيلي السماح لهم ـ بعد الانسحاب ـ بالدخول إلى سيناء وقراها السياحية عن طريق منفذ «العوجة» كمنفذ خاص لإسرائيل فقط، ورفض الوفد المصري هذا المطلب اكتفاءً بمنفذ العريش - الذي انتقل إلى رفح بعد الانسحاب النهائي - وأعاد الجانب الإسرائيلي الحديث عن العراقيل التي تضعها مصر في وجه الراغبين في زيارة إسرائيل من المواطنين

المصريين، ورد الجانب المصري بعدم إمكانية إجبار المصريين على زيارة إسرائيل، ودلل على حُسن نية السلطات المصرية بشأن الزيارات المتبادلة من خلال التأكيد على قيام القسم القنصلي بالسفارة المصرية في تل أبيب بإصدار ما يقارب ثمانين ألف تأشيرة دخول للمواطنين الإسرائيليين منذ مارس 1980، إضافة إلى التأشيرات الممنوحة لمواطنين إسرائيليين يحملون جوازات سفر أوروبية وأمريكية، وأشار السفير عصمت رضا إلى برقيات السفارة التي تضمنت اضطرار القسم القنصلي للاستعانة بالشرطة المحلية للحفاظ على أمن ونظام طوابير طالبي التأشيرات أمام مقر السفارة، بينما أعرب ديفيد كيمخي، سكرتير عام الخارجية الإسرائيلية، عن رغبة حكومته في زيادة حجم استيراد مصر من إسرائيل، وقد رد السفير عصمت رضا بأن حجم الصادرات الإسرائيلية إلى مصر وصل إلى خمسة عشر مليون دولار تركزت في تصدير البيض والدجاج والموز، وأن صادرات مصر لإسرائيل كانت تزيد على خمسمائة مليون دولار ثمنًا للبترول الذي تصدره مصر إلى إسرائيل - طبقًا لاتفاقية السلام - إلا أنه وعد ببحث الأمر إذا ما تقدمت إسرائيل بعروض تنافسية لتصدير عدد من السلع الأخرى.

ووافق الجانب المصري على طلب الجنرال إبراشا تامير بشأن استمرار البحث عن جثث بعض الجنود القتلى في سيناء منذ حرب 1973 بعد الانسحاب، لما يمثله ذلك من أهمية اجتماعية نظرًا لعدم تمكن الأرملة من الزواج مرة أخرى إلا بعد العثور على جثمان زوجها المتوفى، وذلك وفقًا لتعاليم الديانة اليهودية، وفي الوقت نفسه رفض

الجانب المصري طلب الجنرال تامير الاستمرار في استخدام مطاري العوجة ورأس النقب للأغراض المدنية بعد الانسحاب النهائي بحجة إحضار الوفود إلى سيناء مباشرة، وأخيرًا أُثير موضوع المستوطنات في سيناء، وعلى رأسها مستوطنة «ياميت»، وقد أشار الجانب الإسرائيلي إلى وجود أربع عشرة مستوطنة صغيرة في سيناء، وأن الحكومة الإسرائيلية تنوي دفع مائة ألف دولار أمريكي لكل أسرة لإخلاء جميع المستوطنات، إلا أن لديهم صعوبات كبيرة لإخلاء مستوطنة «ياميت» التي يقطنها خمسة آلاف مستوطن يرفضون التعويض، وقد حاول بيجين الحصول على موافقة الرئيس السادات على بقائهم مع تطبيق القانون المصري عليهم إلا أن السادات رفض ذلك، وأكد الجانب الإسرائيلي أنه سيتم إخلاؤهم في الموعد المحدد، ولو بالقوة، وأكد الجنرال تامير أن إسرائيل ملتزمة بقرار سياسي على أعلى مستوى يقضي بإزالة المستوطنات كافة، الأمر الذي قد يتسبب في قلاقل داخلية ستمثل عبئًا ثقيلًا على كاهل حكومة الليكود وقد يؤدى ذلك إلى تعرضها لاقتراع في الكنيست بحجب الثقة، إلا أن الحكومة رغم ذلك ستحرص على الوفاء بعهودها، وانتهت جلسة المحادثات بتشديد الجانب الإسرائيلي على أن الانسحاب سيتم في موعده، وفقًا لما تم الاتفاق عليه.

5

حقيقة خريطة
إسرائيل الكبرى

*حديث عن الآثار مع موشي دايان :

أقام السفير سعد مرتضى حفل استقبال في دار السكن، ورغم أنني أذكر أن ذلك كان في الثالث من سبتمبر، إلا أنني لا أذكر المناسبة التي من أجلها أقيم هذا الحفل، والذي حضره عدد من المسئولين الإسرائيليين، وعلى رأسهم إيرييل شارون، وموشي دايان، وزوجته راحيل، وياكوف أتيار مدير المراسم، ود. إيلي روبنشتين المستشار القانوني لوزارة الخارجية، كما شارك في الحفل سام لويس السفير الأمريكي، وزوجته السيدة سالي، التي ترأست جمعية «آل سام» لمكافحة انتشار المخدرات في المجتمع الإسرائيلي، وستانفورد سفير كندا، وموبرلي سفير المملكة المتحدة، ومارك بونغرس سفير فرنسا، وعدد كبير من الشخصيات المعروفة، وجلس دايان بصحبة زوجته وكان لديَّ فضول التحدث معه، وكنت أعلم أن أهم الموضوعات المثيرة بالنسبة له هي الآثار القديمة والتنقيب عنها، فتوجهت إليه وقدمت نفسي، ثم بدأت الحديث عن أحد أقاربي الذي عاد العام الماضي من المملكة المتحدة، وهو عالم آثار، وكان يعمل لصالح جامعة أوكسفورد في حل شفرة اللغة «الهيروغليفية» على بعض القطع الأثرية، وبالفعل نجحت في جذب انتباهه وبدأ يتحدث معي بشأن منزله في منطقة «تاهالا»، مشيرًا إلى أنه يقتني عددًا كبيرًا من التحف والآثار القديمة، وأنه ينقب بنفسه مع علماء الآثار، موضحًا أن له نظرياته الخاصة في التنقيب، ولذا فإنه يعمل وحده في مواقع غير معروفة للتنقيب عن الآثار، وهنا قلت له إنني سأحدثه بصراحة، وذكرت له ما يتردد عن امتلاكه لآثار فرعونية

عثر عليها في سيناء خلال الفترة من 1967 إلى 1973، فنفى ذلك بشكلٍ قاطعٍ، ولكنني تأكدت بعد ذلك من أنه كان يكذب؛ إذ توفي بعد هذا الحديث بشهر ونصف الشهر تقريبًا، وبعد وفاته باعت زوجته وابنته مجموعة من التحف والآثار التي كان يمتلكها إلى أحد المتاحف، وكان من بين المبيعات تابوت لمومياء فرعونية.

وفي هذا الحفل سألته عن الخريطة التي يُقال إنها موجودة في الكنيست، والتي توضح حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات، التي يُطلق عليها اسم «إسرائيل الكبرى»، فقال إنه سيدعوني إلى الكنيست حتى أتأكد بنفسي من عدم وجودها لأنها مجرد «إشاعة»، ولم يكن دايان كاذبًا هذه المرة؛ إذ أخبرني السفير سعد مرتضى - فيما بعد - أنه ذهب بالفعل وتجول في قاعات وممرات ومعظم غرف الكنيست ولم يعثر على خريطة إسرائيل الكبرى، التي يُشاع تواجدها على جدران الكنيست.

وبعد أن ألقى السفير كلمة قصيرة للترحيب بالضيوف، حضر إلى مائدة موشي دايان، وتحدث معه مستعيدًا ذكريات إنشاء السفارة المصرية في تل أبيب، قائلًا إنه عندما بدأ العمل لم يكن هناك مقر للسفارة، واستأجرت الخارجية المصرية الطابق الثاني عشر في فندق «هيلتون» لعمل وإقامة جميع أعضاء السفارة، حتى تم استئجار مقر السفارة في شارع «ابن جيفرول»، ثم سأله عما إذا كان زار السفارة المصرية، وعندما رد عليه دايان بالنفي، دعاه لزيارتها في أقرب فرصة.

***

في السابع من سبتمبر، دعاني السفير للحضور معه في حفل افتتاح «دورة المكابيا للألعاب الأوليمبية»، وعندما بدا عليَّ عدم الفهم، أوضح السفير قائلًا إنها دورة أوليمبية تقام مرة كل أربع سنوات - على غرار الدورات الأوليمبية المعروفة - وهي مخصصة للآلاف من الرياضيين اليهود في جميع أنحاء العالم، وقد بدأت منذ عام 1932، وتُعد واحدة من سبع مسابقات دولية تحظى باعتراف اللجنة الأوليمبية، وحضرت مع السفير حفل الافتتاح، وكانت بالفعل أوليمبياد مصغرة، حيث سارت جميع الوفود من اللاعبين اليهود من الدول المشاركة تحمل الأعلام، وقد حظي الوفد الإسرائيلي ـ كما هو متوقع ـ بتشجيع مبالغ فيه، وبعد الافتتاح حضرنا حفل الاستقبال الذي أقامته اللجنة المنظمة بحضور السفراء وأعضاء السلك الدبلوماسي، والتقيت أحد أعضاء الكنيست، وكان يقف مع عضو من الكونجرس الأمريكي، وقدمني السفير سعد مرتضى إليهما باعتباري العضو الأحدث بالسفارة المصرية، وتحدث كلاهما عن الرئيس السادات، وفوجئت بالسيناتور الأمريكي يروي قصة زيارته إلى مصر ولقائه مع الرئيس السادات، وكيف علم الرئيس ـ من مصادره الخاصة ـ أن زوجة السيناتور تعشق تورتة الآيس كريم، فقام بإرسال واحدة إلى زوجته في الفندق الذي أقاما فيه بالقاهرة، ثم في أثناء زيارة الرئيس السادات للولايات المتحدة الأمريكية، وعند لقائه هذا السيناتور مرة أخرى، سأله الرئيس السادات عما إذا كانت زوجته ما زالت تعشق هذا النوع لأنه أحضر معه «تورتة» صُنعت في مصر خصيصًا لزوجة السيناتور!

*كولومبية تكشف التنصت بالفنادق :

في أثناء إقامتي في فندق «ديبلومات»، كنت قد تعرفت على سائحة كولومبية يهودية، حضرت إلى تل أبيب لتقضي ستة أشهر في إحدى المستوطنات، ثم حصلت على دورة تدريبية في مجال الفندقة، وقد تنقلت بين أكثر من فندق، وكان «ديبلومات» هو محطتها الأخيرة في التدريب، وقد تعرفت عليها وتوطدت علاقتي بها، وكانت تتصل بي في الجناح الخاص بي، ثم تحضر خلسة في الساعات المتأخرة من الليل، واستمرت علاقتي بها بعد انتقالي إلى شقتي، حيث كانت تتردد عليَّ بصفة منتظمة، وأخبرتني بأنها كادت تنتهي من دورتها التدريبية، وأن والدتها ستحضر إلى تل أبيب، مؤكدة أن حلمهما معًا هو زيارة مصر ومعالم القاهرة والإسكندرية، وبعد وصول والدتها حصلت لهما على تأشيرة دخول سياحية إلى مصر، واتصلت بصديق لي في مصر ليعتني بهما خلال الزيارة، وبعد عودتهما إلى تل أبيب قضت معي الأيام الثلاثة الأخيرة لها في شقتي، وفي أثناء جلسة هادئة، سألتني إن كنت أعلم أن كل فندق من الفنادق التي تم بناؤها حديثًا في إسرائيل بها «غرفة مؤمَّنة» (Strong Room) لا يدخلها أي شخص من العاملين بالفندق، ولا حتى رجال أمن الفندق، مشيرة إلى أنها شعرت بالفضول للوقوف على حقيقة هذه الغرفة، خاصة بعد أن لاحظت دخول ثلاثة أشخاص من غير العاملين في الفندق مرتين يوميًّا، حيث يُفتح باب الغرفة المؤمَّن وكأنهم يدخلون مناوبة، وبعدها يخرج مَن كانوا بالداخل ليتسلَّم الطاقم الجديد مهامه، وبالتالي توجد مناوبتان يوميًّا

تغطيان الساعات الأربع والعشرين، ولا يعلم أي من العاملين بالفندق، ولا حتى مدير الفندق ومدير أمنه، ما هو شكل هذه الغرفة من الداخل، وقد أثار حديثها فضولي، خاصة عندما قالت إنها سألت كثيرين في عدة فنادق لمعرفة حقيقة هذه الغرفة الغامضة والعاملين فيها، وخرجت بنتيجة مفادها أن جميع الفنادق في أثناء تشييدها يتوقف البناء فيها لمدة ثلاثة أسابيع، حيث يتم تسليمها إلى جهات أمنية لا تعلمها، وخلال هذه الفترة يتم تشييد هذه الغرفة المؤمَّنة، وتغلق بمفاتيح وأقفال خاصة، وتعين لها حراسة 24 ساعة، إلى أن يتم تشييد بقية الفندق وتأثيثه وافتتاحه، وتبقى هذه الغرفة بعيدة عن أي شخص في الفندق، باستثناء الأشخاص المصرح لهم بدخولها في مناوبات يومية، وهم يكونون من خارج الفندق، وقد ذكرني كلام المتدربة الكولومبية بما ذكره لي روبرت ذات يوم بشأن توقف العمل في البناء وتولي لجنة هندسية معاينة الإنشاءات لمدة ثلاثة أسابيع، ثم تسليم المبنى مرة أخرى إلى مقاول البناء، ولذلك فقد أبلغت هذه المعلومة إلى الخارجية، ومنها إلى بقية الجهات المعنية في مصر.

*أسبوع مع صديقتي الأمريكية في تل أبيب:

في الأول من سبتمبر استقبلت صديقة أمريكية، حضرت لزيارتي من نيويورك، وقضت معي سبعة أيام، وقد بادرتني في بداية الزيارة بقولها: «إنني هنا لقضاء كل الوقت معك، ولست مهتمة بزيارة إسرائيل»؛ لذلك كنت أتركها صباحًا عند حمام السباحة في فندق «ديبلومات»، وبعد

انتهاء عملي أعود إليها هناك لنتناول الغداء معًا، ثم نعود إلى شقتي لأخذ قسط من الراحة، وفي المساء نبدأ سهرة مع مجموعة أصدقاء روبرت وزوجته، ولم نقضِ سوى يوم واحد في رحلة خارج تل أبيب.

وصديقتي هذه - واسمها آن - كنت قد تعرفت عليها في أثناء وجودي في مصر قبل نقلي إلى سفارتنا في تل أبيب، حيث اتصل بي شقيقي من نيويورك، وأخبرني بأن إحدى صديقات زوجته ووالدتها ستحضران إلى القاهرة لقضاء أسبوعين ما بين القاهرة والإسكندرية، وطلب مني أن أدعوهما على العشاء خارج برنامجهما السياحي للترحيب بهما، وفور وصولها إلى القاهرة، اتصلت آن بي، واتفقنا على العشاء معًا، وكان عشاءً مميزًا على أنغام موسيقى راقصة، ورقصت معها، ثم عدت بهما إلى فندق «مينا هاوس»، ودعتني والدة آن إلى تناول مشروب لتشكرني على السهرة الممتعة، وبعد دقائق استأذنت لتدخل إلى غرفتها، وجلست مع آن قرابة نصف الساعة، واستمرت لقاءاتنا خلال الأسبوعين التاليين، وبعد ثلاثة أسابيع من عودة آن إلى نيويورك وصلني منها عدة خطابات بالبريد تشكرني فيها على الأوقات التي قضيناها معًا، وبعد صدور قرار نقلي إلى تل أبيب اتصلت بي من نيويورك لتهنئني بهذا النقل، قائلة إنها علمت بخبر نقلي من شقيقي وزوجته، وطلبت مني الموافقة على حضورها إلى تل أبيب لزيارتي، ووافقت من حيث المبدأ، على أن يتم تحديد موعد زيارتها في وقت لاحق بعد أن أستقر في عملي، وحصلت آن - بعد ذلك - على أرقام تليفوناتي في تل أبيب من شقيقي، وكانت تتصل بي على فترات، مجددة

رغبتها في زيارتي، وأوضحت لها صعوبة زيارتها لي عندما كنت أقيم في الفندق، ثم رتبت معها الزيارة بعد انتقالي إلى شقتي.

وقبل وصول آن بيوم واحد، أبلغت رونا بأنني سأستقبل إحدى صديقاتي من أمريكا، ووضحت لها أنها ستقضي أسبوعًا في ضيافتي وسيكون من الصعب أن نلتقي خلال هذه الفترة، وجن جنون رونا، وحاولت تبرير شعورها بالغيرة بأنه نابع من حبها لي، وأن الغيرة - في حدود - تعتبر عنصر بناءٍ وليس عنصر هدم للعلاقة.

*زيارة شقيقي وزوجته الأمريكية للقدس:

صادف يوم سفر آن عقد الاجتماع السنوي لاتحاد النقابات العمالية «الهيستدروت»، وكان السفير قد كلفني بحضور المؤتمر نيابة عنه، فصاحبت آن إلى مطار بن جوريون لتوديعها، ثم عدت إلى المؤتمر لأعرف أن رونا مكلفة بحضور الاجتماع نفسه، فاتصلت بها وأبلغتها بأنني سأذهب إلى فندق «هيلتون» بعد انتهاء المؤتمر، وطلبت منها أن نلتقي في بهو الفندق بعد الاجتماع.

وكان هذا اليوم قد صادف أيضًا وصول شقيقي سمير وزوجته وعائلتها وعدد من أصدقائهم إلى القدس، في رحلة كان قد بدأ الإعداد لها من شهر يوليو، وكنت قد شجعته عليها، حيث قرر القيام برحلة سياحية إلى مصر وإسرائيل، وقد اتصلت بعدد من شركات السياحة الإسرائيلية لإعداد برنامج سياحي متميز، حيث كان عددهم يصل إلى

ستة عشر فردًا، فحجزت لهم في فندق «هيلتون» القدس، في ضوء رغبة المجموعة في الإقامة بالقدس، وقد جاملتني إدارة الفندق في ترقية غرفة شقيقي إلى جناح، وكنت قد قمت بحجز أتوبيس سياحي ليقلهم من المطار ويظل معهم حتى موعد مغادرتهم، وقد توجهت بالفعل إلى الفندق بعد انتهاء الاجتماع السنوي للهستدروت، فوجدت رونا هناك، وتحدثت مع موظفي الاستقبال بشأن ترتيب الغرف، وكنت قد أبلغت شقيقي بتعذر استقباله في مطار بن جوريون بسبب مشاركتي في الاجتماع، وقد عرض عليَّ موظف الاستقبال تسليمي مفتاح الجناح الخاص بشقيقي، فوافقت ووقعت على الاستلام، ثم اصطحبت رونا إلى الجناح؛ إذ كان موعد وصول طائرة «إير سينا» بعد نصف ساعة، فضلًا عن الوقت الذي تستغرقه إجراءات خروجهم من المطار، ثم قطع مسافة تصل إلى 35 كيلو مترًا للوصول إلى القدس.

وفي أثناء انتظارنا، سألتني رونا عن الشيء المختلف في مظهرها، ولم أستطع تحديد الذي تقصده، هل تعني فستانها؟ أم حذاءها؟ ظللت أنظر إليها دون تمييز ما هو الجديد، فبدت غاضبة وهي تقول: «كيف لم تلاحظ أنني تخليت عن مبدئي كمدافعة عن حقوق المرأة لا تضع أي مساحيق تجميل، بينما أضع اليوم ولأول مرة في حياتي كل هذا الماكياج على وجهي»، وأضافت أنها أقدمت على هذه الخطوة بعد تردد؛ لأنها ترغب في أن تبدو أجمل في نظري، وحتى أكون على قناعة من أنها تستحق أن تكون صديقتي الوحيدة!

كانت رونا تتحدث بغضب وإحباط، فاعتذرت عن عدم ملاحظتي لها مرجعًا السبب في ذلك إلى قلة خبرتي، وأثنيت عليها، مؤكدًا لها أن وجهها جميل، وقد كان كذلك فعلًا.

واستهلاكًا للوقت، بدأت رونا حديثًا مطولًا عن المجتمع الإسرائيلي، ونظام المستوطنات والحياة فيها، ثم بدأت في مراجعة الملاحظات التي دونتها عن الاجتماع السنوي للهستدروت، خاصة أنني كنت أدون ملاحظاتي من خلال الترجمة الفورية، في حين دونت رونا ملاحظاتها مباشرة لإتقانها اللغة العبرية، وتحدثت معي عن معنى كلمة «هيستدروت»، قائلة إنها اختصار بالعبرية لعبارة: «الاتحاد العام لعمال أرض إسرائيل»، وقد تم تأسيسه عام 1920، واستمد فكرته من تاريخ النقابات العمالية الأوروبية، وكان الهدف منه حماية العمال اليهود وإيجاد فرص عمل لهم في إطار تنافسهم مع العمال العرب الذين كانوا يعملون بأجر أقل ومهارة أفضل، وقالت إن «الهيستدروت» الآن يضم أكثر من 90 % من الأيدي العاملة في إسرائيل، وبالتالي فله أهمية اجتماعية كبيرة، وثقل سياسي يعتد به، ويمثل أكبر قوة اقتصادية في إسرائيل، حيث يمتلك مصرف «هابوعاليم»، أكبر مصارف إسرائيل، كما يملك صحيفة «دافار» اليومية، الناطقة بلسانه، كما يمتلك هيئة تأمين صحي هي «كوبات خوليم»، بالإضافة إلى عدد من المستشفيات وكليات التمريض ودور النقاهة.

انتقل حديثنا بعد ذلك إلى الوضع الاقتصادي، فقالت إن التاريخ يشير إلى تميز أداء رجال الأعمال اليهود في أوروبا، فمثلًا في بريطانيا

برزت مؤسسة «بيت روتشيلد» في القرن التاسع عشر، حيث كانت إحدى مهام موظفي روتشيلد هي الحصول على المعلومات المهمة قبل أن تحصل عليها الحكومات، بما في ذلك الحكومة البريطانية نفسها، وعندما كانت أوروبا كلها تنتظر نتيجة معركة «ووترلو»، حصل ناتان روتشيلد على معلومات - من خارج لندن - تفيد بأن الأسطول الإنجليزي قد هزم نابليون، وهنا أغرق روتشيلد السوق بالسندات المسحوبة على الحكومة البريطانية وعرضها فجأة للبيع، وحذا حذوه كل رجال الأعمال الذين يراقبون تحركات روتشيلد، معتقدين أن بريطانيا قد خسرت المعركة، ومن ثم هبطت أسعار السندات إلى مستوى متدنٍّ للغاية، وفي اللحظة المناسبة قام روتشيلد بشراء كل السندات المعروضة، وعند وصول الأنباء بانتصار بريطانيا ارتفعت أسعار سندات الحكومة البريطانية عدة أضعاف، وبشكلٍ مبالغٍ فيه، وكسبت مؤسسة «روتشيلد» مئات الملايين من الجنيهات الإسترلينية في ذلك الوقت.

وفي أثناء الحديث رن الهاتف، وعندما أجبت فوجئت بشقيقي سمير يتحدث من الاستقبال؛ ليسألني إن كنت قد وقَّعت على استلام مفتاح الجناح الخاص به، وضحك بشدة عندما عرف أنني فعلت ذلك، وقال إنهم وصلوا إلى الفندق، وقام والد زوجته بتنسيق الغرف ومَن يقطنونها، وأعطاه موظف الاستقبال جميع المفاتيح، وعندما سأل عن مفتاح جناح شقيقي أخبروه بأنه قد استلمه ووقع بما يفيد ذلك، وعاد شقيقي إلى الضحك مرة أخرى، قائلًا إنه شك في نفسه عندما شاهد

التوقيع على الورقة؛ لأنه مشابه جدًّا لتوقيعه، ثم أدرك أنني أخذت المفتاح ووقعت بدلًا منه، وحضر سمير وزوجته الأمريكية «بام» إلى الجناح، وبعد السلام والعناق، قدمت له رونا كزميلة وصديقة، ثم التقينا سائر المجموعة المصاحبة له، ونزلنا جميعًا لتناول مشروب، ولاحظت ورونا مدى سعادة المجموعة في استرجاع ذكرياتهم في مصر خلال الأسبوع الذي قضوه هناك، سواء في القاهرة أو الإسكندرية، أو حتى خلال رحلة قصيرة إلى الأقصر وأسوان.

وفي اليوم التالي ذهبت - ومعي رونا - إلى القدس للاحتفال بعيد الميلاد الواحد والأربعين لشقيقي، وكنت قد عدت إلى تل أبيب - وكذلك رونا - لارتباطنا بالعمل، على وعد بحضور عيد الميلاد، الذي أقيم في قاعة تم حجزها خصيصًا لهذه المجموعة، حيث احتفلنا بإطفاء الشموع، ثم تناول العشاء، وكانت ليلة جميلة قضيناها في «هيلتون» القدس، وفي اليوم التالي، حضروا هم إلى تل أبيب، واصطحبتهم - بعد جولة سياحية - لتناول العشاء في أحد المطاعم، وحين غادر الجميع - بعد انتهاء الرحلة - كانوا جميعًا سعداء يؤكدون أنهم أمضوا وقتًا سعيدًا وممتعًا بفضل ما قمنا به - رونا وأنا - من ترتيبات.

*صور النائب كمال حسن في منزل فايتسمان :

وجَّه وزير الدفاع عيزرا فايتسمان - والذي أصبح رئيسًا لإسرائيل فيما بعد - الدعوة للوفد المصري الذي حضر منتصف سبتمبر

للمشاركة في لجنة التطبيع، وكانت الدعوة في منزله الخاص بضيعته خارج تل أبيب، وكنت من بين المدعوين باعتباري عضوًا منضمًّا للوفد من السفارة، وكان في استقبال الوفد المصري عدد من أعضاء الوفد الإسرائيلي، الذين رحبوا بالجميع، وبدأ فايتسمان بحديث ودي أكد فيه على أهمية التفاهم في الشق العسكري من المباحثات لتسهيل تنفيذ المرحلة القادمة من الانسحاب الإسرائيلي من بقية سيناء، وضرورة التزام الجانب الإسرائيلي بتنفيذ تعهداته، منوهًا إلى ضرورة مرونة الجانب المصري للمطالب الإسرائيلية.

بعد ذلك دعانا إلى التوجه لغرفة الطعام، وكانت مفتوحة على «تراس» كبير، وحديقة واسعة، وفي أثناء مروري لاحظت وجود عدد من الصور الفوتوغرافية للنائب كمال حسن في مراحل عمرية مختلفة، فاستوقفت الوزير فايتسمان، وقلت له: «عذرًا يا سيادة الوزير، أنا أعلم أن هناك علاقة ثقة واحترام وتقدير متبادل بينك وبين السيد النائب كمال حسن، ولكنني لم أفكر للحظة في قوة هذه العلاقة التي تجعلك تضع صوره في كل مكان بمنزلك»، وكان رده غريبًا؛ إذ قال لي: «ما رأيك؟ أليست جميلة؟»، فقلت متأثرًا برده المفاجئ: «الحقيقة أنا لا أفهم! فهناك بعض الصور لك مع النائب كمال، وبعض الصور له بمفرده، أو مع أشخاص لا أعرفهم، بينما صور أخرى لها خلفية توضح أنها التقطت منذ زمن سابق.. فهل تم تركيب الصور على خلفيات أخرى؟!»، فضحك وقال: «معظم هذه الصور تعود لوالدي، الذي يشبه تمامًا النائب كمال، ومن هنا توجد لديَّ نقطة ضعف كبيرة أمام هذا

الرجل، فعندما يكون له مطلب أشعر وكأن والدي هو الذي يطلب مني هذا المطلب، وعادة لا أقاوم وأستجيب بسرعة لمطالبه!»، ثم استطرد قائلًا: «عندما قام الفريق كمال حسن بأول زيارة رسمية لإسرائيل في 1980/2/25، دعوته إلى منزلي، وعندما شاهد هذه الصور، تساءل باندهاش عن سبب وجود صوره في منزلي، وازدادت دهشته عندما علم أنها صور والدي من شدة التشابه بينهما!».

*رحلتي إلى البحر الميت :

بعد ثلاثة أشهر من وجودي في إسرائيل، اقترح روبرت عليَّ أن أنضم إلى مجموعة الأصدقاء للذهاب في رحلة إلى البحر الميت، مؤكدًا أن الطقس سيكون معقولًا هناك حاليًا، ووافقت على اقتراحه باعتبارها فرصة لمشاهدة أكثر بقعة انخفاضًا في العالم عن مستوى سطح البحر - كما كُتب على لافتة هناك - وحذرني روبرت من السباحة في البحر الميت نظرًا لارتفاع نسبة تركيز الأملاح في المياه، وما يمكن أن يسببه ذلك من الإصابة بالتهابات جلدية، إلا أنني لم أستمع إلى نصيحته، وكنت أرغب في تجربة السباحة في مياه هذا البحر، حيث الارتفاع المذهل في كثافة المياه، حتى إنني شعرت بأن جسمي يطفو لأعلى، واستمتعت بتجربة هذه الظاهرة في أثناء السباحة، ولكنني أصبت بالفعل ببعض الالتهابات خاصة أن الشمس كانت حارقة في هذا اليوم، وكنت قد أحضرت معي عددًا من الأكياس التي تحتوي على ملح ومعادن مستخلصة من مياه البحر الميت لوضعها في حمامي، حيث تساعد على استرخاء عضلات

الجسم، وعدت إلى تل أبيب في اليوم نفسه، فشعرت بانسداد في أذني اليسرى حتى لم أعد أسمع بها، وقررت وضع بعض هذا الملح في حمامي للاسترخاء، وبالفعل شعرت باسترخاءٍ شديدٍ حتى كدت أنام في الحمام، فخرجت إلى فراشي واستغرقت في النوم على الفور، ولم أستيقظ إلا على طرقٍ عنيفٍ على باب شقتي، وعندما فتحت الباب وجدت روبرت وزوجته والقلق يبدو على ملامحهما، وبررا ذلك بأنهما انتظراني لأذهب إليهما في الموعد المتفق عليه معهما، وعندما تأخرت اتصلا بي ولكنني لم أرد، وفي أثناء مرورهما من أمام منزلي شاهدا سيارتي فساورهما الشك في أن أكون مريضًا، وأخبرتهما بأنني مريض بالفعل ولا أكاد أسمع بأذني، فاتصل روبرت بطبيب أنف وأذن صديق له، وذهبنا إليه في عيادته رغم تأخر الوقت، وقام بغسيل أذنيَّ لأستعيد نعمة السمع مرة أخرى.

ولم ينسَ روبرت قبل أن يتركني، تذكيري بدعوة ديفيد لي أنا ورونا على العشاء في جناحه الخاص بفندق «ديبلومات»، وكان روبرت قد أخبرني في أثناء عودتنا من رحلة البحر الميت بأن ديفيد قد حاول الاتصال بي أكثر من مرة لدعوتي ولم ينجح في الوصول إليَّ، ووجه روبرت إليَّ الدعوة نيابة عنه، فقبلتها.

*جدال سياسي في حفل ديفيد :

كان حفل ديفيد صاخبًا، وبه عدد كبير من المدعوين من مختلف الطوائف، والفئات العمرية، ولم أكن أرتاح لديفيد؛ لأنني لم أكن أعرف مهنته الحقيقية ولا سر ثرائه، وكذلك لم أكن أعرف نوعية

المواد الكيماوية التي يستوردها وتحقق له كل هذا الثراء! ورحب بنا ديفيد، وذكرنا بأنه من أصل روسي، مشيرًا إلى أنه يلتقي العديد من المهاجرين السوفييت، وقال إن المهاجرين الجدد يفضلون العيش مع مهاجرين سوفييت سبقوهم في الهجرة؛ لأن ذلك يساعدهم في التغلب على مصاعب الحياة الجديدة، ومشاكل التوطن، إضافة إلى لغتهم المشتركة، حيث نادرًا ما يتحدث المهاجرون الجدد اللغة العبرية، ومن هنا نشأت فكرة معاهد «الأولبان» لتعليم العبرية للمهاجرين الجدد، وعندما سألته عن الفرق بين هذه المعاهد وبقية مراكز تعليم اللغة الأخرى، قال إن معاهد «الأولبان» تقوم بتدريس دورة مكثفة للغاية تصل إلى ثماني ساعات يوميًا، تتضمن الأحاديث الدارجة، والمحادثة في السوبر ماركت، ووسائل المواصلات العامة، والسؤال عن عنوان.. إلخ، فتساءلت عن إمكانية انضمامي إلى أحد هذه المعاهد، فهز رأسه علامة النفي، قائلًا إن هذه المعاهد - على حد علمه - مخصصة للمهاجرين الجدد فقط، ولا يُسمح للدبلوماسيين الأجانب بالانضمام إليها، ثم عاد ديفيد إلى الحديث مرة أخرى عن المهاجرين السوفييت، قائلًا إن آخر «نُكتة» أُطلقت عليهم هي أنهم بمجرد نزولهم من سلم الطائرة لأرض المطار يرفعون علامة النصر بأيديهم، والمفترض أن هذه العلامة تعني شعورهم بالنصر (Victory)؛ لوصولهم إلى أرض الميعاد، وأضاف ضاحكًا أن الحقيقة غير ذلك؛ إذ إن ما يقصده هؤلاء المهاجرون هو طلبهم من الآن الحصول على ڤيلًا (Villa) وسيارة ڤولڤو (Volvo)، وهنا تدخل آفي قائلًا بجدية: «معهم كل الحق؛ لأنهم إشكناز، وكان أجدادهم وآباؤهم أول من دعا إلى مبادئ

الصهيونية، وكانوا يؤمنون بالشيوعية أو الاشتراكية كأيديولوچية، ولكونهم أول مَن نظَّم موجات الهجرة واستوطنوا فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل، وأول من طبَّق نظرية المجتمع الشيوعي الاختياري وتطبيقاته في نظرية المستوطنات، ولكونهم عانوا وبذلوا الجهد والعرق والدم فإن أولادهم وأحفادهم من موجات الهجرة الجديدة يستحقون ما يطلبون!»، كنت مستمعًا جيدًا لهذا الجدل، فعقبت قائلًا: «وهل يقبل المجتمع الإسرائيلي بهذه التفرقة، خاصة السفارد؟»، فرد آفي قائلًا: «إن مؤسسي الصهيونية من أجدادنا آمنوا بإمكانية أن يعيش اليهود متآخين في دولة صغيرة يلتقي فيها الشرق مع الغرب، وقد التقوا في إسرائيل التي تعتبر مجتمع مهاجرين حقيقي يمثل فيه المهاجرون 60 % من أصل أربعة ملايين يهودي يقطنون إسرائيل - طبقًا لإحصاء عام 1980 - وقد آمن قادة إسرائيل بأن الهجرة ستحتفظ للأمة الإسرائيلية بكيانها، وستكون عنصرًا داعمًا لأمنها، وأنه كما توجد ديانة مشتركة بين كل المهاجرين فإن اللغة العبرية ستكون اللغة المشتركة بين أوائل المستوطنين والمهاجرين الجدد، الذين يستحيل بدونهم تحقيق حلم إقامة دولة إسرائيل وإعادة بعث القومية الصهيونية»، وقاطعه روبرت قائلًا إن إسرائيل عبارة عن «مجتمع سياسي» من القمة إلى القاع، وفيه يهيمن السياسيون على قطاعات الصناعة والسياحة والعمل والصحة، بل وحتى التعليم، وإن أي مواطن إسرائيلي عليه أن يكون في الاتجاه السياسي الصحيح والمناسب إذا ما رغب في الحصول على أي عمل حكومي أو إداري، واختتم كلامه مؤكدًا أنه يجب توفر التوجه السياسي لدى رجل الأعمال ليكون ناجحًا، ووافقه ديفيد على ذلك ضاربًا عددًا من الأمثلة.

وانتقد روبرت مبدأ الصهيونية الذي يوجب التمسك بالأرض التي تُنتزع بالدم باعتبارها رمز الوجود والحياة القومية، مشيرًا إلى أن ذلك يتم تدريسه في مناهج مادة التاريخ بالمدارس الإسرائيلية رغم عدم موافقة بعض طوائف المجتمع الإسرائيلي على هذا التوجه.

وفي حين بدأ عدد كبير من الشباب المدعوين مغادرة الحفل، إلا أن مجموعتنا المصغرة واصلت جدلها السياسي، وقد تحدثت - باعتباري مصريًّا وعربيًّا - عن حدود إسرائيل، وذكرت لهم أنه من خلال دراستي وقراءاتي المختلفة يمكنني القول إن هناك غيابًا واضحًا، بل ومتعمدًا، لأي ترسيم لحدود إسرائيل في بنود إعلان الاستقلال الذي يُعد مصدر السلطة الشرعية الرئيسي لإسرائيل، في ضوء عدم وجود دستور، وأضفت أن مُعدي إعلان الاستقلال - كما هو معلوم - قد طلبوا من بن جوريون تحديد حدود إسرائيل استنادًا إلى خطة التقسيم التي أعلنتها الأمم المتحدة عام 1947، وأصروا على أن عدم تحديد حدود أي دولة يتعارض مع مبادئ القانون الدولي، الأمر الذي من شأنه أن يضع العديد من العراقيل في علاقة دولة إسرائيل الجديدة بدول العالم، إلا أن بن جوريون رفض المقترح، وفي تقديري الشخصي أن ذلك كان لسببين، أولهما: خشيته من المعارضة الدينية، حيث يؤمن رجال الدين بأن حدود إسرائيل يجب أن تتوافق والحدود التي وعد الله بها إبراهام (أي من النيل إلى الفرات)؛ وثانيهما: أن بن جوريون كان على ثقة من أن الحدود ستتغير بعد الحرب الوشيكة مع العرب، وهذا ما حدث؛ فقد رفض العرب قرار التقسيم، ووسَّعت إسرائيل حدودها بعد حربي 1948، و1967.

كنت أتحدث بحماس على غير عادتي؛ فقد كنت حريصًا على عدم الحديث عن الأوضاع السياسية، خاصة مع مجموعة أصدقاء روبرت، ولكنني وجدت أنه من المناسب توضيح إحدى وجهات النظر لهم، وقد فاجأني رد فعلهم على كلامي، حيث غرقوا جميعًا في حالة من الصمت والتركيز وكأنهم يستكشفون ما بداخلي، وشاهدت علامات الرضا على وجه رونا، التي التقطت خيط الحديث، متسائلة عن تعريف إسرائيل، هل هي الدولة التي يقطنها الإسرائيليون وبالتالي فهي دولة اليهود أم دولة الشعب اليهودي؟ وهل اليهودية دين أم قومية؟ وتصدى ديفيد للرد عليها مؤكدًا أنها الاثنان معًا، وواصلت رونا تساؤلاتها: هل يختلف يهود إسرائيل عن يهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وأوروبا؟

وماذا بشأن غير اليهود القاطنين في إسرائيل من عرب مسلمين ومسيحيين؟ وماذا بشأن قوميتهم؟ وأضافت أن هذه الأسئلة كلها ليست لها إجابات قاطعة في أذهان الشباب في إسرائيل، موضحة أنها لاحظت ذلك وتأكدت منه في أثناء إقامتها في «الكيبوتس» وفي أثناء دراستها بالجامعة في حيفا، وعلَّق على كلامها هذه المرة رجل أعمال من أصدقاء ديفيد، اسمه دان، قائلًا إن المجتمع الإسرائيلي يؤمن بمفهوم القوة الصهيونية التي تعتمد على ثلاثة عناصر هي الهجرة والاستيطان والقوة العسكرية المتفوقة، وإن هذه العناصر الثلاثة من شأنها أن تكفل ضمان بقاء المجتمع اليهودي وتوفر أدواته الضرورية للبقاء، فعلَّقت أنا على كلامه باقتضاب، قائلًا إن هذه المقولة تحتوي على خلط كبير

في المفاهيم ولا تستحق الرد عليها، وكان هذا الرد مثار دهشة الجميع، باستثناء رونا التي حاولت تغيير الموضوع تخفيفًا لحدة التوتر الذي نشأ فجأة، ووجهت تساؤلًا للموجودين بشأن مصير ونتائج الزيجات المختلطة في المجتمع الإسرائيلي، وسارعت راحيل - زوجة روبرت - بالرد عليها، قائلة إن الزيجات المختلطة لها تداعيات على الهوية الإسرائيلية، وكذلك على الأطفال الناتجين من هذه الزيجات، وقدمت شرحًا بشأن إشكالية الزواج حين يكون بين رجل مسلم ينجب طفلًا مسلمًا - طبقًا للإسلام - وامرأة يهودية، يجب أن يكون طفلها يهوديًا طبقًا للديانة اليهودية، الأمر الذي يعني أن الطفل من والد مسلم ووالدة يهودية سيندرج تحت ديانتين مختلفتين في آنٍ واحد، بينما الطفل من أم مسلمة وأب يهودي - وهذا غير جائز وفقًا للشريعة الإسلامية - لن يكون له أيٌّ من الديانتين، ولذا فإن الإسرائيليين يواجهون مشاكل كبيرة تتعلق بهويتهم في حالة الزيجات المختلطة، وبالتالي فإن المجتمع الإسرائيلي يرفض هذا النوع من الزيجات، كما ترفض القيادات الدينية اليهودية إتمام مراسم الزيجات المختلطة رغم أنه لا يوجد في أي قانون مدني إسرائيلي ما يمنع إتمام هذه الزيجات.

بعد ذلك تحدثت راحيل عن قرب إجازة «يوم كيبور» - أي اليوم الكبير - وهو ما يُطلق عليه «عيد الغفران»، فقالت إنها وعائلتها اعتادا الصوم عن الأكل والشرب في هذا اليوم لمدة 24 ساعة، أي من مغرب اليوم السابق وحتى غروب شمس يوم عيد الغفران، فقلت إنني سأتجول بسيارتي في تل أبيب وسأتناول غدائي وعشائي في المطاعم،

وفوجئت بهم جميعًا يحذرونني من فعل ذلك، قائلين إنه يمتنع على الجميع استخدام سياراتهم - في هذا اليوم - والمخالف يتعرض للقذف بالحجارة من المتدينين الذين يذهبون إلى معابدهم سيرًا على الأقدام، ويستثنى من هذه القاعدة - على مضض - سيارات الشرطة والإسعاف والمطافئ.

وبعد الحفل طلبت رونا قضاء الليلة معي في شقتي، ورحبت بذلك؛ إذ كنت أرغب في معرفة رأيها فيما جرى من أحاديث، وانصرفنا - كل في سيارته - حتى لا نلفت الأنظار.

*حديث مع رونا عن رئيس «الشين بيت»:

بعد عودتنا إلى شقتي، لفتت رونا نظري إلى شخص يرتدي نظارة معدنية، كان يجلس على يمين البهو عند نزولي من المصعد، وسألتني إن كنت قد انتبهت إلى طريقة نظرته إليَّ أم لا، فأجبتها بأنني لاحظته وشعرت بأنه رجل مهم؛ لوجود عدد من المحيطين به، فقالت إنه إفراهام شالوم، ويلقبه أصحابه بـ«أفروم»، ثم صمتت قليلًا قبل أن تقول وهي تضغط حروف كلماتها قائلة: إنه رئيس جهاز «الشين بيت» الجديد، وقد تم تعيينه منذ عشرة أيام فقط. وسألتها إن كانت لديها معلومات عنه، فقالت إن معلوماتها عنه ليست كثيرة، وبدأت تسرد عليَّ ما تعرفه عنه، قائلة إن اسمه الحقيقي هو أفراهام بندور (Avraham Bendor)، وُلد سنة 1929 لأبوين ألمانيين، انتقلا إلى فلسطين عندما تسلَّم

هتلر الحكم في ألمانيا، وقد نشأ في المستوطنات بخلفية اشتراكية، والتحق بجيش الدفاع عندما كان عمره تسعة عشر عامًا، وهو يتحدث الإنجليزية والألمانية بطلاقة، وقد التقى شخصًا مهمًّا ألحقه بجهاز «الشين بيت»، واسترسلت رونا قائلة إنه يتسم بالبرود، والصمت، كأبرز صفات شخصيته، ويعطي انطباعًا بأنه غاضب طوال الوقت، وهو أحد المشاركين في عملية اختطاف آيخمان في الأرجنتين عام 1960، وهو مقرب من شارون، وقد شارك في العديد من العمليات ضد الفلسطينيين الناشطين؛ إذ إنه يؤمن بالعمليات السرية بهدف التصفية الجسدية للقيادات الفلسطينية، وقد تدرَّج في العديد من المناصب داخل «الشين بيت» حتى وصل قبل توليه رئاسة الجهاز إلى منصب مدير وحدة العمليات.

كانت رونا تخبرني بكل هذه المعلومات وهي تهمس في أذني، رغم أننا كنا نجلس في «تراس» شقتي، والتلفزيون والراديو يصدران أصواتًا مرتفعة، وختمت كلامها موضحة أنها تخبرني بكل هذا من أجل أن أعامله بحذر في حالة لقائي به مرة أخرى، وطلبت مني عدم سؤالها عن مصدر معلوماتها.

وتعليقًا على ما دار في الحفل، قالت رونا إن الإسرائيليين يصفون أنفسهم بأنهم ليسوا عباقرة ولكنهم فقط منظمون ومنضبطون، مبدية اتفاقها مع هذه المقولة؛ إذ إن تفوقهم الفني والتكنولوچي ليس بسبب عبقريتهم، بل نتيجة ما أحضره المهاجرون اليهود معهم إلى إسرائيل من تكنولوچيا وتقنيات إنتاج من الدول الأوروبية والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.

وأضافت رونا أن المبادئ الصهيونية تقوم على أساس أن فلسطين هي أرض الميعاد، ووطن الشعب اليهودي، وأرض بني إسرائيل؛ لذلك فإن الهجرة إلى إسرائيل تتسم بالأهمية والسمو إلى الأعلى، وهي باللغة العبرية كلمة «عليا»، من العلا، في حين أن الهجرة من إسرائيل إلى الخارج تمثل عنصرًا وضيعًا، هدَّامًا، ولذا فهي تعرف في العبرية باسم «ياريدا»، أي الهبوط.

بعد ذلك تحدثت عن الفوارق بين الطوائف الدينية ومسمياتها المختلفة، فذكرت طائفة «الحسيديم» التي يكرس أعضاؤها حياتهم لدراسة الدين والفقه اليهودي، كما شرحت لي كيف أن طائفة «ناطوري كارتا» هي الفئة الوحيدة من اليهود التي تعيش في إسرائيل ولا تعترف بدولتها؛ لاعتقاد أفرادها بأن إسرائيل الحقيقية لن تقوم إلا بعد مجيء المسيح الحقيقي.

وتحدثت رونا عن الوكالة اليهودية، قائلة إنها منذ إنشاء إسرائيل، وحتى عام 1981 تمكنت – طبقًا لإحصائيات بريطانية – من بناء خمسمائة قرية، عدد كبير منها أقيم مكان قرى عربية تم تدميرها، مثل منطقة «رمات آفيف» – ضاحية تل أبيب – التي تم إنشاؤها على حطام قرية عربية اسمها «قرية الشيخ مؤنس»، وكانت مليئة ببساتين البرتقال، وقد هدمتها الجرافات الإسرائيلية وأعادت بناءها على نمط المناطق الريفية الإسرائيلية، كما تمكنت الوكالة اليهودية من تهجير مليون وسبعمائة ألف يهودي إلى إسرائيل من مختلف أنحاء العالم، مشيرة إلى أن الوكالة تحصل على مواردها المادية الهائلة من التبرعات التي تجمعها من أمريكا وأكثر من سبعين دولة أخرى.

بعد ذلك خاطبتني رونا باعتباري عربيًّا، فقالت: «إن الانحياز الأمريكي والأوروبي لإسرائيل يعود إلى تصوركم كعرب، واستسلامكم، لفرضية الانحياز الأعمى لإسرائيل، باعتباره أمرًا غير قابل للتغيير أو التعديل، وهذا غير صحيح، في حين نجحت الحركة الصهيونية في تقديم نفسها للولايات المتحدة وأوروبا كحليف مطيع يملك إمكانيات الدفاع عن مصالح هذه الدول في منطقة الشرق الأوسط، وبأقل التكاليف»، وأشارت إلى حديث دار بين بيجين والسفير البريطاني – ولم أكن أعرف شيئًا عنه قبل أن تخبرني به – حيث قال بيجين صراحة: «إن الولايات المتحدة لا تحب إسرائيل من أجل جمال عيونها، بل لأنها أكبر حاملة طائرات أمريكية في العالم».

*زيارة وزير السياحة المصري لإسرائيل:

أبلغني السفير سعد مرتضى بأن وزير السياحة المصري جمال الناظر سيقوم بأول زيارة إلى إسرائيل بعد يومين، وكلفني بمرافقة الوزير وإعداد برنامج زيارته ومحادثاته، وبالفعل ذهبت معه إلى المطار لاستقبال الوزير، وكان وزير السياحة الإسرائيلي إبراهام شارير في استقباله، وقد حظيت الزيارة بتغطية إعلامية كبيرة، وعقد الوزيران جلسة محادثات بحضور السفير سعد مرتضى، والوزير المفوض محمد بسيوني، في حين ضم الوفد الإسرائيلي العديد من خبراء السياحة، وفي تقديري أن الزيارة كانت لهدف سياسي وليس سياحيًّا؛ إذ لم يتفق الطرفان على شيء تقريبًا، بينما حرص الجانب الإسرائيلي على إبهار وجذب أنظار الوزير

المصري بالنسبة لزيارة المقاصد السياحية في إسرائيل، وبالطبع اعتذر الوزير عن عدم القيام بجولة سياحية في مدينة القدس بالرغم من قيامه بأداء الصلاة في المسجد الأقصى، حيث توجه بعد ذلك إلى تل أبيب، وكان برنامج الزيارة يحتوي على زيارة مهمة إلى المركز الدولي لصناعة الألماس وصقله وتجارته، وكان مديره العام السيد شنيتزر على رأس مستقبلي الوزير جمال الناظر، وقد صاحبت الوزير في هذه الزيارة، التي تحدث فيها مدير المركز - في أثناء غداء عمل - عن المركز باعتباره عصب صناعة الألماس في إسرائيل التي تُعد مركزًا عالميًّا رائدًا لصناعة الألماس وتجارته من حيث الإنتاج والتسويق، مشيرًا إلى أن تجارة الألماس تُدر جزءًا مهمًّا من دخل إسرائيل التي كانت تحقق ثاني أكبر دخل من قيمة الصادرات الإسرائيلية - بعد تجارة السلاح - وهو ما يزيد على خمسمائة مليون دولار طبقًا لإحصائيات عام 1980.

وعرض مدير المركز على الوزير المصري إقامة مركز صغير لصناعة الألماس في مصر، مؤكدًا استعدادهم لتدريب كوادر من العمال المصريين ليصبحوا عمالًا مهرة في مجال صقل الألماس والأحجار الكريمة، وقدم شرحًا للوزير حول خدمة هذا المركز للدول العربية، خاصة البترولية، في ضوء القدرة الشرائية لمواطنيها ودخولهم المرتفعة بما سيدرُ على مصر أرباحًا نتيجة شراء العرب للألماس والأحجار الكريمة من مصر بدلًا من شرائها من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بأضعاف ثمنها نظرًا لارتفاع أجر العمالة المدربة في أوروبا وأمريكا مقارنة بنظيرتها التي تُنتَج في مصر، مضيفًا أن إسرائيل ستستفيد أيضًا من تسويق وتصدير هذه الأحجار، وبذلك ستكون مصر

قناة تسويقية ومنفذًا للأسواق العربية والمواطنين العرب المعروف عنهم حبهم لاقتناء الألماس والأحجار الكريمة، وبذلك ستعم الفائدة الاقتصادية على الطرفين.

واصطحب مدير المركز الوزير المصري والوفد المرافق له في جولة داخل المركز، وأطلعنا على أحدث إجراءات الأمن الإلكترونية التي تضمنت تقنيات لم نكن نسمع بها في ذلك الوقت، وفحص الوزير الأنواع والأحجام المختلفة من الألماس، وردًا على سؤال للوزير جمال الناظر، قال مدير المركز إن إسرائيل قدمت خبرتها الفنية للهند التي أنشأت مركزًا صغيرًا لصقل وبيع الألماس والأحجار الكريمة، موضحًا أن إسرائيل تستورد الألماس الخام من جنوب أفريقيا.

*اكتشاف أجهزة تنصت في شقتي :

في الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر وصلت رسالة تفيد بوصول وفد من إدارة الرمز بالخارجية المصرية بعد يومين، وقمت بعرضها على السفير سعد مرتضى، وفي موعد وصول الوفد كنت - مع زميلي سكرتير أول السفارة د. فاروق مبروك - في استقبالهم، وكان الوفد مكونًا من أربعة أفراد، وكانوا جادين بشكلٍ صارمٍ منذ لحظة وصولهم، ولم يتحدثوا في أي شيء داخل السيارة وحتى وصولنا إلى مبنى السفارة، وكان مع كل منهم حقيبة ملابس صغيرة، وحقيبة معدات كبيرة مدون عليها عبارة: «حقيبة دبلوماسية»، ولا شك أن الجانب الإسرائيلي

كان على دراية تامة بهذه المهمة بمجرد النظر إلى حقائبهم، وهذا ليس غريبًا؛ إذ إن الجانب الإسرائيلي نفسه يرسل وفودًا في مهمات مماثلة إلى القاهرة، وكانت مهمة الوفد المصري هي عمل مسح شامل لداري السكن والمكاتب، وهو مسح فني وإلكتروني بأجهزة تعمل على اكتشاف أجهزة التنصت والعمل على نزع أو إبطال مفعولها، خاصة في مكتب السفير أو الوزير المفوض، فضلًا عن بقية المكاتب، مع التركيز على غرفتَي الأمن والرمز، وهو مكتبي، حيث كنت أتولى مهام الأمن والرمز بصفة أساسية، في حين كان زميلان لي يتوليان المهام نفسها بصفة احتياطية، ولذلك فقد رافقتهم في عملهم، وتحدثت معهم عن ظروف إقامتي في الفندق مدة قاربت على ثلاثة أشهر، ثم انتقالي إلى شقتي الجديدة وشكوكي حولها، ودعوتهم على الغداء عندي لإلقاء نظرة على الشقة، وتحمسوا لذلك، وحضروا فرادى لعدم إثارة الشك لدى الجيران، خاصة وأن كل واحد منهم أتى ومعه بعض الأجهزة المطلوبة لفحص الشقة، وبعد الغداء فتحوا التلفزيون وجهاز التسجيل بصوتٍ مرتفعٍ ليبدو الأمر وكأننا في حفلة؛ للتغطية على صوت الأجهزة الإلكترونية التي يعملون بها، واستمرت عملية المسح ومحاولات التحقق من كل مكان لمدة ثلاث ساعات، بعدها اتفقنا على اللقاء في أحد المقاهي بوسط البلد، وأكدوا لي وجود عدة أجهزة للتنصت، وسلموني ورقة صغيرة كانت عبارة عن رسم كروكي لشقتي حددوا فيها مواقع على الجدران توضح أماكن أجهزة التنصت، وكان أحد المواقع في غرفة الاستقبال خلف الأريكة التي أجلس عليها بصفة مستمرة، كما أشار الرسم إلى جهاز ظاهر داخل الأباجورة بجانب الأريكة واثنين

آخرين في نجفتي الاستقبال والطعام، وأوضحوا أن أجهزة التنصت داخل الحوائط غير مرئية، وتم وضعها بطريقة حرفية عند بناء الحائط، أما أجهزة النجف والأباجورة والتليفون فكان يمكن لهم نزعها لكنهم آثروا عدم القيام بذلك؛ لأن نزعها أو تعطيلها سيثير شكوك الذين قاموا بوضعها، وقالوا لي بجدية: «عليك أن تأخذ حذرك في الحديث وأنت بالقرب من هذه الأماكن، وكذلك عندما تكون في سيارتك، أو خلال حديثك في هاتف مكتبك أو منزلك؛ لأنها ستكون مراقبة بلا شك، ويجب أن تكون على علم ودراية بما تقدم، وأن تتحدث بحذر مع زملائك ومعارفك وصديقاتك وكأن هناك شخصًا ثالثًا غير مرئي من الجانب الإسرائيلي يتربص بك»، وقد كنت أستشعر بالفعل تواجد هذا الشخص الثالث طوال فترة خدمتي في تل أبيب، وقد استمر معي هذا الشعور في كل الأماكن التي عملت بها، حتى وأنا سفير ورئيس عدة بعثات مختلفة، ولا شك أن تواجدي وعملي بسفارتنا في تل أبيب زاد من إدراكي لهذه المسائل، وطور من الحس الأمني لديَّ طوال حياتي.

*محاولات إسرائيل لتجنيد رونـــا :

ذهبت إلى رونا وصعدنا إلى «روف» شقتها، وقالت لي إنها تنوي عمل حفلاتها خلال الصيف في هذا المكان، وكانت قد وضعت أريكة وكرسيين وطاولة، وهمست في أذني بأن احتمالات التنصت قليلة في شقتها، ولكن يصعب زرع أي أجهزة تنصت في الروف، وكانت تريد أن تتحدث بحريتها معي.

لاحظت أن رونا قلقة، فسألتها عن الذي يقلقها، فقالت:

- لقد ذكرت لك مرة أن الجانب الإسرائيلي حاول تجنيدي في أثناء تعلُّمي اللغة العبرية في مستوطنة «معيان زيفي»، حيث بدأ عدد من شباب المستوطنين في التودد إليَّ، وحاول بعضهم إقامة علاقة معي، ولكنني رفضت ذلك، وبعدها بدأ بعضهم في محاولة إقناعي باعتناق الديانة اليهودية، وعندما طرحت العديد من الأسئلة والتساؤلات فوجئت بحضور «راباي» معبد المستوطنة للحديث معي عن مزايا وفوائد وعقائد الديانة اليهودية، وفي البداية كنت متشوقة لمعرفة الكثير من المعلومات بشأن طقوس الديانة وتاريخ الشعب اليهودي، وكانت لديَّ رغبة واضحة في تعلُّم وفهم المزيد عن اليهودية، ولكن رغبتي لم تكن بهدف اعتناقها، وأثارت تساؤلاتي ومناقشاتي سوء فهم لدى العاملين في المستوطنة، خاصة رجال الدين الذين أبدوا رغبتهم وألحوا في أن أتعلم مبادئ وتعاليم هذه الديانة..

لم أكن أدري ماذا تريد أن تقول بالضبط؛ لذلك لم أقاطعها، فواصلت قائلة:

- لقد استشعرت محاولات حثيثة لإقناعي باعتناق اليهودية، وشعرت بغضبهم عندما أوضحت عدم نيتي في فعل ذلك، ثم فوجئت بأحد رجال الدين يذكرني بقصة السيد عوديد إيران الدبلوماسي

البريطاني اليهودي الذي عمل في السفارة البريطانية، وكيف عاد إلى إسرائيل، وأنني في حالة اعتناقي الديانة اليهودية سيحتفظون بذلك سرًّا، موضحين أنني قد أحتاج إلى دراسة في شئون الدين اليهودي ربما تستغرق عامين قبل اجتياز الاختبارات المطلوبة، وأن ذلك يمكن أن يتم خلال فترة عملي بإسرائيل التي من المنتظر أن تكون من ثلاث إلى أربع سنوات، وأن الجانب الإسرائيلي سيدعم عودتي مرة أخرى إلى إسرائيل على غرار ما تم مع الدبلوماسي عوديد إيران..

كان الذهول قد بدأ يسري في نفسي وأنا أسمعها لكنني لم أظهره على ملامحي، وبدوت مصغيًا باهتمام لما تقول، فواصلت بجدية قائلة إنها في أثناء تواجدها، كانت تقضي الكثير من الأوقات مع شباب المستوطنة، وفي الاحتفال بإحدى المناسبات فوجئت باقتراب شخص وسيم منها، قدَّم نفسه لها، وكانت هي تعرف اسمه باعتباره أحد أعلام الكنيست وعضو مؤثر فيه، فجذبتها إليه شخصيته وثقافته وعلمه ونفوذه، وفي ضوء شعورها بالوحدة في المستوطنة نشأت بينهما علاقة كان دافعها الانجذاب الجنسي، ولكن بعد عدة لقاءات - كانت معظمها تتم في الكيبوتس - بدأت تلاحظ أسلوبًا ومدخلًا غير سوي، سواء في أسئلته عن مهامها في السفارة، أو عرضه عليها الحماية وبسط النفوذ وفتح الأبوب المغلقة أمامها في المجتمع الإسرائيلي ومؤسساته وحكومته، وعندما لم يجد استجابة تذكر منها، وبدأت تتهرب منه، أظهر الوجه الحقيقي للمسئول الإسرائيلي، حيث حاول ابتزازها بتهديدها بفضح علاقتهما الأمر الذي سيؤثر على عملها ومستقبلها،

وعندئذ قررت هي القيام بالخطوة الأولى، فذهبت في عطلة نهاية الأسبوع إلى تل أبيب، ونزلت ضيفة على زميلها د. هاريس - سكرتير أول السفارة - وزوجته، وفاتحته منفردًا بما حدث، وأبلغته بقرارها بقطع علاقتها العابرة بهذا المسئول الإسرائيلي، فنصحها بعدم التمادي في هذه العلاقة، موضحًا أنه سيعرض الأمر كما هو على «Pikc» وزير مفوض السفارة للتأكيد على ما تقدم.

صمتت للحظة، ثم نظرت إليَّ قائلة: «إن د. هاريس بعد لقائه معك قبل أن يغادر عمله، نصحني بإقامة علاقة عمل معك قائلًا: لقد عمل الأنصاري في لندن، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، وهو ذكي ولماح ومطلع على كثير من الأمور»، واستطردت قائلة إنه شجعها على إقامة علاقة حِرفية معي باعتبارها مفيدة وفي صالح العمل للسفارة البريطانية، وطلب منها مواصلة الاتصال بي في ضوء مشاركتي في المفاوضات المستمرة بين مصر وإسرائيل في شق التطبيع وبمشاركة الولايات المتحدة في شق مفاوضات الحكم الذاتي، وأكد لها أنه التقى دانيال كيرتز سكرتير أول السفارة الأمريكية في القاهرة، والذي يتولى المتابعة والمشاركة في محادثات الحكم الذاتي، وأنه أثنى على شخصي، وسرد له نوعًا من التعاون الحِرفي الذي تم بيننا في المفاوضات سواء في مصر أو في إسرائيل.

وأكدت رونا أن د. هاريس أوضح لها أنه من المرغوب فيه أن تتولى مواصلة الاتصال بي خلفًا له، وأن لها مطلق الحرية في إجراء

هذه الاتصالات بالطريقة التي تراها مناسبة، وبموافقة كاملة من جانب السفير ووزير مفوض السفارة، واللذين يريان أن هذه الاتصالات تسير في قنواتها الطبيعية، حيث كانت رونا تقدم لهما محاضر لقاءاتها معي، وقد كنت أختصها بعمل ملخص للمحادثات الدائرة بين مصر وإسرائيل.

بعد ذلك نظرت رونا إليَّ نظرة طويلة، قبل أن تقول: «كانت هذه بدايتي معك، ولكن الشق الآخر في هذه العلاقة لا يعلم به أحد وأعتبره شأنًا خاصًّا، وأعتزم الاستمرار في علاقتي معك بشقيها الحرفي والعاطفي».

كانت رونا تتحدث بصدق، ووجل؛ إذ أعربت لي عن مخاوفها من تفسير الشين بيت والموساد لعلاقتنا بأنها تجنيد من جانبي لها، وأنني نجحت فيما فشل فيه الجانب الإسرائيلي الذي رغب بشدة في تجنيدها.

*تعلُّم العبرية في «الأولبان»:

كنت أشعر بضرورة تعلُّمي اللغة العبرية، وقد شجعتني رونا على المضي قدمًا في ذلك، وكنت قد تحدثت معها بشأن إحباطي من عدم فهم ما يتحدث بشأنه الجانب الإسرائيلي في مشاوراتهم الجانبية في

أثناء جلسات لجان التطبيع والحكم الذاتي، في حين يوجد دائمًا في كل الوفود الإسرائيلية من يتحدث اللغة العربية بطلاقة، ويفهم ويدرك كل ما نتحدث بشأنه، وكنت أرى أن هذه نقطة تميز لدى وفود الجانب الإسرائيلي، ومن هنا كان قراري بتعلم اللغة العبرية، إضافة إلى فهم المجتمع الإسرائيلي بشكل أفضل، وقد سألت رونا عن كيفية تعلُّم اللغة العبرية، وكان ردها أن ذلك صعب جدًّا، وعددت لي سبب صعوبته، قائلة إن هناك ثلاث طرق لتعلم اللغة العبرية، الأولى من خلال دورة بجامعة تل أبيب، وقد يستغرق ذلك عدة سنوات، والثانية بالانضمام إلى إحدى المستوطنات - كما فعلت هي - وهذا غير وارد بالنسبة لي، والثالث من خلال الالتحاق بأحد معاهد «الأولبان»، وهذا لن يحدث لأن هذه المعاهد مخصصة للمهاجرين الجدد.

ولأن الأمر كان يشغلني، وكنت أتعامل معه بجدية، فقد تحدثت بشأنه في اليوم التالي مع السفير سعد مرتضى، فقال لي: «لماذا تحتاج إلى تعلم لغة ميتة؟ فأنت لن تستخدم هذه اللغة إلا في إسرائيل فقط؛ لذلك فالأمر لا يستحق أي معاناة، خاصة أنه يوجد في السفارة عدد من المترجمين، وفي المكتب الإعلامي أيضًا، وإذا ما احتاج أي عضو إلى ترجمة إحدى المقالات لأن عنوان المقالة يدخل في صميم اختصاصه فكل ما يحتاجه هو أن يطلب من المكتب الإعلامي ترجمة هذه المقالة كما يحدث الآن، فلا تهدر وقتك ومجهودك في هذا الاتجاه».

ورغم وجاهة وجهة نظر السفير، إلا أنني لم أقتنع، فتحدثت مع روبرت ياديد ورويت له ما تقدم، فاتصل بي في اليوم التالي وطلب مني الحضور لتناول الشاي معه ومع زوجته راحيل وإحدى قريباتها في فندق «ديبلومات»، وذهبت في الموعد المحدد، فقدَّم لي الضيفة باعتبارها مديرة لمعهد الأولبان الذي يقع على بعد مسافة كبيرة من السفارة ومن موقع سكني، مضيفًا أنه وراحيل تحدثا معها بشأني وأنها أبدت رغبتها في لقائي للتعارف ومناقشة الأمر معي، وبالفعل سردت عليها وجهة نظري واستعدادي للمشاركة في محاضرات اللغة فقط، ووافقت مديرة المعهد على استثنائي من القاعدة في ضوء تحمسي لتعلم اللغة العبرية، وتقديرها لهذه الرغبة، ونوهت إلى أن الدورة ستبدأ في اليوم التالي، ويمكنني الحضور يوميًّا لمدة ستة أيام أسبوعيًّا من الخامسة وحتى الثامنة مساءً لمدة شهرين، وهي مدة الدورة، وأنهت حديثها بأنها لا تود قبول أي أعضاء جدد من الدبلوماسيين، وبدأت بالفعل في حضور محاضرات اللغة العبرية يوميًّا، وكانت مدرستي هي السيدة داليا، البالغة من العمر 65 عامًا، وهي بولندية الأصل، وقد وجدت تشابهًا كبيرًا بين اللغتين العبرية والعربية، وبعد المحاضرة الأولى التقيت مدرستي وصارحتها بأنني ربما – في إطار ظروفي الخاصة بالعمل – لن أستطيع الحضور كل يوم، وفي بعض الأيام قد أضطر للحضور متأخرًا، وأن ذلك ليس تقليلًا من شأنها أو عدم تقدير لأهمية اللغة العبرية، وإنما نتيجة طبيعة عملي، ورجوتها أن تتقبل ذلك، ووافقت، وبعد أسبوع واحد فقط بدأت في التحدث بالعبرية، وشعرت

بسعادة بالغة وأنا أفهم ما يُقال في نشرات الأخبار، وبعض الأحاديث واللقاءات التلفزيونية، وبعد الدورة الثانية كنت أستطيع فهم ما يقرب من 70 % من الأحاديث الدارجة، وأتحدث بأسلوب متميز - بالنسبة لهم - نتيجة تحدثي بلهجة سليمة، وبالنطق الصحيح، ولم أكن أعلم أن تحدثي بالعبرية سيفتح لي أبوابًا مغلقة عديدة، ووجدت نفسي في داخل المجتمع الإسرائيلي بدون عوائق.

وقد استفدت كثيرًا من تعلمي اللغة العبرية في مفاوضاتنا مع الوفود الإسرائيلية، حيث كنت أفهم كثيرًا مما يدور من أحاديث جانبية بين أعضاء الوفد الإسرائيلي، وكنت أقوم بترجمة سريعة لما يتحدثون بشأنه، هامسًا في أذن رئيس الوفد المصري، وفي إحدى الجلسات، وبدون مقدمات، وجَّه أحد أعضاء الوفد الإسرائيلي حديثه إليَّ باللغة العبرية، وبصوت مرتفع - كأنه يحذر زملائه - قائلًا: «يا سيد رفعت، أنت تتحدث اللغة العبرية وربما بطلاقة، وأنا أرى ذلك على تعبيرات وجهك، فيبدو عليك الاندهاش والاستغراب في بعض الأحيان عندما نتحدث بما هو غير مقبول بالنسبة للوفد المصري، كما يبدو على وجهك أحيانًا علامات الارتياح والسرور عندما نتحدث عن بعض النقاط التي نحن على استعداد للموافقة عليها بما يتفق ومواقف الوفد المصري، ويمكنني القول إنك تفهم ما نقوله»، فابتسمت وقلت له بالعبرية إنني مبتدئ وأتلقى دروسًا في تعلم اللغة العبرية، ومنذ هذا اليوم بدأت الوفود الإسرائيلية تأخذ حذرها مني في أثناء الحديث

علانية أمامي باللغة العبرية خلال التفاوض، وبذلك شعرت أنني حققت الهدف الأول من تعلمي للعبرية، وبدأت أحقق هدفي الثاني من ناحية انفتاح المجتمع الإسرائيلي وطرقي للأبواب المغلقة؛ فقد كان مَن يراني أتحدث باللغة العبرية، ويرى ملامحي التي تشبه اليهود «الإشكناز»، يعتقد أنني من المهاجرين الأوروبيين الجدد.

6

اغتيال الرئيس السادات

*تكليفي بمهمة حامل حقيبة :

في العرف الدبلوماسي ينقسم البريد إلى خمسة مستويات: عادي، ومحظور، وسري، وسري جدًّا، وسري للغاية.

ويوجد نظامان للحقائب الدبلوماسية، الأول هو الحقائب غير المصحوبة، والتي يوضع بها البريد السياسي والإداري والمالي، وهذا يجب ألا تتعدى درجة سرِّيته مرتبة «سري»؛ لأن مصلحة الجمارك بالدولة المضيفة من حقها أن تتسلم هذه الحقائب من السفارة وأن تقوم بتسليمها إلى شركة الطيران التي ستتولى نقلها، ورغم قيام السفارات بغلق حقائبها ووضع الخاتم الشمعي والمعدني عليها، إلا أن الخبراء الأمنيين يرون أن هذا النوع من الحقائب ليس آمنًا تمامًا؛ إذ يمكن فتح الحقيبة والاطلاع على محتوياتها، ثم غلقها مرة أخرى ووضع أختام مماثلة ومطابقة لتلك التي كانت عليها.

ولهذا السبب تلجأ وزارات الخارجية إلى النظام الثاني – الأكثر أمانًا – وهو نظام الحقائب المصحوبة، والتي تحتوي على بريد سياسي وأمني بدرجة «سري جدًّا»، و«سري للغاية»، وهذا النظام يتطلب إرسال أحد الدبلوماسيين في مهمة «حامل حقيبة دبلوماسية» مرة كل شهر، وبالنسبة للخارجية المصرية كانت هذه المهمات مقسمة جغرافيًّا، فهناك حامل حقيبة لأمريكا الشمالية، وثانٍ لأمريكا الوسطى والجنوبية، وثالث للدول العربية، ورابع لخط أفريقيا، وخامس لخط غرب أوروبا، وسادس لخط شرق أوروبا والدول الأسكندنافية، وكانت هذه مهمة شاقة للغاية.

وفي مايو 1976 كُلِّفت بمهمة حامل حقيبة لخط شرق أوروبا، وكان على حملة الحقائب أن ينفذوا مهمتهم لعشرين عاصمة دولة خلال 18 ليلة، وأذكر أنني كنت أحمل في الحقيبة الدبلوماسية بريدًا سياسيًّا عبارة عن ملخص البرقيات الرمزية المشفرة، والذي كانت تعده إدارة المعلومات والتقديرات، وهو مهم وسري للغاية، كما كنت أحمل معي «شرائط رمز» إلكترونية تتضمن «مفاتيح الشفرة» للحل والتشفير، إضافة إلى بعض المهام الأخرى، وبدأت رحلتي من القاهرة إلى إسطنبول، وكان وزير الدولة محمد رياض على رأس وفد مصري يحضر المؤتمر الإسلامي في إسطنبول، وكان من المفترض أن أمضي الليلة الأولى في إسطنبول، ثم أتوجه في صباح اليوم التالي إلى صوفيا ببلغاريا، وأنهيت إجراءاتي الجمركية وخرجت فلم أجد أحدًا في انتظاري، وقفت ومعي الحقيبة الدبلوماسية وحقيبة ملابسي الخاصة، وبعد قليل اقترب مني شخص ذو ملامح مصرية، توقعت أن يكون هو سكرتير أمن أو رمز السفارة، وخاطبني بالإنجليزية قائلًا: «هل تنتظرني؟ ومن أين أنت؟»، فقلت له إنني قادم من مصر، وسألته إن كان من السفارة؟ فرد بلهجة مصرية قائلًا إنه موظف محلي - ولم يقل أين يعمل- وطلب أن يحمل حقائبي إلى السيارة، ثم يعود لاصطحابي، فقلت له إن الحقائب مسئوليتي، وقبل أن أكمل كلامي، فوجئت به ينظر بارتباك إلى اتجاه آخر، وبدت عليه علامات الفزع، ثم تركني وفر، وعندما نظرت إلى الاتجاه الذي كان ينظر إليه، رأيت شخصًا قادمًا بسرعة نحوي، وهو يعتذر عن التأخر بسبب المؤتمر الإسلامي، وطلبت منه بطاقة تحقيق الشخصية فأطلعني عليها، ثم سألني: «ماذا

كان يريد منك مندوب شركة العال الإسرائيلية؟»، وأذهلتني المفاجأة، وسردت له ما قاله، موضحًا أنني اعتقدت أنه موظف محلي بالسفارة المصرية، فقال زميلي: «إنه مندوب الموساد تحت غطاء العمل في شركة العال، ونحن نرصد تحركاته واتصالاته»، وحمدت الله لأنني لم أتصرف بثقة مع العميل الإسرائيلي.

والنظام يقضي - في مثل هذه الأحوال - بأن يستقبل سكرتير الرمز الأصلي، أو الاحتياطي، حامل الحقيبة، ليتجها سويًا إلى مبنى السفارة، حيث يتم فك الأختام واستلام البريد الخاص بسفارته، ثم تغلق الحقيبة بالأختام مرة أخرى وتحفظ في خزانة السفارة، بعد تسليم حامل الحقيبة إيصال استلام البريد وأرقامه، مع تقرير مبسط بأن حالة مظاريف البريد كانت جيدة وبأختامها، ثم يتوجه حامل الحقيبة لتحية السفير وأعضاء السفارة، وعادة ما يكون مدعوًّا على الغداء أو العشاء، مع عمل جولة سياحية قصيرة في عاصمة الدولة، وتكون السفارة قد حجزت له الفندق لليلة واحدة، ويكون حامل الحقيبة وحقيبته الدبلوماسية مسئولية سكرتير الرمز الأصلي، الذي يتولاه من لحظة وصوله إلى لحظة مغادرته، وكانت الوزارة تحجز مقعدين في الطائرة، أحدهما لحامل الحقيبة، والآخر للحقيبة نفسها!

وقد تعرضت لموقفٍ غريبٍ في أثناء رحلتي من موسكو إلى وارسو، حيث كانت تجلس سيدة جميلة على المقعد الموازي لمقعدي، وكانت تنظر إليَّ من وقت لآخر وتبتسم، ثم خاطبتني قائلة: «هذه بالطبع حقيبة دبلوماسية!»، فابتسمت ولم أرد، فأردفت قائلة: «لا بد أنها تحتوي

على الكثير من أسرار الدولة!»، فنظرت إليها وابتسامتي قد بدأت في الاختفاء، لكنها رغم ذلك استطردت مازحة، وهي تشير إليَّ بإصبعها: «هذا الخاتم الذي في إصبعي يبلغ ثمنه خمسين ألف دولار، ما رأيك لو تبادلناه مع حقيبتك لأُرضي فضولي؟»، وهنا رمقتها بنظرة فاحصة، وقلت لها بحزم: «أنصحكِ بأن تلزمي حالك حتى لا أتقدم بشكوى ضدك إلى كابتن الطائرة!»، وعلى الفور حضرت المضيفة وطلبت من هذه السيدة الانتقال إلى مقعد خلفي وعدم مضايقتي، وظللت أفكر فيما حدث، ولم أعرف هل هي سيدة مدفوعة باتجاهي، أم أن لديها فضول النساء فقط؟ ولم أجد إجابة على تساؤلي حتى الآن، خاصة أنني قررت أن أشير إليها عند خروجنا من الطائرة لزميلي الذي كان بانتظاري تحت سلم الطائرة، ولكن الغريب أنها اختفت تمامًا، ولم أستطع العثور عليها، لا في الطائرة، ولا في داخل المطار، ورغم أن هذا الموقف شغلني كثيرًا، إلا أنني كنت سعيدًا بانتهاء مهمتي كحامل حقيبة.

*عودتي إلى القاهرة واغتيال السادات:

كان من المفترض أن أقوم برحلة حامل حقيبة إلى القاهرة يوم 3 أكتوبر، ورحبت بذلك وقررت عدم الاتصال بعائلتي لتكون مفاجأة لهم.

وكانت سفارتنا في إسرائيل قد قررت أن تكون كل الحقائب مصحوبة، بغض النظر عن درجة سرية المكاتبات، بحيث يأخذ الحقيبة الصادرة أحد أعضاء السفارة، سواء من الدبلوماسيين أو رئيس الطاقم

الإداري، ويتوجه بسيارته - ومعه أحد حراس الأمن - حتى الحدود الإسرائيلية، وهناك يلتقي زميلًا آخر قادمًا من مصر بحقيبة واردة من الوزارة، فيذهب القادم من تل أبيب إلى الوزارة مباشرة سالكًا طريق العريش القاهرة، ويقوم بتسليم الحقيبة، ويُمضي أسبوعًا في هذه الرحلة، نصفه إجازة للاطمئنان على ذويه، ونصفه الآخر يقوم خلاله بإنهاء المهمات والإجراءات الخاصة بالسفارة لدى الوزارة، وفي يوم السفر يمر على إدارة الأمن في الوزارة ليأخذ حقيبة دبلوماسية مقفلة ومختومة؛ ليبدأ رحلة العودة من القاهرة إلى تل أبيب، قاطعًا مسافة تصل إلى 570 كيلو مترًا، تستغرق حوالي سبع ساعات، وعندما يصل إلى الحدود يجد زميلًا آخر في طريقه من السفارة بحقيبة جديدة باتجاه وزارة الخارجية بالقاهرة، وهكذا، وقد اقتبست إسرائيل النظام نفسه، وأصبحت تسهيلات رحلة حامل الحقيبة المصحوبة على الجانبين تتم في إطار المعاملة بالمثل.

وفي حقيقة الأمر، كانت هذه المهمة بمثابة متنفس للأعضاء، حيث كان كل عضو يصيبه الدور مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر؛ للتخفيف من ضغوط العمل المكثف، والتوتر السائد على مدار اليوم، كما كانت تعتبر إجازة مدفوعة الأجر، تُمكّن العضو من رؤية عائلته بالقاهرة.

وقد هيأت نفسي للقيام بالمهمة، وأمضيت عطلة نهاية الأسبوع - قبل موعد رحلتي إلى القاهرة - مع رونا، وجلسنا بأحد المقاهي لتناول مشروب، وفجأة شعرت بجسم غريب طائر يدخل عيني اليسرى، وبعد فترة قصيرة بدأت أعاني من حساسية شديدة، وبدأت

الدموع تنهمر من هذه العين التي تورَّمت وأصبحت شديدة الاحمرار، فأصرت رونا على اصطحابي إلى أحد المستشفيات المتخصصة في طب العيون، حيث ساءت الحالة بمرور الوقت لدرجة أن عيني كانت مغلقة تقريبًا، وبعد الكشف على عيني، قال الطبيب إن جسمًا غريبًا - ربما حشرة - قد دخل عيني وخدش القرنية، الأمر الذي يستلزم وضع ضمادة على العين، واستخدام قطرات ومراهم كل ساعتين، وبالتالي يجب حجزي في المستشفى لمدة يومين، ورفضت البقاء مع إقراري ووعدي لهم بالمرور كل ساعتين، وكنت أذهب بالفعل لتغيير الضمادات ووضع القطرات والمراهم، وكانت رونا تقلني بسيارتها في كل مرة لعدم قدرتي على القيادة.

وطلبت من السفير إعفائي من المهمة وتكليف زميل آخر، واستأذنته في التوجه إلى القاهرة في إجازة مرضية لمدة أسبوع للكشف على عيني وتشخيص ما أصابها وعلاجها في مصر بمعرفة طبيب عيون العائلة، خاصة أنني لم أشعر بتحسن من العلاج المقدم إليَّ من مستشفى العيون في تل أبيب، وقد وافق السفير على طلبي، واضطررت للسفر إلى القاهرة يوم 5 أكتوبر، واستقبلني بعض الزملاء في مطار القاهرة، وانزعجوا من رؤية عيني المغلقة بالضمادات، واصطحبني أحدهم إلى منزلي، وتوجهت في المساء إلى طبيب العيون الذي بدأ معي علاجًا مختلفًا، ووضع لي ضمادة أيضًا على عيني لشدة حساسيتها للضوء.

وفي اليوم التالي كنت مدعوًّا على الغداء عند أحد أقاربي، وفي أثناء حديثنا كنا نشاهد العرض العسكري يوم 6 أكتوبر 1981، وفجأة

سمعنا صوت إطلاق رصاص، ثم انقطع البث المباشر للتلفزيون، وكانت دهشتي كبيرة لأن التلفزيون لم يبث صورة الرئيس السادات والقادة العسكريين والسياسيين المصاحبين له في المقصورة، وانقبض قلبي مما حدث، خاصة عندما بدأ التلفزيون في بث مضطرب لبعض الأغاني الوطنية، ثم آياتٍ من القرآن الكريم.

وفي الساعة الثالثة والنصف عصرًا، اتصلت بمكتب المستشار المناوب في وزارة الخارجية لأسأل عن آخر الأخبار، وعلمت أن الرئيس السادات قد اُغتيل، وأن النائب حسني مبارك إصابته طفيفة، وأن نائب رئيس الوزراء كمال حسن قد أصيب أيضًا، وتم إبلاغي بإلغاء الإجازات الاعتيادية والمرضية، وبالتالي أصبح عليَّ التوجه فورًا إلى إدارة العمليات - والتي تم تشكيلها على عجل - بوزارة الخارجية لأتولى إحدى المهام التي سيتم توزيعها على الزملاء الدبلوماسيين، وذهبت إلى مبنى وزارة الخارجية بالجيزة، وهناك التقيت رئيسي السابق السفير عصمت رضا، الذي رحب بي وأبلغني بانضمامي معه في أي مهام.

*تكليفي بمرافقة الوفد الإسرائيلي:

صباح اليوم التالي، أبلغني السفير عصمت رضا بأنني مكلف بمرافقة الوفد الإسرائيلي الذي سيصل ظهرًا إلى القاهرة لحضور الجنازة، وبدأت في تناول مهمة الاتصال والتنسيق مع المراسم لتأمين حجز فندق سونيستا للوفد الإسرائيلي الذي سيصل برئاسة مناحم

بيجين، وعضوية شارون وزير الدفاع، وشامير وزير الخارجية، وبورج وزير العدل، وديفيد كيمخي سكرتير عام وزارة الخارجية، وعدد من المسئولين في الحكومة الإسرائيلية، إضافة إلى وفد أمني كبير مكون من أربعين ضابطًا وفرد أمن مسلحين.

وقد تلقينا رسالة من السفير سعد مرتضى تفيد بأن الوفد الإسرائيلي سيصل على متن طائرة «جامبو جيت» خاصة، ومؤجرة من شركة العال، وأن الطائرة تحمل العديد من معدات الاتصال والأسلحة، كما تحمل سيارة «كاديلاك» مصفحة ومضادة للرصاص، وسيارة إسعاف خاصة، بالإضافة إلى كل الوجبات الغذائية الحلال «الكوشير» التي تم إعدادها طبقًا للديانة اليهودية، وأن رئيس الوزراء الإسرائيلي - الذي كان قد سقط في الحمام وكُسر حوضه ويتماثل للشفاء - سيصل في تمام الثانية والنصف ظهرًا، ويرغب في لقاء النائب حسني مبارك في الثالثة، كما يرغب في تقديم واجب العزاء للسيدة جيهان، حرم الرئيس السادات في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، ثم العودة إلى مقر إقامته قبل الخامسة مساءً استعدادًا لبدء يوم العطلة الدينية - السبت - بعد غروب شمس يوم الجمعة، كما أنه يود أن يكون مقر إقامته ووزرائه في موقع قريب من تشييع الجنازة لأنه يرفض أن يستقل سيارته في العطلة الدينية، وسيتوجه سيرًا على الأقدام للمشاركة في ذلك!

وأُسقط في يد جميع المسئولين في الخارجية والرئاسة، حيث لا يوجد أي فندق لائق في أي موقع بالقرب من مكان تشييع الجنازة وتلقي العزاء من جانب أسرة المرحوم السادات وبقية المسئولين،

واستقر الأمر على إعداد استراحة «المقاولون العرب» القريبة من موقع تشييع الجنازة بسرعة لاستقبال رئيس الوزراء الإسرائيلي وحراسته الخاصة والوزراء المرافقين له فقط، على أن يقيم بقية أفراد الوفد في فندق سونيستا، وقد ذهبت إلى الفندق لترتيب نزول الوفد الإسرائيلي فيه، والتنسيق مع القيادات الأمنية التي تم تخصيصها لحراسة الوفد الإسرائيلي، والتقيت السفير عصمت رضا في استراحة كبار الزوار بالمطار، الذي كان مزدحمًا لوصول الملوك والرؤساء العرب، ورؤساء الوزراء والوزراء والمبعوثين الأجانب، وأخبرني السفير عصمت رضا بأنه عاين استراحة «المقاولون العرب» ووجدها سيئة للغاية، وأنه أبلغ السفير الإسرائيلي موشي ساسون بذلك، مقترحًا تغييرها بفندق يبعد قليلًا عن موقع تشييع الجنازة، التي ستبدأ في العاشرة من صباح السبت 10 أكتوبر، إلا أن السفير الإسرائيلي - وبعد اتصاله بمكتب رئيس الوزراء - رفض ذلك.

وصحبت السفير عصمت رضا لاستقبال الوفد الإسرائيلي، حيث قدَّم بيجين ووزراؤه تعازيهم للسفير، وتوجهنا من المطار إلى فندق سونيستا، بينما أصر مناحم بيجين على التوجه فورًا لإنهاء مهمة اللقائين قبل غروب شمس يوم الجمعة، واستقل السيارة المصفحة التي أحضرها معه، وكان بصحبته السفير عصمت رضا، في حين استقل شارون وشامير سيارة ثانية، ووزير العدل بورج وأنا السيارة الثالثة، وتوجه الموكب إلى منزل الرئيس السادات في الجيزة، وتقدم بيجين إلى السيدة جيهان السادات - التي كانت جالسة - وقبَّل جبينها ورأسها مقدمًا خالص عزائه، في حين صافحها الوزراء الثلاثة معربين

عن خالص عزائهم أيضًا، وأعرب بيجين، ودمعة على خده، وبصوته الحزين والمتأثر، عن أن مقتل السادات خسارة فادحة، ليس لمصر فقط بل للعرب جميعًا - الذين لم يمنحوه حقه وقدره - وللسلام في المنطقة ولإسرائيل بوجهٍ خاص.

كان واضحًا أن المناسبة لا تتيح المزيد من الأحاديث المتبادلة، وصافح بيجين السيدة جيهان معربًا عن خالص عزائه، وحثها على الصبر والشجاعة، مؤكدًا أنها لا زالت لديها رسالة تؤديها.

بعد ذلك توجهنا إلى قصر الرئاسة، وكانت الإجراءات الأمنية المشددة واضحة، وكذلك التوتر السائد بين الأجهزة الأمنية المعنية، وبمجرد دخول سيارة بيجين وبصحبته السفير عصمت رضا، أغلق الأمن بوابة الدخول إلى القصر الرئاسي، ومنع سيارات الوزراء - وكنت معهم - من الدخول، وقد ذكر لي السفير عصمت لاحقًا أن بيجين كان منزعجًا بشدة، وأنه أصر على عدم مغادرة سيارته حتى يسمح الأمن بدخول بقية سيارات الوفد، وانضمام شارون وشامير وبورج له، وهو ما حدث بعد إجراء اتصالات ما بين سكرتارية الرئاسة والأمن على مدخل القصر الجمهوري.

وفي الصالون الرئيسي، توجَّه بيجين لمصافحة نائب الرئيس حسني مبارك، وسمعته يقول له: «لقد حضرت وبصحبتي نخبة من وزرائي لتقديم واجب العزاء»، وصافح السيد مبارك بقية أعضاء الوفد، وبعد أن جلس الجميع، بدأ بيجين بالحديث عن بشاعة الحادث، مؤكدًا

أن السادات كان رجلًا شريفًا يعتد به وبكلمته، وأنه نفَّذ وعوده والتزم بكل ما تم الاتفاق عليه، معربًا عن رجائه في استمرار هذا الوضع، ورد النائب حسني مبارك مؤكدًا على التزام مصر بكل اتفاقياتها وارتباطاتها، مشيرًا إلى أن إتمام إجراءات الانسحاب من بقية سيناء في موعده سيكون حافزًا لمقابلة ذلك من جانب مصر بتحقيق التزاماتها كافة، قائلًا إنه كان نائبًا للرئيس وشريكًا له في عملية السلام مع إسرائيل، ووعد بتحقيق المزيد من إجراءات التطبيع، وفي الوقت نفسه طالب بيجين والحكومة الإسرائيلية بتقديم عروض للفلسطينيين يمكن قبولها في محادثات الحكم الذاتي.

كان واضحًا أن بيجين يريد أن يستمع إلى التزام النائب مبارك بما بدأه الرئيس السادات وأمام وزرائه حتى يكونوا شهودًا على ما تم الحديث بشأنه، وليُخلي مسئوليته أمام وزرائه والحكومة والشعب الإسرائيلي، وقد فهم النائب مبارك مغزى اللقاء وطمأن الجانب الإسرائيلي تمامًا على التزام مصر بالمضي قُدمًا في تحقيق بنود اتفاق السلام مع إسرائيل، والتعهد بأن حرب 1973 هي آخر الحروب بين مصر وإسرائيل، وشعرت بأن بيجين - على وجه الخصوص - ووزراءه قد تنفسوا الصعداء وشعروا براحة نفسية واطمئنان في نهاية اللقاء.

غادرنا قصر الرئاسة متوجهين إلى استراحة «المقاولون العرب» التي سيقيم فيها بيجين ووزراؤه، وبمجرد دخولي معهم وجدتها سيئة للغاية بالفعل، ومتدنية المستوى، ولا تصلح للإقامة، وقدَّم السفير عصمت رضا اعتذاره مشيرًا إلى عدم مناسبة المكان للإقامة، ولكن

بيجين أشار إلى أنها ليلة واحدة فقط، وأنه يفضل عدم مخالفة تعاليم دينه على راحته، كما نوه إلى عدم حاجتهم إلى أي وجبات؛ لأنهم أحضروا معهم طعامهم الذي يكفي كل أعضاء الوفد خلال فترة إقامتهم، واستأذنت السفير في الانصراف للذهاب إلى فندق سونيستا للاطمئنان على بقية الوفد - حيث خُصصت غرفة لي هناك - وكان الوضع الأمني المتأزم والمتوتر سببًا في فرض حظر تجول في القاهرة لمدة ليلتين، حيث قامت أجهزة الأمن المختلفة بالتحكم في منافذ الدخول والخروج من وإلى القاهرة، كما كانت تقوم بتمشيط العديد من الأحياء وتفتيش عدد من المنازل المشتبه في إيوائها للعناصر الإسلامية المتشددة، وكان البحث على أشده للعثور على المقدم الإسلامبولي وأعضاء الخلية التي قامت بعلمية الاغتيال؛ لذلك كانت الشوارع خالية من المارة، وكانت السيارات السائرة في الطريق قليلة العدد، مع انتشار عدد كبير من نقاط التفتيش، الأمر الذي جعلني أستغرق قرابة الساعة بالسيارة الرسمية المخصصة لي حتى وصولي إلى الفندق، رغم أن المسافة لا تستغرق في الظروف العادية أكثر من خمس عشرة دقيقة.

وفي الفندق، اتصلت بكل من ديفيد كيمخي، والجنرال إبراشا تامير في غرفتيهما، وأخبراني بأنهما يتابعان نشرات الأخبار المحلية والعالمية، وأنهما سيخلدان للنوم مبكرًا، وبعد ذلك التقيت عددًا من القيادات الأمنية، وتم تلقيني بخطة التحرك وخط السير، وعلمت أن الوفد سيتحرك في الثامنة صباحًا باستخدام حافلتين سياحيتين مجهزتين، تسير أمامهما سيارات الشرطة المصرية لفتح الطرق والمرور

بسلاسة من نقاط التفتيش الأمنية، وكان الأمن المصري حريصًا على عدم وضع أي علامات أو لافتات تدل على أن أيٍّ من الحافلتين تضم الوفد الإسرائيلي، وتم رسم خط السير المؤمَّن من مقر الفندق إلى موقع استراحة «المقاولون العرب»، وتوجهنا صباحًا طبقًا لخط السير المتفق عليه، حتى وصلنا إلى مقر إقامة بيجين والوزراء المرافقين له.

صافحت الوزراء الثلاثة، وألقيت على بيجين تحية الصباح، فدعاني إلى الجلوس بالقرب منه، وكان يقرأ باهتمام إحدى الصحف التي تحمل عنوانًا كبيرًا يقول: «تصديق الكونجرس على صفقة الإيواكس للسعودية»، وسألته عن رأيه في ذلك، فقال بغضب: «لقد بذلت إسرائيل وأصدقاؤها والجاليات اليهودية في أمريكا جهودًا شاقة ومريرة لمنع هذه الصفقة، وفشلنا جميعًا، وليس لهذه الصفقة أي مبررات غير أنها تستهدف إسرائيل والتجسس عليها»، وأضاف قائلًا: «لم أنزعج ولم تنزعج حكومتي بسبب الانقطاع المؤقت في تسليم عدد من الطائرات المقاتلة الأمريكية لإسرائيل، ولكننا بلا شك، أنا ومعي كل المنظمات اليهودية بأمريكا، سنكون صاحبي الغضب حيال صفقة الإيواكس للسعودية، وسنبذل كل الجهد والاتصالات المطلوبة لمنع تسليم هذه الطائرات للسعودية!».

كان يتحدث بغضب وانفعال شديدين، فحاولت تغيير موضوع الحديث، وسألته عن حادث وقوعه في حمام منزله، فبدأ يقص عليَّ قصة سقوطه، وكيف أُصيب بكسرٍ في عظمة الحوض، مرورًا بالعملية الجراحية التي أجراها، وتم خلالها زرع شرائح معدنية ومسامير بلاتينية

حتى يستطيع السير، مشيرًا إلى أنه يعاني من السير على قدميه إلا أنه مُصِر على التمسك بتعاليم الدين اليهودي، وقال إن السيارة المصفحة ستسير بجانبه في حالة شعوره بالتعب، ثم انتقل إلى الحديث عن قصة السيارة «الكاديلاك» المصفحة، والتي تم إحضارها إلى إسرائيل ليستخدمها كيسنجر في أثناء زياراته المكوكية بين مصر وإسرائيل في عام 1974، وعقب ذلك تم تقديمها كهدية لرئيس وزراء إسرائيل لاستخدامها عند الاحتياج.

وعندما أحضر له حارسه الخاص وجبة إفطار خفيفة، بدأ حديثًا عن الوجبات الحلال «الكوشير»، وأنه آثر إحضارها معه للوفد الإسرائيلي، رغم أنه على يقين من أن الوجبات الحلال التي يتم إعدادها في مصر تتواءم أيضًا مع تعاليم الدين اليهودي من ناحية الذبح، ولكنه غير متأكد بشأن خلط الأواني التي يتم إعداد الطعام بها بين منتجات اللبن ومشتقاته، ومنتجات اللحم.

وفي هذه الأثناء، حضر عقيد شرطة وهمس في أذني لبدء التحرك للانضمام إلى موكب تشييع الجثمان، وعندما أخبرت بيجين بذلك، فوجئت به يخاطبني بصوتٍ عالٍ قائلًا: «أيها الشاب، تعالَ لأتكئ عليك لتساعدني على السير حتى موقع تشييع الجنازة!»، وكانت مفاجأة غير متوقعة، ولم أستطع إلا الاستجابة لمطلبه مُرحبًا بإمكانية تقديمي هذه المساعدة له.

وبدأنا السير حتى خرجنا من الاستراحة، وفوجئت بوجود المئات من الصحفيين والمصورين خلف سياج أمني، وبدأوا جميعًا في النداء عليه ومناشدته للرد على أسئلتهم، ووجهني بيجين نحوهم، وانزعج أفراد الأمن والحراسة الخاصة من الطرفين المصري والإسرائيلي من هذه الخطوة المفاجئة، وبدأ الصحفيون في توجيه أسئلتهم الكثيرة، لكنه لم يرد إلا على ثلاثة أسئلة فقط، ثم واصلنا طريقنا، فأشار لنا ضابط من مراسم رئاسة الجمهورية للسير باتجاه اليمين، حيث المكان المخصص للوفد الإسرائيلي، وكان قد تم إقامة خيام كبيرة خصصت كل منها لثلاثة وفود، وكان بيجين خلال سيرنا يتألم ولكنه يتحامل على نفسه، حتى وصلنا إلى الخيمة المخصصة للوفد الإسرائيلي، وكانت تضم معه أيضًا وفدا أمريكا وبريطانيا، حيث ترأس الوفد الأمريكي جورج بوش الأب - وكان نائبًا للرئيس ريجان وقتها - وضم الوفد الرؤساء السابقين: نيكسون، وفورد، وكارتر، بالإضافة إلى أليكسندر هيج وزير الخارجية، وهنري كيسنجر وزير الخارجية السابق، أما الوفد البريطاني فكان برئاسة ولي العهد الأمير تشارلز، وبصحبته نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية وقتها.

*مغامرة شارون في الحسين بعد الجنازة :

بدأت مراسم تشييع الجثمان، وسارت الوفود في الجنازة، وأقام أفراد أمن الوفود الثلاثة طوقًا محكمًا لحماية أعضاء الوفود: الأمريكي، والبريطاني، والإسرائيلي، على الرغم من الازدحام الشديد وعدم قدرة

الأمن - في مثل هذه الظروف الأمنية المتوترة - على الحفاظ على وتيرة وإيقاع السير، ولاحظت تدافع بعض الوفود، حتى إن المستشار الألماني كان يكاد يعجز عن السير في هذا الازدحام الشديد، وعلى الرغم من الترتيبات الأمنية المصرية، إلا أن القائمين على أمن هذه الوفود الثلاثة كانوا يؤدون دورًا متميزًا للغاية، حيث أقاموا سياجًا عازلًا يحمي أعضاء الوفود الثلاثة من معاناة الازدحام الشديد.

وكان أمن الرئاسة قد أبلغني - قبل السير في الجنازة - بأن عائلة المرحوم السادات، والنائب حسني مبارك، سيتقبلون العزاء في نهاية مراسم تشييع الجثمان، وأكدوا أن رؤساء الوفود والوزراء هم فقط الذين سيُسمح لهم بالدخول لتقديم واجب العزاء.

وعندما وصل الوفد الإسرائيلي إلى مقر تقديم العزاء، وقفت مع ضابط مراسم الرئاسة لأشير إليه على رئيس الوزراء والوزراء ليسمح لهم بالدخول، وفوجئت بديفيد كيمخي يناديني ويطلب مني الدخول، فقلت لضابط المراسم إنه وزير أيضًا، وبعد دخوله شكرني بحرارة، ووقف في الصف الطويل، وكان الرئيس السوداني جعفر نميري يقف في الصف الذي يتقبل العزاء، بعد جمال السادات - نجل الرئيس السادات - والنائب حسني مبارك، ثم بقية أفراد العائلة، وقد تقدم بيجين وشارون وشامير وبورج لتقديم العزاء، فصافحوا جمال السادات، وحسني مبارك، وتخطوا الرئيس نميري بدون مصافحة - منعًا للإحراج - ولكن ديفيد كيمخي صافح الرئيس السوداني بحرارة، وكان واضحًا أنهما يعرفان بعضهما، واندهشت من ذلك، وقد

لاحظ كيمخي نظرتي له بعد مصافحته للرئيس نميري، فأمسك بيده التي صافحه بها - في حركة مسرحية - ونظر إلى بيجين وإليَّ، وقال بالعبرية، ثم بالإنجليزية: «سأقوم بوضع كف يدي هذا في إطار صورة؛ لأنها صافحت بالخطأ رئيسًا عربيًّا هو الرئيس جعفر نميري الذي لا يعرفني ولم أتعرف عليه نظرًا للازدحام!»، وتقبلت تفسيره بعدم اقتناع، وكان ظني في محله، حيث كشفت حقائق فيما بعد عن اتصالات سرية تمت بين الرئيس نميري وبين شارون بوساطة رجل الأعمال السعودي عدنان خاشقجي، وقد تم اللقاء في كينيا في 13 مايو 1982 - بحضور ديفيد كيمخي - للاتفاق على القيام بانقلاب في إيران، والسماح ليهود إثيوبيا «الفلاشا» بالانتقال إلى إسرائيل عبر السودان، بما يؤكد معرفة كيمخي وشارون بالرئيس السوداني.

وعقب انتهاء مراسم الجنازة، عدنا جميعًا إلى استراحة «المقاولون العرب»، وكانت السيارة الكاديلاك المصفحة تسير خلف مناحم بيجين دون أن تُقل أيًّا من أعضاء الوفد الإسرائيلي، كما كانت تسير إلى جانبها سيارة إسعاف مجهزة كأنها غرفة عمليات صغيرة، وكانت تحمل كمًّا هائلًا من الإسعافات الأولية والضرورية تحسبًا لأي طارئ.

وبعد عودة الوفد إلى الاستراحة، جلس مناحم بيجين ووزراؤه لتناول وجبة «الكوشير»، ودعاني لتناول الطعام معهم - من باب المجاملة - فشكرته وذهبت لتناول غدائي مع عميد من مباحث أمن الدولة على مقربة من الوفد الإسرائيلي، ولحق بي وزير الدفاع شارون، وطلب مني توفير سيارة بسائق لأنه يريد الذهاب إلى مكان ما، ولم

يخبرني بوجهته، فحذرته قائلًا إن حظر التجول سيبدأ خلال ثلاث ساعات، فقال إنه سيعود قبل ذلك، ورفض أن أذهب معه، موضحًا أن أحد أفراد الأمن المصاحب للوفد الإسرائيلي سيرافقه، ولم أعرف كيف أتصرف في هذا الموقف، فاتصلت بالسفير عصمت رضا لأعرض عليه الأمر، فقال لي دعه يذهب طالما أن هذه رغبته، فهذه مسئوليته وله مطلق الحرية، ثم طلب مني الاتصال بمسئول مراسم الرئاسة لإرسال سيارة بالسائق فورًا.

وبعد أن غادر شارون، عدت لأجلس مع بيجين، وفوجئت به يقول لي: «الرئيس السادات ضحك عليَّ؛ فقد استرد جزءًا من سيناء، وسيسترد بقيتها بكامل ثرواتها، وأعطاني سلامًا على ورق، ولا أدري ما يخبئه لي القدر، وما إذا كان سيتم تنفيذ جميع بنود هذه الوثيقة - يقصد اتفاقية السلام - أم لا!»، وأضاف: «يرى قطاع كبير من الرأي العام الإسرائيلي أنني تصرفت بلين حين وافقت على مطلب السادات والتزمت بإزالة عشرات المستوطنات اليهودية في سيناء، وضحيت بآلاف المستوطنين على مذبح السلام، ولكنني ملتزم وسأنفذ وعدي كما قلته للسيد حسني مبارك»، وبعد لحظة صمت، سألني: «أين تسكن في تل أبيب؟»، فأجبته بأنني أقطن في شقة بشارع «جابوتنسكي»، فعلَّق قائلًا: «هل تعلم أن زيف جابوتنسكي هو معلمي؟ لقد تتلمذت على يديه سياسيًّا وأيديولوجيًّا، وقد ترك بصماته داخل أعماقي وعلى شخصيتي».

وبعد ثلاث ساعات، عاد شارون وكان منتشيًا وتبدو عليه علامات السعادة، وسألته بشغفٍ عن جولته، فرد ببرود: «يمكنك أن تسأل السائق؛ فهو مصري وسيبلغك بما حدث!»، أصابني رده بالإحباط ولكنني قلت له: «يمكنني سؤال السائق، ولكنني أردت أن أسمع منك مباشرة وصفًا للمغامرة التي مررت بها، وأعتذر عن طلبي هذا وأعدك بعدم التدخل!»، فاعتذر لي وقال: «طلبت من السائق التوجه إلى الحسين وخان الخليلي، ووضعت كابًا على رأسي، وترجَّلت من السيارة وبدأت السير على الأقدام ما بين أزقة خان الخليلي وسط العدد الصغير من السائحين، ثم توقفت عند أحد المطاعم - قال لي السائق فيما بعد إنه توقف أمام مقهى نجيب محفوظ - وهو كبابجي وجلست وطلبت ثلاثة كيلو جرامات من الكباب والكفتة، وأجهزت على الكمية بأكملها في سعادة لأن أهم عنصر من عناصر الحياة بالنسبة لي هو الأكل، ووجبة الكوشير التي يقدمها رئيس الوزراء لنا لن تشبعني ولن أشعر بالسعادة لتناولها؛ فأنا عندي مزرعة أقوم بتربية العجول والخيول فيها، وآكل كميات كبيرة من اللحم، وبالرغم من التزامي بتعاليم الدين إلا أنني لا ألتزم بتناول وجبات الكوشير!»، وأضاف: «من المهم أن تمتلئ معدتي حتى أستطيع التفكير بالشكل الصحيح، ولذا طلبت شايًا بالنعناع بعد الوجبة الثقيلة، ثم قمت واستكملت مسيرتي في الأزقة والشوارع الضيقة، قبل أن أعود إلى هنا مرة أخرى».

وأبديت له تفهمي لرغبته في الذهاب إلى مثل هذه المنطقة الشعبية، ولكنني ألمحت له أن قيامه بمثل هذه المغامرة ينطوي على عدد من

المخاطر الأمنية، فقال إنها مخاطرة محسوبة، ثم أضاف مازحًا: «إن وجبة الكباب والكفتة الشهية تستحق هذه المخاطرة المحسوبة، خاصة أن الجميع منشغلون بما حدث، كما أنني أثق في أن أحدًا لن يتعرف عليَّ، المهم أن تمتلئ معدتي بطعامٍ فاخرٍ حتى أستطيع أن أحيا بكفاءة، فالطعام له الأهمية القصوى بالنسبة لي»!

عدت بعد ذلك إلى الاستراحة، وجلست بالقرب من شارون وبيجين، ولم أكن منتبهًا للحديث الدائر بينهما، حتى سمعت شارون يقول بالإنجليزية وهو يضحك: «إن رد فعلي على ذلك هو توجيه عشر دبابات إلى الكنيست ليفجروه خلال دقائق معدودة!»، ووجَّه بيجين حديثه إليَّ مشيرًا إلى شارون، وقال بالإنجليزية: «إنه الوزير الوحيد الذي لا يمكن لأي شخص أن يتنبأ بما سيقوم به، وهو جاد في قوله، وبالتالي لن أتخذ هذا القرار»، ولم أكن أعرف عن أي قرار يتحدث لأنني لم أكن منتبهًا منذ البداية، وكرَّر بيجين قوله، ولكن بالعبرية هذه المرة: «إنه الشخص الوحيد الذي يفعل ما يقول»، وكنت مندهشًا من الحوار الذي دار بين رئيس الوزراء ووزير دفاعه، ولكن خلال اليومين اللذين أمضيتهما معهما وضح لي أن شارون له نفوذ وتأثير غير طبيعيين على مناحم بيجين الذي كان يخشاه بالفعل، وقبل مغادرته القاهرة، شكرني بيجين على مرافقتي له ولوفده.

*اعتذاري عن عدم مرافقة فايتسمان :

اشتدت خلافاتي مع زوجتي، واستقر رأيي على إنهاء إجراءات الطلاق؛ لأننا كنا نتشاجر في كل مرة نلتقي فيها، حتى إنني اعتذرت عن مرافقة وزير الدفاع الإسرائيلي السابق عيزرا فايتسمان، من أجل التفرغ لإتمام إجراءات الطلاق، إلا أن رجاء نجلي حسام كان سببًا – للمرة الأخيرة – في تأجيل تنفيذ الطلاق.

وكانت غرفة عمليات وزارة الخارجية قد أبلغتني أن فايتسمان سيحضر بطائرة حربية خاصة – من طراز ميستار – لتقديم واجب العزاء، وصدر قرار بتعييني مرافقًا له، إلا أنه نظرًا لشروعي في إجراءات الطلاق من زوجتي اضطررت للاعتذار، وقام بهذه المهمة المستشار سامي توفيق.

وفي أثناء اطلاعي على برقية واردة من السفير سعد مرتضى، من تل أبيب، علمت بأن موشي دايان قد ذهب إلى السفارة المصرية في تل أبيب يوم 7 أكتوبر متكئًا على ذراع كريمته، وقدَّم العزاء للسفير في وفاة الرئيس السادات، وكان هذا آخر عمل رسمي قام به، قبل أن يلازم الفراش حتى وفاته، وقرر الجانب المصري إيفاد الدكتور بطرس بطرس غالي – وكان وزيرًا للدولة للشئون الخارجية وقتها – على رأس وفد في طائرة خاصة لتقديم واجب العزاء في موشي دايان، وقد وجدت هذه المناسبة فرصة لأن أنهي مهمتي وأستجيب لاتصالين من السفير سعد مرتضى يحثني فيهما على إنهاء ما تم تكليفي به والعودة إلى تل

أبيب، وبالفعل استأذنت الوزارة في الانضمام لوفد الدكتور بطرس غالي والمشاركة في تقديم واجب العزاء، على أن يكون ذلك نهاية مهمتي؛ لأعود إلى موقع عملي بالسفارة في تل أبيب، وقد وافق النائب كمال حسن على ذلك، فسافرت مع الدكتور بطرس بالطائرة الخاصة، وكان السفير والوزير المفوض في استقبال الوفد فور هبوط الطائرة في مطار بقاعدة جوية عسكرية بالقرب من تل أبيب، كما كان وزير الدفاع شارون في استقبال الوفد المصري، وتناولنا الغداء جميعًا في «الميز» العسكري في القاعدة الجوية، وكان غداء عمل تم فيه الحديث بشأن عدة موضوعات حول جولات المفاوضات الخاصة بالتطبيع والحكم الذاتي، ثم انتحى شارون والدكتور بطرس جانبًا للحديث منفردين، ولم نعلم عن حديثهما أي شيء، حيث سار الاثنان معًا لمسافة ودخلا إحدى القاعات في القاعدة العسكرية، وقد لاحظت أن الدكتور بطرس عاد من هذا الحديث المنفرد متجهم الوجه، ولم أدرِ ماذا تم، ولم يتفوه هو بأي كلمة حتى للسفير سعد مرتضى، وبعد أن أنهى مهمته، صافح مودعيه وانطلق مع بقية أعضاء الوفد المصري عائدين بالطائرة الخاصة إلى القاهرة.

*تأبين الرئيس السادات في ميدان الملوك:

في اليوم التالي لعودتي، استدعاني السفير سعد مرتضى، وكلفني بحضور حفل تأبين الرئيس السادات معه في ميدان «الملوك»، مشيرًا إلى أن الحفل جاء كمبادرة من إيبي ناثان - المعروف باسم طيار السلام

- وأن بلدية تل أبيب قد وافقت على إقامة حفل تأبين مفتوح للجماهير التي ترغب في المشاركة، كما وافقت على إطلاق اسم الرئيس السادات على الميدان لمدة يوم واحد، هو يوم حفل التأبين، وقد فوجئت في الميدان بحضور ما يزيد على خمسين ألف مواطن إسرائيلي للمشاركة في تأبين الرئيس السادات، وبدأ الحفل بتلاوة آيات من القرآن الكريم، تبعتها آيات من التوراة؛ ثم ألقى إيبي ناثان كلمة يرثي فيها الرئيس المصري الراحل، مشيدًا بشجاعته عند زيارته للقدس، وتوقيعه اتفاقية السلام، كما ألقى السفير سعد مرتضى كلمة ذكر فيها أن الرصاص الذي أصاب الرئيس السادات قد قتله، ولكنه لم ولن يستطيع أن يقتل عملية السلام، مؤكدًا على أن السلام سوف يستمر بين مصر وإسرائيل، وقد لاقت كلمته استحسانًا فتعالى تصفيق الجماهير المحتشدة، وبناءً على اتفاق مسبق تم إظلام المصابيح الكهربائية الموجودة في ميدان «السادات»، ونادى ناثان الجماهير المحتشدة ليشعل كل واحد من الحاضرين شمعة، حيث أضاءت خمسون ألف شمعة الميدان الكبير، في مظهرٍ مهيبٍ، وتحول المشهد إلى تجمع إنساني مؤثر يليق بتكريم وتأبين الرئيس الراحل أنور السادات.

وفي الأسبوع الثالث من أكتوبر، أبلغت الشرطة الإسرائيلية السفارة المصرية بأنها أصدرت تصريحًا لحركة «كاخ» بقيادة المتعصب مائير كهانا لتنظيم «مظاهرة» أمام مبنى السفارة، مع تعهد من الشرطة بتأمين المبنى والمحافظة على سلمية المظاهرة، وكلفني السفير بإجراء الاتصالات اللازمة مع مركز الشرطة التابعة له السفارة، فأبلغوني بأن

المنظمين للمظاهرة حصلوا على تصريح بالتظاهر من الساعة الثالثة بعد الظهر، ولمدة ساعة واحدة، وقد غادر أعضاء السفارة المبنى قبل المظاهرة، ولم يبقَ سوى السفير والوزير المفوض وأنا، وعلَّق السفير على هذه المظاهرة قائلًا: «إذا ما اندلع عنف سياسي أو اشتعلت الحرب الأهلية في إسرائيل، فلا شك أن كاهانا سيكون وراء ذلك»، ثم استطرد قائلًا بغضب: «لقد بزغ نجم كاهانا في أواخر الستينيات في الولايات المتحدة عندما أسس عصبة الدفاع اليهودي، تحت شعار: لن يحدث ثانية، أي أن اليهود لن يكونوا ضحايا بعد اليوم، وقد أخذت هذه العصبة على عاتقها مهمة توفير الحماية للجماعات اليهودية في نيويورك، والتي كانت تتعرض للكثير من المضايقات والتهديدات من الجماعات العرقية الأخرى، إلا أن تلك العصبة - أو العصابة - كما أطلق عليها بعض المواطنين الأمريكيين - تمادت في تنفيذ مهامها وأصبحت تستخدم السلاح والعنف ضد كل مَن يظنون أنه عدو لليهود، سواء كان أمريكيًّا أسود، أو دبلوماسيًّا سوفييتيًّا، ثم هاجر كاهانا إلى إسرائيل في مطلع السبعينيات، ووجَّه نشاطه الإرهابي نحو تكوين حركة جديدة عرفت باسم: كاخ، ومعلوماتي - من معارفي الإسرائيليين - عن كاهانا أنه ذئب وحيد ترعرع على الخوف وجنون العظمة والمُقت، وأن منظمته تؤكد على الكره العنصري ضد العرب، وأنها حركة غير ديمقراطية المسعى، وفاشية الأصل، خاصة بعد أن بدأت بالمناداة بالعمل على تنقية الجيش الإسرائيلي من أي عناصر غير يهودية - مثل الدروز - والعمل، ولو بالقوة والابتزاز والتهديد، على منع التزاوج المختلط، بما يعيد للأذهان النظريات العنصرية النازية في الحفاظ على الجنس الآري!».

صعدت إلى مكتبي بالطابق الثالث لمتابعة سير المظاهرة التي لم يشارك بها أكثر من خمسين شخصًا، كنت أقف وراء نافذة مكتبي، وكان مائير كاهانا ينظر إليَّ وهو يوجه السباب والألفاظ البذيئة - باللغة الإنجليزية - لمصر والشعب المصري، وللرئيسين السادات ومبارك، وكان يستخدم أقبح العبارات للمطالبة بعدم الانسحاب من سيناء، ثم طلب مقابلة السفير المصري لتسليمه ورقة - تسجيل موقف - تتضمن احتجاج ورفض حركة «كاخ» للمضي قدمًا في عملية السلام برمتها، ورفض السفير لقاءه - وكان محقًّا في رفضه - الأمر الذي أثار حفيظة وغيظ كاهانا، فأطلق المزيد من السباب والعبارات النابية والإشارات البذيئة باليد، وبعد ساعتين انفضت المظاهرة تمامًا، وذهبت إلى السفير لأطمئنه، فنظر إليَّ بشرودٍ، ثم قال: «إذا أعرت الكلب انتباهك ونهرته عن النباح فسيزداد نباحه، وإذا تجاهلته وتجاهلت نباحه لفترة - حتى لو طالت - فسيشعر الكلب بالملل من نباحه وسينصرف وحده».

وقد كان السفير سعد مرتضى محقًّا في التعامل بتجاهل مع مثل هذه الشخصيات المتعصبة تعصبًا أعمى، وأبرز مثال لهم هو كاهانا، الذي أُغتيل عام 1990 في فندق «مانهاتن» في أثناء إلقائه محاضرة على مجموعة من مؤيديه الأمريكيين، ويُقال إنه قد تم إلقاء القبض على مواطن أمريكي من أصل مصري، ثم أُفرج عنه لاحقًا لعدم ثبوت الأدلة، وبذلك أُغلق فصل من حياة مواطن جسَّد الجانب المظلم من الشخصية الإسرائيلية المتطرفة في عنصريتها ضد العرب.

*فكرة إنشاء جمعية الدبلوماسيين الأجانب :

بدأت علاقاتي تتوسع في المجتمع الإسرائيلي، خاصة بعد تحدثي اللغة العبرية، وكانت رونا قد أخبرتني بذلك، حين أكدت لي أن المجتمع الإسرائيلي حذر في التعامل مع الأجانب، ولكنه يفتح الأبواب الموصدة لمَن يتحدث بلغتهم العبرية.

وفي الأسبوع الرابع من أكتوبر، حضرت غداء عمل مع مجموعة من الزملاء، واقترحت عليهم إنشاء جمعية للدبلوماسيين الأجانب في تل أبيب، وحدثتهم عن تجربة إقامة هذه الجمعية في لندن، حيث كانت تعمل على لقاء النظراء في كل سفارة لجميع الدرجات ما عدا السفير، مشيرًا إلى أن الجمعية يمكن أن تكون لها أنشطة سياسية، كدعوة الشخصيات السياسية والحزبية الإسرائيلية على غداء أو عشاء في وجود أعضاء الجمعية لإطلاعنا على مواقف الحكومة الإسرائيلية تجاه موضوعات بعينها، فتحمس ورحب كل مَن شارك في هذا الغداء، واتفقنا على مفاتحة سفرائنا، وفي إطار عرض محضر المقابلة على السفير فاتحته في الموضوع، وذكرت له كيف كانت تجربة لندن ناجحة، وأن تنفيذ هذه الفكرة قد يلاقي نجاحًا كبيرًا في المجتمع الإسرائيلي، وتحدثت معه عن ميزة هذه الجمعية موضحًا أنني قد أكون عضوًا في مجلس إدارة الجمعية باعتباري أحد الأعضاء المؤسسين للجمعية، وبهذه الصفة سأتمكن من النفاذ إلى دوائر صنع القرار الإسرائيلي.

وقد رحب السفير سعد مرتضى بالفكرة، وشجعني على بدء الاتصالات الجادة لتأسيس الجمعية، وعندما عرض قيامه بمفاتحة الجانب الإسرائيلي في الأمر، اقترحت عليه ألا نظهر في الصورة - بشكل مباشر - لأنني قادر على أن أحرِّك المجموعة التي طرحت عليها الفكرة ليتحركوا بمساعدة سفرائهم حتى لا تتوجس أجهزة الأمن والخارجية الإسرائيلية من هذا التحرك - إذا تم بمبادرة مصرية - ودرءًا لوضع أي عراقيل أمام تأسيس الجمعية، ووافقني السفير في الرأي.

وفي جلسة تالية مع نظرائي في السفارات المختلفة، اقترحت تقسيم مجموعة الدبلوماسيين إلى فريقين، يتكون الفريق الأول من رونا ممثلة للسفارة البريطانية، ومعها ممثلي سفارتي هولندا وأمريكا، ويتولى أمر مفاتحة الخارجية والحصول على الموافقات والتصاريح الأمنية الخاصة بإشهار الجمعية، بينما يتكون الفريق الثاني من ممثلي سفارتي جنوب إفريقيا وفنزويلا، وأنا معهما، ويتولى هذا الفريق الترويج اللازم والدعاية بين السفارات، وإعداد الترتيبات اللوجيستية لعقد اجتماعات مجلس الإدارة، ولوضع جدول أعمال أنشطة الجمعية.

واتصلت بإدارتي فندقي «هيلتون» و«شيراتون» للحصول منهما على عروض خاصة بعقد اجتماعات مجلس إدارة الجمعية مجانًا، في مقابل عقد لقاءات الغداء أو العشاء مع المسئولين الإسرائيليين في هذين الفندقين، واعتذر الفندقان عن عدم استقبال الاجتماعات مجانًا، وإن كان كل فندق قد قدم لنا عرضًا بأسعار مخفضة، وتحدثت مع روبرت في الأمر، فاتصل بمالك فندق «ديبلومات» وأقنعه بأهمية

تقديم الخدمات مجانًا للجمعية، ووافق المالك على ذلك، وقدَّم لي عرضًا مغريًا لاستضافة مقر الجمعية في الفندق، وبالفعل عقدنا أول اجتماع لمؤسسي الجمعية في فندق «ديبلومات» الذي قدم لنا خدمات متميزة ومجانية، وفي الاجتماع عرض الهولندي والأمريكي جهودهما في إبلاغ الخارجية والحصول على موافقتها بالفعل، وذكرت رونا أن إجراءات إشهار الجمعية في طريقها للانتهاء بحيث يمكن أن نبدأ في مزاولة أنشطة سياسية وثقافية واجتماعية وترفيهية، واتفقنا على الترويج وبقوة لهذه الجمعية بين أروقة السفارات ومكاتبها الفنية، بالإضافة إلى طباعة استمارات العضوية وتوزيعها بمعرفة سكرتارية الجمعية على جميع السفارات، كما تم الاتفاق على برنامج شهري بحيث يبدأ في أوائل شهر مارس، واقترحت أن أقوم بدعوة الجنرال إبراشا تامير المستشار العسكري لرئيس الوزراء الإسرائيلي؛ لإلقاء محاضرة عن المخاطر الأمنية التي تواجهها إسرائيل، وتطوعت بعمل الاتصال والإعداد للحدث باعتباره افتتاحًا لأنشطة الجمعية، واتفقنا على عقد أول اجتماع رسمي للجمعية، وأن نُطلق على الهيكل الذي نعمل في إطاره اسمًا مؤقتًا هو «لجنة تسيير الأعمال» حتى يتم انتخاب مجلس الإدارة، وبالفعل عقدت الجمعية أول اجتماع رسمي لها، وقدَّم روبرت قاعة كبيرة للاجتماعات مجهزة بكل شيء، وحضر الاجتماع 65 عضوًا دبلوماسيًّا، وشعرت أن الجمعية كانت تمثل عامل جذب، خاصة أنها على مستوى ما هو دون السفير، بمعنى أن أي دبلوماسي من درجة ملحق وحتى درجة وزير مفوض، ونائب رئيس بعثة، سيحق له الاشتراك، وقد أوضحت للحاضرين أن الجمعية وأعضاءها ستقوم

بنشاط سياسي واجتماعي وترفيهي يخدم سفاراتنا، وفي انتخابات مجلس الإدارة نجح الأعضاء المؤسسون، وانتُخبت رئيسًا للجمعية، ونائب رئيس الجمعية كان سكرتير أول السفارة الهولندية جان باولز (Jan Boeles)، وعضوية رونا وبقية الأعضاء، وأعلن باولز أن سفيره التقى وزير الخارجية شامير، الذي وعده بدعم وزارته للجمعية والتعاون معها بأقصى قدر وتقديم التسهيلات والدعم الفني، واتفق الجميع على أهمية عمل زيارات ميدانية للأماكن المهمة، واقترحت أن أقوم بترتيب زيارة إلى سيناء وقاعدة إسرائيل الجوية «عيتصيون» قبل إجراءات الانسحاب، وتحمس الجميع للفكرة، والحقيقة أنني كنت حريصًا على مشاهدة هذه القاعدة، ومدينة إيلات، وعمل مسح للتواجد الإسرائيلي في سيناء - تحت غطاء دبلوماسي من السفارات الأجنبية - واقترحت سكرتير أول سفارة جنوب إفريقيا القيام بزيارة إلى البحر الميت خلال شهر إبريل، وتعهدت بإجراء ترتيبات الرحلة، في حين تطوع مستشار السفارة الأمريكية باتخاذ إجراءات لعمل زيارة ميدانية للكنيست في شهر مايو، ووافقت رونا على ترتيب زيارة لمركز الأبحاث العلمي «معهد شيلون» في شهر يونيو، ووافق مستشار السفارة الألمانية على ترتيب زيارة لمعهد «وايز مان» وشركة «إيسر» لصناعة الطائرات خلال شهر يوليو، وعاد الهولندي وأعرب عن استعداده لترتيب رحلة إلى منطقة «سافاد» في إجازة نهاية الأسبوع خلال شهر أغسطس، كما أعلن مندوب الخارجية الإسرائيلية - الذي كان حاضرًا الاجتماع - عن قيام وزارته بترتيب زيارة المعرض الإسرائيلي خلال شهر سبتمبر، وهكذا تم إقرار جدول الأعمال ووافق الحضور على بنوده.

وكان السفير سعد مرتضى سعيدًا للغاية عندما قدمت له تقريرًا بما حدث، وأكد لي أنه سيتحدث مع رئيس الوزراء ووزراء الخارجية، والدفاع، والمالية، والاقتصاد، في إطار الترويج للجمعية وأنشطتها لحثهم جميعًا على عمل لقاءات مع الجمعية، واقترح دعوة السفراء كضيوف شرف لحضور هذه اللقاءات، ثم قدَّم لي تهنئته على انتخابي رئيسًا للجمعية، وقال إن الجانب الإسرائيلي أعرب عن سعادته بذلك؛ لأن انتخاب دبلوماسي مصري كرئيس للجمعية سيؤكد على التزام إسرائيل باتفاقية السلام، وعلى أن العلاقات المصرية الإسرائيلية تسير على ما يرام.

*بدء علاقتي بالدبلوماسية النرويجية:

ساءت علاقتي مع رونا بسبب غيرتها الزائدة، وبدأنا نتشاجر كثيرًا لهذا السبب، وفي نهاية أكتوبر أخبرتها بضرورة أن تنتهي علاقتنا الخاصة عند هذا الحد، على أن نستمر في علاقتنا الحِرفية كزميلين، ولم أكتفِ بهذا القرار، وإنما بدأت في التقرب من سكرتير ثاني السفارة النرويجية آنًا لارسن، حيث دعوتها على العشاء، وفي أثناء ذلك كنا نتحدث عن موضوعات كثيرة، بما فيها المجتمع الإسرائيلي، وعند التطرق للحديث عن «الإشكناز» و«السفارد» قالت لي إنه قبل عام 1967 كانت توجد طبقة اجتماعية تحدد لكل قطاع في المجتمع دوره الخاص، فقد حكمت نخبة الأغلبية «الإشكناز» القطاع «السفاردي»، والذي قبل مذعنًا بالدرجة الثانية، بينما شكَّل عرب إسرائيل «مواطني

الدرجة الثالثة»، ولم تتعرض هذه المنظومة - المتوافق عليها - لأي جدال بشأنها، باستثناء بعض الأصوات الخافتة والمتناثرة، أما على الصعيد الديني فإن مصدر عدم الاستقرار دائمًا كان جيل الشباب.

وتحدثت عن المستوطنات قائلة إن المنهج الواضح في سياسة بيجين هو أن الأداة الرئيسية للمماطلة عند التفاوض مع العرب هو إنشاء الكثير من المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة، وتنطوي خطة بيجين - بعد أن يقوم بتسليم سيناء - على إحكام قبضة إسرائيل على الضفة الغربية والقدس المحتلة، وقد نجح الليكود - منذ فوزه - في تحقيق ذلك بشكل كبير، خاصة أن حزب العمل ليس في السلطة، وسيصبح الأمر في غاية الصعوبة - إن لم يكن مستحيلًا - للتوصل لاتفاق سلام على أساس المساومة على الأرض، أي إعادة أغلب الضفة الغربية إلى الفلسطينيين مقابل السلام، وواصلت آنّا قائلة إن شارون تولى تنفيذ مشروع بيجين الاستيطاني، بعد أن قام بيجين بتعيينه وزيرًا للزراعة عام 1977، وقد نجح شارون في بناء مائة مستوطنة في الضفة الغربية وقطاع غزة، أغلبها لا يتسع لأكثر من عشرين عائلة، ورفع عدد السكان اليهود في هذه المناطق من عشرة آلاف إلى خمسين ألف مستوطن.

ولا أدري كيف انتقل الحديث فجأة إلى المافيا الإيطالية وعلاقتها بالمافيا الإسرائيلية، حيث سألتني آنّا عما إذا كنت أعرف موردخاي سيرفاتي المعروف بلقب: «مينيش»، وعندما أجبتها بالنفي، قالت إنه من أصل يوناني، وهو الأب الروحي للعراب رقم 2 في المافيا الإسرائيلية

بتساليل مزراحي، والذي أصبح عضوًا في الكنيست في انتخابات 1981، وردًا على سؤالي لها عن المافيا الإسرائيلية، قالت آنّا إن المافيا الإسرائيلية تشكل السلطة الخامسة في إسرائيل، وتعتبر من سواتر الموساد، وهي ذراع له في الخارج، مشيرة إلى أن ألمانيا الغربية تعاني حاليًا لكونها المركز الرئيسي والمسرح الأول للجريمة الإسرائيلية، كما أن المافيا الإسرائيلية لها سطوة في الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية، حيث سيطرت على تجارة الهيروين والكوكايين في كاليفورنيا، وتغلغلت في نيويورك وفلوريدا، وفرضت هيمنتها على أكبر شبكات تهريب وتوزيع المخدرات، وقد استخدمها - وما زال - جهاز الموساد في تهريب الأجهزة والرقائق الإلكترونية المتقدمة إلى خارج الولايات المتحدة، وتعمل المافيا الإسرائيلية - التي تتلقى الدعم من مقر المافيا الإيطالية في صقلية - كهمزة وصل بين الموساد وعصابات الإرهاب الدولي، ولا شك لدى الدول الأوروبية والأسكندنافية في وجود ارتباط عضوي وتعاون ومصالح مشتركة في بعض الأحيان بين الموساد والمافيا الإسرائيلية، الأمر الذي أسفر عن تنامي هيمنة ونفوذ المافيا بقوة في الحياة السياسية والمؤسسات العسكرية والأمنية، بل وحتى في الحياة الاقتصادية داخل إسرائيل.

وبعد العشاء ذهبنا إلى ملهى ليلي، وتطورت مجريات الأمور بيننا، وفي الصباح فوجئت بها تقول لي إن هذه هي أول مرة تكون لها علاقة خارج إطار زواجها، وإنها تتذكر ابنتها البالغة من العمر خمس سنوات! وبدت ملامح الدهشة على وجهي؛ لأنني لم أكن أعتقد أنها

متزوجة وأم لطفلة في الخامسة من العمر، وسألتها عن عائلتها، فقالت إن زوجها لا يستطيع ترك عمله في النرويج، وطلبت مني أن نحتفظ بعلاقتنا في إطار من السرية! ووافقتها على ذلك، مؤكدًا لها أنني عادة لا أدخل في علاقات مع متزوجات، وأنني لم أعرف أنها متزوجة وأم أيضًا، وكنت بيني وبين نفسي قد قررت إنهاء تلك العلاقة.

وفي الأسبوع الأول من نوفمبر، سألني أحد الزملاء في السفارة عما إذا كنت أعرف مستشارة السفارة الفنلندية أنيللي هايونين، فقلت له إنني أعرفها جيدًا لأنها زميلتي في فصل تعلم اللغة العبرية بمعهد «الأولبان»، وكانت قد ابتزتني حين علمت من رونا أنني أدرس في الأولبان رغم أنه مخصص للمهاجرين الجدد، حيث زارتني في مكتبي وفي نهاية اللقاء سألتني عن كيفية قبولي في الأولبان رغم أنها حاولت التقدم من قبل وتم رفضها عدة مرات، وهددتني بتقديم شكوى إلى الإدارة العليا للمعهد وإلى وزارة التعليم، وابتزتني قائلة إنها إما تُقبل في معهد «الأولبان» كما قُبلت أنا، وإما أُرفض أنا كما رفضوها من قبل، وقد أخبرت مديرة المعهد بذلك فقبلت حضورها على مضض، ولكن لماذا يسأل زميلي عنها؟ وجَّهت السؤال إليه فقال إنه في ضوء العلاقة المهمة بين جهازي الموساد والمخابرات الفنلندية، فمن المنتظر أن تشمل القوات متعددة الجنسيات والمراقبين في سيناء بعد الانسحاب وحدة من القوات الفنلندية، وتحسبًا لأي مواقف غير مواتية لمصالح مصر أراد الاقتراب من المستشارة الفنلندية، ولم يجد أصلح مني لهذه المهمة! فضحكت وأخبرته بصعوبة ذلك لأنها صديقة رونا

ريتشي، كما أنها الصديقة المقربة من النرويجية آنًا، والتي بدأت مؤخرًا علاقة خاصة معها، واقترحت عليه أن أدعو الفنلندية والنرويجية على العشاء، وأقدمه لهما باعتباره زميلي في السفارة، فطلب إمهاله إلى الغد ليرد عليَّ، وفي اليوم التالي أخبرني بأن هناك وفدين مصريين لمحادثات التطبيع والحكم الذاتي سيصلان غدًا، وسيضم الوفد أيضًا أحد الدبلوماسيين من إدارة الأمن بالخارجية، وهو مَن سيقوم بالمهمة، وطلب مني الاتصال بزميلتي النرويجية وترتيب عشاء مساء غد لتقديمه إليها، وهاتفت آنًا، وأخبرتها بأنني أرغب في الحفاظ على علاقة الزمالة معها، وتأكيدًا لذلك فإنني أدعوها على العشاء، وسأدعو زميلتنا الفنلندية أيضًا، ورحبت آنًا بالدعوة واتصلت بصديقتها الفنلندية ودعتها إلا أنها رفضت في البداية لأنها تعلم مشاعر آنًا تجاهي، ولا تريد أن تفسد علينا الليلة، فأخبرتها آنًا بأنني على استعداد لدعوة أحد الزملاء القادمين ضمن الوفد المصري في اليوم التالي، فقبلت الدعوة.

وفي صباح اليوم التالي، حضر الوفدان، واصطحبتهما إلى فندق «هيلتون» تل أبيب، وصافحني أحد الزملاء – من إدارة الأمن بالخارجية – هامسًا في أذني: «سوف نتناول العشاء سويًا هذا المساء»، وقدَّم نفسه باعتباره المستشار أبو زيد، وقال لي إنه من الأفضل أن نأخذهما في مطعم خارج الفندق، وليته يكون خارج تل أبيب أيضًا، فطلبت من آنًا أن تحجز لنا بمطعم في «يافا»، وأبلغتها بأننا سنقابلهما في التاسعة مساءً، وبعد انتهاء جلسات المحادثات بفندق «هيلتون» في السادسة مساءً، ذهبت إلى منزلي لتبديل ملابسي، ثم توجهت بسيارتي

إلى موقع بالقرب من الفندق، وكان المستشار أبو زيد في انتظاري، وكان وسيمًا وأنيقًا وجذابًا، وبالتالي لم يستغرق انجذاب الفنلندية إليه أكثر من ساعتين خلال فترة العشاء، وكان كل منا يدير حديثًا هامسًا مع رفيقته، ويبدو أنه اتفق معها على استكمال جزء من الليلة في «خلوة خاصة»، فقال لي المستشار أبو زيد إنه من الصعب عليه اصطحابها معه إلى غرفته بالفندق في ظل وجود هذا الكم من أفراد الأمن المخصصين لحراسة الوفد هناك، كما أنهما لا يستطيعان الخروج إلى أي أماكن عامة، أو استئجار غرفة في فندق آخر، ولم يبقَ غير مخرجٍ واحدٍ هو أن يذهبا إلى منزلها - وهو قريب من منزل آنّا في منطقة «هيرتزيليا» - وبالفعل توجهنا بالسيارتين إلى منزلها، وتركناهما وذهبت أنا إلى منزل آنّا، وقضيت وقتًا معها - مضطرًّا - ومررت عليه بعد الساعة الثانية صباحًا وأخذته معي إلى الفندق، ثم توجهت إلى منزلي.

وتكرر اللقاء في اليوم التالي بمطعم آخر في منطقة «يافا» أيضًا، وبالترتيبات نفسها، إلا أن سيناريو الأحداث اختلف في هذه الليلة، ففي أثناء العشاء تحدثت أنيللي الفنلندية عن قيامها بمساعدة الكنيسة الكاثوليكية والقس المشرف عليها من خلال علاقاتها وموقعها في السفارة، مشيرة إلى أنها استشعرت ضيق السلطات الإسرائيلية من ذلك، حيث تتدخل السفارة - من خلالها - في كل كبيرة وصغيرة تخص مطالب الكنيسة والقس، وبعد العشاء توجه المستشار أبو زيد مع الفنلندية في سيارتها إلى دار سكنها، وتوجهت أنا مع آنّا إلى شقتها، وبمجرد وصولنا تلقت آنّا مكالمة هاتفية من أنيللي، وكانت مضطربة،

وقالت لها إنها لاحظت أن ترتيب الأثاث والمقتنيات في بيتها مختلف عن الوضع الطبيعي، وبدأت بالبحث في غرف سكنها واكتشفت أن هناك مَن دخل بالفعل وقام بتفتيش كل متعلقاتها، ووجدت أوراقها الخاصة وملفاتها متناثرة على الأرض، كما سُرقت بعض المقتنيات والمتعلقات الخاصة بها كنوعٍ من التغطية، وقالت إنها تعتقد أن ذلك تم بسبب مواقفها المؤيدة والداعمة لكنيستها الكاثوليكية، فأخذت سماعة الهاتف وتحدثت مع المستشار أبو زيد الذي بادرني بالقول: «أرجوك أن تحضر حالًا لأن الموقف لا يحتمل تواجدي هنا، خاصة أنها تريد الاتصال بالشرطة، وأنا أرغب في أن يتم ذلك بعد مغادرتي»، وخلال دقائق معدودة كنت أمام الفيلا، ودخلت أنا وآنّا، وشاهدت بنفسي آثار الاقتحام والسرقة، وأخذت زميلي المستشار أبو زيد وغادرنا على الفور متجهين إلى الفندق، وفي أثناء الطريق قال لي إن هذه الرسالة موجهة للفنلندية بسببه، وإنها رسالة من الموساد له هو أيضًا؛ فالاقتراب من الفنلندية يُعد خطًّا أحمر بسبب العلاقة الخاصة التي تربط الموساد بنظيره الفنلندي.

وفي صباح اليوم التالي علمت منه أنه كان على اتصال بها من غرفة فندقه للاطمئنان عليها، وأن آنّا أمضت الليل معها في بيتها، وأنها اتصلت بمدير إدراة الأمن في الخارجية الإسرائيلية - فور مغادرتنا - والذي اتصل على الفور بالشرطة، وأن أنيلّلي قالت للمسئول الإسرائيلي إن الحادث إذا كان بمثابة رسالة من الموساد بسبب مواقفها مع الكنيسة أو حياتها الشخصية فإنها على استعداد للرحيل فورًا مع طلب نقلها

إلى أي سفارة أخرى، ولكن مدير إدارة الأمن نفى ذلك، مؤكدًا لها أنها سرقة عادية قد تحدث لأي دبلوماسي.

وقد سألت المستشار أبو زيد عن رأيه في ذلك، فأكد ما سبق وقاله لي مرة أخرى، وأعتقد أن ذلك كان صحيحًا؛ إذ إنني علمت من زملائي في إدارة الأمن بالخارجية، بعد عام من هذا الحادث، أنه تم التقاط وفك شفرة اثنين وثلاثين رسالة موجهة - سرًّا وبالرمز - إلى إسرائيل من الوحدة الفنلندية العاملة بقوات حفظ السلام، وأن هذه الرسائل تضمنت معلومات ومواقع وتحركات الجيش المصري في سيناء، وكانت بها معلومات حساسة عن مصر، ما دفع الجانب المصري إلى مطالبة قائد القوة متعددة الجنسيات والمراقبين الدوليين بطرد الوحدة الفنلندية التابعة لهذه القوة أو استبدالها بوحدة من أي دولة أخرى.

*مشكلة التوقيع في القدس:

حضرت جلسات الوفدين المصريين مع الجانب الإسرائيلي، وكان واضحًا للجميع أن محادثات التطبيع تسير بخطًى ثابتة ومتسارعة فيما يتعلق بكل الأمور التي تنظم العلاقة بين الدولتين، في حين تعثرت محادثات الحكم الذاتي التي أدارها السفير طاهر شاش باقتدار، وعاونه الوزير المفوض الدكتور فوزي الإبراشي، واتُّفق على إصدار بيان ختامي - في نهاية محادثات الوفدين - تتم صياغته بحيث يوضح ما تحقق من توافق في موضوعات التطبيع، كما يوضح نقاط

الخلاف ومواقف الطرفين في موضوعات الحكم الذاتي، وقد شاركت في لجنة صياغة البيان المشترك، وتم التوصل إلى اتفاق على الصياغة حوالي الثالثة صباحًا، وكان من المفترض أن يتم توقيع الطرفين - في تل أبيب - في الصباح، ويعقبه مؤتمر صحفي يتحدث فيه الجانبان عن بنود البيان المشترك ونقاط الاتفاق والخلاف، وهنا فوجئ الوفد المصري بأن الجانب الإسرائيلي يصر على أن يتم التوقيع والمؤتمر الصحفي في مقر وزارة الخارجية بالقدس باعتبارها عاصمة إسرائيل، وكان رد الفعل التلقائي من جانب كل من السفير طاهر شاش، والسفير عصمت رضا هو رفض المطلب الإسرائيلي، وجلسنا للتداول في جناح السفير عصمت رضا، الذي شعر بحرجٍ شديدٍ من الاتصال بالنائب كمال حسن وإيقاظه من النوم للحصول على تعليمات واضحة وصريحة في هذا الشأن، وفي السادسة صباحًا دخل رئيس الوفد الإسرائيلي إلى الجناح المصري، وقال إنه أيقظ مناحم بيجين من نومه، وإنه حاول أن يستأذنه في أن يتم التوقيع في تل أبيب إلا أن بيجين رفض ذلك رفضًا قاطعًا باعتبار أن القدس عاصمة لإسرائيل، معلقًا على ذلك بأنه من غير المنطقي أن يُصر الجانب الإسرائيلي على توقيع أي اتفاق مع نظيره المصري في مدينة بورسعيد مثلًا لعدم اعترافه بالقاهرة عاصمة لمصر!

ولم يجد رئيس الوفد المصري مخرجًا سوى الاتصال بالنائب كمال وإيقاظه من النوم، فاقترح - كحلٍّ وسط - أن يتم التوقيع على البيان المشترك والمؤتمر الصحفي في مطار «بن جوريون» الذي يقع في منتصف المسافة، ويدخل جغرافيًّا في دائرة اختصاص

القدس، وإذا أصر الجانب الإسرائيلي فيتم التوقيع وبسرعة في وزارة الخارجية بالقدس، ولا يتم الإدلاء بأي تصريحات، على أن يُعقد المؤتمر الصحفي في المطار، وهذا ما تم بالفعل، بعد أن وافق الجانب الإسرائيلي - ومناحم بيجين شخصيًّا - على الاقتراح الحكيم للنائب كمال حسن، وانتهت مهمة الوفد الصعبة، حيث كان في وداعهم السفير سعد مرتضى، ونائبه الوزير المفوض محمد بسيوني، وأنا.

*مفاجآت حفل عيد ميلادي :

كان يوم 15 نوفمبر 1981 يوافق عيد ميلادي الثاني والثلاثين، وكانت رونا تحاول إعادة علاقتنا الخاصة كما كانت، وكنت أرد عليها ببرود؛ لعدم رغبتي في إعادة العلاقة مرة أخرى.

واتصل بي شقيقي سمير بعد الظهر ليهنئني بعيد ميلادي، وأخبرني بحضوره الأسبوع المقبل في جولة إلى عدد من دول الخليج بما فيها السعودية، ثم سيتوجَّه إلى مصر، وقال إنه يستطيع الحضور إلى تل أبيب لقضاء ثلاثة أيام معي، وقد أسعدني هذا الخبر، كما أسعدني أنه فتح اتصالًا ثلاثيًّا لأتحدث مع أبي، الذي كان ما زال يعمل في السعودية.

كان أبي - بعد انتقالي إلى تل أبيب - يشعر بالقلق عليَّ، ولكنه لا يستطيع الاتصال بي؛ لأن دوائر الاتصال الدولية كانت مغلقة بين السعودية وإسرائيل، بل وقتها لم تكن هناك أي خطوط تليفونية بين

إسرائيل وأي دولة عربية، وكان الخط التليفوني الوحيد مع مصر عبر الكابل البحري في إيطاليا، إلا أن شقيقي سمير أوجد طريقة لحل هذه المشكلة من خلال «آلة المحادثات الثلاثية» (Conference call)، التي كانت موجودة في مكتبه، حيث كان يعمل نائبًا لمدير عام شركة دولية عملاقة في نيويورك، هي شركة «فيليب برثرز» (Philip Brothers)، وكان مسئولًا عن أنشطة الشركة في الدول العربية والشرق الأوسط، وبالتالي كانت لديه امتيازات منها خطوط للمكالمات الدولية، وآلة المحادثات الثلاثية - وكانت قمة التكنولوچيا في ذلك الوقت - واتفقنا على أن يتصل بي شقيقي مرة كل أسبوع، وفي الوقت نفسه يتصل بوالدي في السعودية، ثم نتحدث نحن الثلاثة في وقتٍ واحدٍ، وبذلك حل مشكلة أبي في الاطمئنان عليَّ، ولم ينسَ والدي أن يؤكد عليَّ عدم ذكر اسم الدولة التي أعمل بها وأتحدث منها - ويقصد إسرائيل - وكذا أي أحداث تتم فيها، خوفًا من أن يكون هاتفه في السعودية مراقبًا، الأمرالذي قد يتسبب له في أزمة أمنية مع السلطات السعودية.

كنت قد قررت أن أقضي مناسبة عيد ميلادي وحدي في شقتي، ولذلك لم أخبر أحدًا من أصدقائي بالأمر، وفي المساء، فوجئت بحضور روبرت وزوجته راحيل إلى شقتي، وقالا لي إنهما يعلمان أن اليوم هو عيد ميلادي، وقدما لي هدية فشكرتهما وقدمت لهما مشروبًا، وطلب روبرت أن نخرج للاحتفال، فأخبرته بأنني قررت عدم الذهاب إلى أي مكان، فإذا به يقول لي إنهما أيضًا قرَّرا عدم

الذهاب إلى أي مكان، وإن الجميع سيحتفلون بعيد ميلادي عندي في بيتي، ولم أدرك ما يقوله حتى فوجئت بطرقات على الباب ودخول عدد كبير من «السُّعاة والسُّفرجية» يحملون أشهى المأكولات، كما حضر عدد من الأشخاص الذين يقومون بخدمة العملاء من فندق «ديبلومات»، وقبل أن أستوعب ما يجري حولي، فوجئت بدخول فرقة موسيقية ومطرب وراقصة، فسألت روبرت وأنا مذهول: «هل أحضرت كل هذا لنا نحن الثلاثة؟»، فقال لي: «بالطبع لا.. فما زالت المفاجأة الثانية لم تأتِ بعد!»، وبمجرد انتهائه من عبارته، فوجئت بدخول مجموعة الأصدقاء الإسرائيليين المشتركين، تبعهم عدد من أصدقائي وزملائي في السفارات، حيث حضرت أنيللي الفنلندية، وآنّا النرويجية، وغيرهما، وكان الأمر مفاجأة لي بجميع المقاييس، وبدأ الحفل الصاخب بالموسيقى والغناء، ثم بدأت الراقصة الشرقية في تقديم عروضها، وكانت المفاجأة الكبرى هي دخول شخصين يحملان صندوقًا كبيرًا مغلفًا بشريط هدايا، ونظرت إلى روبرت متسائلًا: «هل هذا تلفزيون؟»، فقال لي: «اذهب بنفسك وافتحه»، وعندما بدأت في قص الشريط أصابتني حالة من الرعب؛ لأنني وجدت الصندوق يُفتح من الداخل، وظهرت رونا بفستان رائع وهي تحمل هدية لي، وقبلتني مهنئةً، وكنت في حيرة من أمري، ولكنني تعاملت مع الجميع بودٍّ وتقدير، واستمرت الليلة السعيدة بمفاجآتها المتوالية، وكان عيد ميلاد سعيدًا بالنسبة لي، حيث وصل عدد المدعوين إلى 35 مدعوًّا، أضفوا جوًّا من البهجة على المكان، وأدخلوا السعادة إلى نفسي، ثم بدأوا في الانصراف في الثانية صباحًا، ووصل الأمر إلى الوضع المحرج، حيث

بقيت رونا، وآنًا، وروبرت، وزوجته، ولم أدرِ ماذا أفعل، وكان من الطبيعي أن تبقى آنًا وتذهب رونا التي طلبت مني الحديث معها على انفراد، ودخلنا غرفة مكتبي، فقالت لي إنها غير سعيدة بدوني، وإنها أحست الفترة الماضية بالتعاسة والوحدة، وأضافت أنها تعلم أنني بدأت علاقة مع آنًا، فأخبرتها بأنني لن أستمر في علاقتي بها؛ لأنني لم أكن أعلم أنها متزوجة ولديها طفلة صغيرة، وبدت علامات السرور والسعادة على وجه رونا، ثم قالت إنها على استعداد لأن تشاركها آنًا أو غيرها فيَّ، ووعدتني بألا تزعجني بغيرتها عليَّ، مجددة رغبتها في العودة إليَّ، وخرجنا من غرفة المكتب، فوجدت آنًا تطلب من روبرت وزوجته أن يصحبوها معهما، وودعوني فأعربت عن شكري وتقديري لروبرت وزوجته، كما أخبرت آنًا بتقديري لتفهمها الموقف، وأمضت رونا معي ليلة بها الكثير من المشاعر والعواطف.

7

محاولة فاشلة لاغتيال عرفات

*برنامج حافل لزيارة شقيقي إلى تل أبيب :

كنت أنتظر حضور شقيقي سمير إلى تل أبيب في نهاية جولته في دول الخليج ومصر، وأردت أن أعد له برنامجًا حافلًا ومليئًا بالأحداث، فناقشت الأمر مع رونا - بعد عودة علاقتنا - وكذلك مع روبرت، وكان شقيقي قد انفصل عن زوجته الأمريكية تمهيدًا لإتمام إجراءات الطلاق، فطلبت من روبرت أن تقدمه زوجته راحيل إلى إحدى صديقاتها فرحب بذلك، وأخبرني بأن إحدى صديقات راحيل ستقضي مع سمير الليلة الأولى، وإذا سارت الأمور على ما يرام فستظل معه خلال فترة زيارته لتل أبيب.

ووصل سمير من القاهرة على خطوط «إير سيناء»، فاصطحبته إلى فندق «ديبلومات» لتناول الغداء مع روبرت وزوجته وصديقتها، وتم التعارف وتبادل نظرات الإعجاب، وفي المساء أمضينا جميعًا سهرة حافلة، ورقص الجميع ثم تناولنا العشاء في أحد مطاعم تل أبيب الشهيرة، وأمضت صديقة راحيل الليلة مع شقيقي سمير، وفي اليوم التالي ـ وكان يوم جمعة ـ ذهبت مبكرًا إلى السفارة، ثم عدت لاصطحاب سمير إلى مقهى «الإكسودس»، ولحق بنا روبرت وزوجته راحيل وصديقتها، كما لحقت بنا رونا، وتناولنا الغداء في أحد المطاعم المطلة على البحر، ثم عدنا نحن الأربعة إلى شقتي، وقبل التوجه إلى العشاء طلب سمير الانتظار حتى يستقبل مكالمة من سكرتيرته في نيويورك، للتحدث بعد ذلك مع والدنا في السعودية، وتحدثنا بالفعل

مع الوالد والوالدة، واطمأنا علينا، وأكد لهما سمير أنه يقضي وقتًا ممتعًا معي.

وفي صباح اليوم التالي، توجهنا - أنا وسمير ومجموعة روبرت - إلى «حيفا»، وبمجرد وصولنا ذهبنا إلى مطعم لبناني لتناول الإفطار، وأمضينا يومًا حافلًا في معالم «حيفا»، وتحدث روبرت وآفي عن المدينة، قائلين إنها ميناء على البحر الأبيض المتوسط، تقع ما بين الخط الساحلي وسفوح جبل «كرمة»، وقد شيدت على ثلاث طبقات طبوغرافية، الجزء السفلي منها تم تشييده على أرض اقتطعت من البحر، وهذا الجزء هو الخاص بالميناء ومرافقه، أما الجزء الأوسط فتقع به منطقة الأحياء السكنية القديمة، في حين أن الجزء العلوي به أحياء سكنية تنمو بسرعة، وهي مليئة بأشجار الصنوبر والحدائق، وعند مرورنا تذكرت قصر المليونير الإيراني اليهودي الذي حضرت فيه الحفلة التي أعقبت مسابقة ملكة جمال إسرائيل، وتحدث الأصدقاء معنا حول أهمية مدينة «حيفا» كمركز تجاري دولي، كما مررنا على معهد «التخننيون» الشهير، وهو معهد الهندسة التطبيقية في مجالات العلوم والهندسة والقدرات النووية، وكذلك مررنا على جامعة حيفا، وفي المساء عدنا إلى تل أبيب، وتناولنا العشاء في أحد المطاعم المطلة على البحر، ورافقتنا صديقة سمير إلى شقتي لتوديعه قبل أن يغادر تل أبيب في الصباح.

*رسائل تهديد بقتلي:

حضرت حفل استقبال أقامته إحدى السفارات في الأسبوع الأول من ديسمبر، وبعد انتهاء الحفل ذهبت إلى سيارتي لمغادرة المكان، فوجدت داخل مقبض الباب ورقة مطوية عدة مرات لتلائم التجويف الخاص بمقبض باب السيارة، وعندما فتحتها، وجدت بها كمًّا كبيرًا من الشتائم البذيئة لمصر والمصريين، مكتوبة بخط اليد وبعربية ركيكة، فلم أُعر الأمر اهتمامًا، معتقدًا أن أحد الصبية الإسرائيليين، أو حتى عرب إسرائيل، وراء ذلك، وبالتالي لم أبلغ السفير أو الوزير المفوض بما حدث، ولكن خلال أسبوعين تلقيت خمس رسائل جديدة، تتضمن شتائم بذيئة، قبل أن تتطور لتصبح تهديدًا صريحًا بقتلي، وكان انطباعي المبدئي أن مَن يكتب تلك الخطابات لم يتعلم اللغة العربية بشكلٍ جيدٍ، فقد كانت أشبه بكتابات تلميذ في أول المرحلة الابتدائية، وكنت أجد هذه الخطابات مكتوبة أحيانًا على ورق أبيض صغير، وأحيانًا أخرى على جانب ورقة من إحدى الصحف، وبدأ الموضوع يستثير أعصابي لتكراره في أماكن ومواعيد مختلفة، الأمر الذي يعني أن الفاعل يتعقبني في كل مكان؛ لذلك اضطررت لمفاتحة السفير ورويت له ما حدث، فنصحني بإبلاغ الشرطة الإسرائيلية للتحقيق واتخاذ اللازم، واتصلت السكرتيرة بمركز الشرطة فحضر على الفور ملازم أول واثنان من مساعديه بملابس مدنية، وطلب إطلاعه على ما وجدته، فقدَّمت له أربع رسائل تهديد، وكانت الأخيرة تحمل تهديدًا لنا جميعًا: «سنقوم بتصفيتكم واغتيالكم يا كلاب مصر...»، وبدأ التحقيق

الروتيني ومحاولة ربط الأماكن بالتوقيتات بالظروف التي صاحبت وضع هذه الرسائل، ولم يصل إلى نتيجة محددة، وطلب الضابط مني أن يحتفظ بهذه الرسائل لتحليل أي بصمات بخلاف بصماتي عليها، وأكد أنهم سيجرون تحقيقات موسعة وسيبلغني فور وصوله إلى أي نتيجة تشير إلى شخص الفاعل ودوافعه، وغادر مكتبي، ولم أره أو أسمع منه أو من غيره مرة أخرى حتى تركت إسرائيل.

وفي الأسبوع الثاني من ديسمبر، دعتني رونا لحضور عيد ميلاد أعز صديقاتها، وهي مديرة مكتب الملحق الحربي في السفارة البريطانية، وكان الحفل مقامًا في قاعة كبيرة بفندق «شيراتون»، ولم أكن قد التقيت صاحبة عيد الميلاد من قبل، ولذلك فقد قدمت لها هدية رمزية، واستأذنت في الانصراف قبل نهاية الحفل وحضرت رونا لوداعي خارج قاعة الاحتفال، وكنت قد تعاملت معها بحرفية حتى لا يلاحظ أحد وجود علاقة خاصة بيننا، وعندما وصلت إلى سيارتي وجدت رسالة تهديد جديدة في المكان نفسه، واستشطت غضبًا؛ فقد كانت السيارة بالقرب من باب المدخل الرئيسي للموقف الخاص بالفندق، ومن المفترض وجود رقابة أمنية على السيارات الموجودة بالداخل، وسألت المسئولين عن موقف السيارات عما إذا كان أحد قد اقترب من سيارتي فردوا بالنفي، وأصبحت موقنًا من أن الرسالة قد تم وضعها في أثناء تواجدي بحفل عيد الميلاد في الفندق؛ لأنني كنت أتحسس مقبض الباب في كل مرة أستقل فيها سيارتي للتوجه إلى أي مكان، وقد فعلت ذلك قبل توجهي إلى الحفل، وقرأت رسالة التهديد الجديدة،

وكانت رونا تقف بجانبي، وكانت واضحة هذه المرة، موجهة لي شخصيًّا، تحمل تحدِّيًا صريحًا، حيث جاء فيها: «إذا كنت رجلًا فتعالَ إلى مقرنا في يافا، في العنوان التالي...»، وتضمنت الرسالة عنوانًا يشمل اسم الحي والشارع ورقم البناية، ونظرت رونا إليَّ متسائلة عما سأفعل، فقلت بغضب: «سأذهب إلى العنوان المذكور لأضع حدًّا لهذه المهزلة»، فقالت منزعجة: «أرجوك لا تذهب لأن في ذلك مخاطرة وربما يكون مجرد كمين لك»، وأمام إصراري على موقفي، قالت رونا إنها ستنتظرني في شقتي، فأعطيتها نسخة من المفاتيح، وفي أثناء الطريق قررت أن أذهب أولًا إلى السفارة، كانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف مساءً، وحاولت الاتصال بالسفير لكنه كان في دعوة على العشاء، فقررت المضي قدمًا والذهاب إلى العنوان المذكور بخطاب التهديد، وانطلقت بسيارتي إلى «يافا»، وتوقفت أمام البناية المذكورة في العنوان، وكانت في حي تقطنه أكثرية فلسطينية من عرب إسرائيل، ولاحظت بعض الأشخاص يقفون وراء نافذة في الطابق الثاني، فوجهت حديثي لهم قائلًا: «إذا كنتم مَن وجَّه إليَّ رسالة هذا المساء فأنا موجود طبقًا لطلبكم، وأسألكم ماذا تريدون؟ وإذا كان هناك منكم مَن يرغب في التحدث معي فليفعل الآن وإلا فلتمتنعوا عن إرسال رسائلكم السخيفة لي!»، وعلى الفور أطفئت أنوار الغرفة التي بها النافذة ولم يخرج أحد للتحدث معي، انتظرت عشر دقائق على أمل خروج أي شخص لمقابلتي وتبرير ما يحدث، ولكن أحدًا لم يخرج فانصرفت عائدًا إلى تل أبيب.

في اليوم التالي، تحدثت مع السفير الذي أنصت باهتمام وبدت عليه علامات الدهشة عندما ذكرت له أنني ذهبت إلى العنوان المذكور، وعاتبني على هذا التصرف الذي افتقر للحكمة، وللحذر، ولاعتبارات الأمن، لكن الغريب في الأمر أن رسائل التهديد توقفت بعد ذلك، ولم أجد تفسيرًا لما حدث حتى الآن.

*صدور قانون ضم الجولان لإسرائيل:

أصدر الكنيست في يوليو 1980 قانونًا بضم الجزء الشرقي من مدينة القدس إلى إسرائيل، مع التأكيد على وضع القدس الموحدة كعاصمة أبدية لإسرائيل، وأن تكون مقرًّا لكل الوزارات والمكاتب الحكومية، وبذلك تم تحويل الأمر الواقع إلى وضع قانوني جديد، وترتب على ذلك أن سكان القدس الشرقية أصبحوا من «عرب إسرائيل»، وتم منحهم الجنسية الإسرائيلية بعد أن كانوا يحملون الهوية الأردنية منذ عام 1967 وحتى عام 1980، وتحرك المجتمعان العربي والأوروبي كرد فعل على ذلك، ففي 13 يونيو 1981 صدر إعلان قمة البندقية من جانب الدول الأوروبية، والمتضمن وجوب تنفيذ قراري مجلس الأمن رقمي 242 و338 بما في ذلك إعادة الأراضي المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وأعقب ذلك في 17 أغسطس 1981 صدور مبادرة الملك فهد - عاهل المملكة العربية السعودية - للسلام بين إسرائيل والعرب، وفي 4 سبتمبر 1981 صدر مشروع «قمة فاس» للرؤساء العرب، والمتضمن خطة سلام عربية، إلا أن الرد الإسرائيلي جاء في 17 ديسمبر

1981 حين أصدر الكنيست قانونًا بتطبيق القانون والقضاء والإدارة الإسرائيلية على مرتفعات الجولان، وكان ذلك بمثابة ضم فعلي، وللدلالة على رغبة الحكومة الإسرائيلية في ذلك، فقد تم الانتهاء من القراءات الثلاث للقانون - كما تقضي لوائح الكنيست - في يوم واحد، رغم أنه من المعروف أنه في القراءة الأولى يتم عرض مشروع القانون على الكنيست بكامل هيئته، ويجري نقاش، ويحول إلى لجنة الكنيست المعنية لإجراء نقاشٍ مطولٍ، ولإعادة الصياغة إذا اقتضت الضرورة ذلك، ثم يُعرض مشروع القانون للتصويت عليه في القراءة الثانية، ويقوم أعضاء اللجنة بعرضه على الكنيست، وبعد نقاش عام يتم التصويت على كل بند من بنود مشروع القانون، ثم يتم التصويت على مشروع القانون بأكلمه عقب النقاش في القراءة الثالثة، وبعد المصادقة يوقع رئيس جلسة الكنيست، ويُنشر في صحيفة «الوقائع الرسمية» وعليه توقيعات رئيس الدولة، ورئيس الوزراء، ورئيس الكنيست، والوزير المسئول عن تطبيق القانون، ويستغرق هذا عادة من ثلاثة إلى ستة أشهر، وهو ما حدث في يومٍ واحدٍ فقط!

وعلى الرغم من أن القرار لم يذكر كلمة «ضم» الجولان صراحة، إلا أن بيجين وصفها بأنها أصبحت جزءًا لا ينفصل عن إسرائيل، وتم تحويل المنفذ العسكري الإسرائيلي عند «القنيطرة» إلى نقطة حدود دولية، وكان هذا القانون قد صدر في أثناء تواجد وفد مصري لمحادثات الحكم الذاتي برئاسة السفير طاهر ساش، وهو قانوني بارع، وقد تناولت كلمته الافتتاحية في المحادثات - وكنت حاضرًا-

الإعراب عن استياء مصر البالغ من القرار الذي يعتبر بمثابة ضم فعلي للجولان، وهي جزء لا يتجزأ من التراب السوري، كما أعرب عن اندهاش الحكومة المصرية التي فوجئت بالقرار دون أي تشاور من جانب إسرائيل، الأمر الذي يشكك في مصداقية مواقف إسرائيل تجاه المحادثات الجارية بشأن التطبيع والحكم الذاتي، وقد صدرت إدانات دولية ضد إسرائيل لإقدامها على إصدار هذا القانون، فأعلنت أمريكا عن وقف محادثات التعاون الإستراتيـجـي مع إسرائيل كرد على صدور قانون تطبيق القانون والقضاء والإدارة الإسرائيلية على هضبة الجولان السورية.

*رحلتي إلى الجولان والحدود اللبنانية:

وجَّهت وزارة الدفاع الإسرائيلية في منتصف ديسمبر دعوة للسفراء ورؤساء البعثات للقيام برحلة تعد لها وزارة الخارجية الإسرائيلية بالتعاون مع وزارة الدفاع يوم 19 ديسمبر؛ لزيارة الجبهة الشمالية لإسرائيل، والحدود مع الجنوب اللبناني، وكذلك زيارة قرية «كريات شمونة» آخر القرى التي تقع على الحدود مع الجولان، واقترح الوزير المفوض محمد بسيوني أن يُلبي السفير الدعوة، إلا أن السفير رأى أنه من الأصوب الإبراق للقاهرة للحصول على تعليماتها في هذا الشأن، وتوقع أن الخارجية المصرية سترد بتكليف أصغر الدبلوماسيين درجة لإظهار عدم اهتمامها بهذه الرحلة، وفي الوقت نفسه الاطلاع على ما

يحدث في هذه المواقع، ولم أكن أتفق مع رأي السفير، حتى تلقت السفارة الرد برقيًا، وصدقت توقعات السفير، وثبت خطأ تقديري للموقف، وقامت السفارة بإبلاغ الخارجية الإسرائيلية بترحيبها بتلبية الدعوة، ذاكرة أنه تم تكليفي للقيام بهذه المهمة نظرًا لانشغال السفير بارتباطات مسبقة.

وفي الموعد المحدد، ذهبت إلى نقطة التجمع، فوجدت أنني أقل درجة دبلوماسية بين المتواجدين كافة؛ إذ كانت كل سفارة ممثلة إما بالسفير أو بنائب رئيس البعثة نظرًا لعدم تواجد السفير في تل أبيب، وبدأت رحلتنا في حافلة فاخرة تؤمّنها سيارتا شرطة كانتا تعملان على فتح الطريق وتسهيل المرور من نقاط التفتيش العسكرية، ووصلنا أولًا إلى مقر قيادة الجبهة الشمالية على الحدود مع جنوب لبنان، وتضمن برنامج الزيارة تفقد بعض المواقع الأمامية، وقد رأيت على الجانب اللبناني بعض وحدات جيش جنوب لبنان بقيادة سعد حداد، والمعروف أن إسرائيل قد قامت بتشكيله ودعمه، وكانت بصمات المؤسسة العسكرية الإسرائيلية والموساد وآمان واضحة في إعداد وتدريب هذا الجيش ليمثل منطقة عازلة ما بين الميليشيات الفلسطينية وشمال إسرائيل، ولاحظت - من خلال نظارة معظمة - أن وحدات الجيش كانت ترتدي الزي العسكري الإسرائيلي دون «شارات» عبرية، كما كانوا يتنقلون بدبابات وعربات جيب، وهمس أحد السفراء المتواجدين قائلًا: «لقد رأيت عددًا من هذه الدبابات والعربات لم تنزع من عليها أحرف الكلمات العبرية»، وتحدث مندوب المنظمة

الأوروبية بشأن قيام المخابرات الحربية «آمان» - بناءً على تعليمات من شارون، وبموافقة بيجين - بتولي مهمة تدريب وتمويل وإمداد جيش جنوب لبنان بالعتاد والسلاح والذخيرة، وحتى الزي العسكري، كما تولت «الموساد» و«الشين بيت» مهمة تدريب عناصر من هذا الجيش على أساليب الاستجواب والحصول على المعلومات.

وكان برنامج الزيارة يتضمن لقاءً في غرفة عمليات قيادة الجبهة الشمالية، وكانت مفاجأة بالنسبة لي، واستشعرت عدم ارتياح الجانب العسكري الإسرائيلي لمشاركتي بدلًا من السفير المصري، وانتقلت مع بقية الدبلوماسيين في مصاعد هبطت بنا خمسة طوابق تحت الأرض، والتقينا رئيس عمليات الجبهة الشمالية وعددًا من مساعديه، وألقى أحدهم محاضرة عن مخاطر تواجد الميليشيات الفلسطينية على الحدود الإسرائيلية مع لبنان، وكيف حدثت الغارات الفلسطينية وعمليات التفجير، وانتقل بالحديث إلى عملية قامت بها ميليشيات فلسطينية احتجزت عددًا من الأطفال ومعلمتهم بالروضة والمرحلة الابتدائية في قرية «كيريات شيمونة»، وعرض صورًا ملونة للعملية، التي قام فيها الكوماندوز الإسرائيلي بتحرير الرهائن وقتل المختطفين، وانتقل بالحديث عن كيفية جمع المعلومات الاستخبارية عن عادات وتحركات وأسلوب عمل القيادات الفلسطينية، وأوقات تواجدهم في المباني الخاصة بهم، سواء كانت مكاتب أو منازل، واستعرض بالصور ما تم جمعه من معلومات في هذا الشأن، وكيف تم التأكد من تواجد ياسر عرفات في تمام التاسعة صباح كل يوم في مكتبه - كالمعتاد -

وهو المكتب المجاور لمركز الدراسات الإستراتيـچـية الفلسطينية، ومكتبته في بيروت، واستعرض صورًا تم فيها رصد الطابقين الخامس والسادس، وكيف حددوا موقع البناية التي بها مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية، وقد ذكر أكثر من مرة أن معلوماتهم الدقيقة جاءت من عملائهم الفلسطينيين العاملين في الأجنحة السياسية والعسكرية المختلفة داخل منظمة التحرير، مع التأكيد على أن أمن المنظمات والميليشيات الفلسطينية مخترق من جانب أجهزة المخابرات الإسرائيلية المختلفة، واعتلى المنصة ضابط آخر، وبدأ الحديث عن كيفية إعدادهم لخطة العملية، بحيث يتم قصف هذين الطابقين فقط دون هدم البناية بكاملها - والتي تتكون من اثني عشر طابقًا - وكان واضحًا التأكيد أمام السفراء المتواجدين على أنهم قاموا بإجراء حساباتهم وبمخاطر محسوبة، بحيث لا يتم إيذاء أي مدني متواجد في البناية وقت القصف، وبالتالي فقد اقتضت الخطة الإعداد الجيد مع أخذ جميع الاحتمالات في الاعتبار، وأن يتم قصف الطابقين بطائرة مروحية بعد الساعة التاسعة بدقائق حتى يضمنوا تواجد ياسر عرفات في المبنى ومعه أكبر عدد من القيادات الفلسطينية العاملة في منظمة «فتح»، وذكر المُحاضر أن العملية كانت بمثابة عملية جراحية تمت بحرفية وبدقة متناهية، وأن القصف أدى إلى تدمير المكتبة ومركز الدراسات الإستراتيـچـية الفلسطيني، الذي يُعتبر أرشيفه مرجعًا أساسيًّا لقيادات المنظمة، كما لقي عدد كبير من كوادر المنظمة العاملين في المبنى حتفهم، إلا أن ياسر عرفات نجا بأعجوبة، حيث لم يتواجد في موعده المعتاد بسبب تلقيه مكالمة هاتفية من أحد الرؤساء

العرب – كما اتضح لهم فيما بعد – الأمر الذي جعله يتأخر في الذهاب إلى مكتبه بمقر عمله في هذه البناية، كما تم عرض صور للمبنى بعد قصف الطابقين الخامس والسادس فقط بالصواريخ من المروحيات الإسرائيلية.

بعد ذلك اعتلى المنصة محاضر ثالث، تحدث عن عملية أخرى لتصفية ثلاث قيادات فلسطينية، أثبتت معلوماتهم تورطهم في عمليات ضد أهداف إسرائيلية، وبدأ بالحديث عن ملخص للمعلومات التي حصلوا عليها – من عملاء فلسطينيين – حول مقارهم، وقدَّم عرضًا لا أستطيع أن أطلق عليه إلا أنه عرض شيق، حيث بدأ حديثه بأن أي عملية استخبارية ناجحة هي تلك التي لا تُرى أو يُسمع عنها أو تترك خلفها أي أثر، موضحًا أن أسلوب إسرائيل في أي عملية اغتيال يمر بعدة خطوات، على النحو التالي:

1- بعد اتخاذ القرار السياسي والتخطيط المتقن والإعداد الدقيق، يتم تعيين الضابط المشرف على العملية، الذي يرأس ويقوم بتوجيه الضابط الميداني المسئول عن العملية، ويكون ضابط الميدان هو رئيس الفريق الذي يقوم بالتنسيق ما بين خمس مجموعات تتولى تنفيذ العملية.

2- يتم تشكيل المجموعات الخمس على النحو التالي:

أ. مجموعة المراقبة والرصد: تتكون عادة من ثمانية أفراد، بينهم نساء؛ لمراقبة الهدف المطلوب تصفيته، ووضع مخطط للعملية،

ودراسة وتحديد وسائل الانسحاب، ويتم سحب هذه المجموعة قبل تنفيذ العملية مباشرة حتى لا يعيقوا هروب الفرق الرئيسية بعد إتمام العملية.

ب. **مجموعة الاتصالات**: تتكون من فرد أو اثنين، يكون أحدهما في موقع أمامي قريب من العملية، والثاني في مكان آخر.

ج. **المجموعة اللوجيستية**: تتكون غالبًا من رجل وامرأة، وتقوم باستئجار السيارات والمنازل الآمنة، وتدبير كل ما تحتاجه العملية من مهام لوجيستية.

د. **مجموعة التغطية**: وتكون مهمتها تغطية انسحاب فريق الاغتيال، وإعاقة أي محاولات لوقف التنفيذ.

هـ. **مجموعة الاغتيال**: تتكون من شخصين أو ثلاثة – حسب حجم العملية – وتقوم بإطلاق الرصاص وتصفية الهدف.

وأوضح المتحدث أن هذه المجموعات لا تتوجَّه كلها إلى منطقة العمليات من إسرائيل أو من دولة واحدة، بل عبر محطات وسيطة، وبجوازات سفر غير إسرائيلية، والجوازات التي يخرجون بها تكون غير تلك التي دخلوا بها؛ حتى لا يتم اقتفاء أثرهم أو تتبعهم.

ورغم محاولتي بأن أعطي المحاضر وزملاءه انطباعًا باللا مبالاة، إلا أنني في حقيقة الأمر كنت مندهشًا من صراحة المحاضر في توضيح أسلوبهم في عمليات الاغتيال.

وعاد المحاضر للحديث عن عملية اغتيال الكوادر الفلسطينية الثلاثة في ضوء الخطوات السابق ذكرها، وأوضح أن عددًا من المجموعات كانت من الضفادع البشرية التي تم إنزالها ليلًا بالقرب من الشواطئ اللبنانية، وشرح ما قامت به المجموعات المختلفة، وكيف نفذت مجموعة الاغتيال تصفية هذه العناصر في منازلهم، بعد أن تم اقتحامها بعد منتصف الليل وقتل حراسهم ثم إعدامهم بإطلاق الرصاص دون المساس بزوجاتهم وأطفالهم المتواجدين في المنزل، كما أسهب في شرح عملية الانسحاب مع عدم وجود أي خسائر، وعلّق على ذلك بقوله إنه طالما لا تتمكن إسرائيل من إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم، فإن القرار بتصفيتهم في مقارهم يُتخذ درءًا للمزيد من عملياتهم الدموية ضد المواطنين والمدنيين الإسرائيليين الأبرياء، وأنهى حديثه بأن لدى الأجهزة الإسرائيلية القدرة على تجنيد عدد من الكوادر الفلسطينية في مختلف المواقع، وأن هؤلاء العملاء يعلمون جيدًا أن الجانب الإسرائيلي لن يتخلى عنهم في حالة انكشاف أمرهم.

انتهى الجزء الأول من الزيارة التي استهدفت استعراض القدرات الإسرائيلية في جمع المعلومات المخابراتية، ثم وضع الخطة المحكمة والخطة البديلة التي تعتمد على هذه المعلومات، ثم القيام بالتنفيذ، ويلي ذلك الجزء الخاص باستدرار تعاطف السفراء وتفهمهم وإدراكهم للأسباب الحقيقية وراء هذه العمليات، وقد تم ذلك من خلال الذهاب إلى مستوطنة «كريات شيمونة»، حيث تم هناك إعداد الفصل الثاني من المسرحية، وذلك بإعادة تمثيل ما قام به الفدائيون

الفلسطينيون من التسلل إلى المستوطنة المدنية، التي يقطنها مدنيون عُزل، وأن هدف العناصر الفلسطينية كان مداهمة الحضانة والمدرسة الابتدائية واتخاذ الأطفال والطلاب كرهائن ومعهم أي عدد ممكن من المدرسات اللاتي يقمن برعاية وتعليم هؤلاء الأطفال، وكيف قام الفلسطينيون باحتجاز هؤلاء الرهائن للإفراج عن عدد من القيادات الفلسطينية المسجونين لدى إسرائيل، ثم أخذوا السفراء والزائرين لإطلاعهم على الأماكن التي تم فيها الاقتحام والاحتجاز والتفاوض، وأحضروا عددًا من الأطفال الذين كانوا رهائن، وقال مندوبو المستوطنة إن عددًا من الأطفال أصبحوا يعانـون من عقـدة الرهاب ـ الخوف من المجهول ـ بسبب الحادث، وأن المُدرِّسة الوحيدة التي احتُجزت كرهينة قد أعدمت بإطلاق الرصاص عليها من جانب أحد العناصر الفلسطينية لإثبات جدية مطالبهم، واسترسل المُحاضر في شرح كيفية قيام طاقم الكوماندوز بإنقاذ الأطفال ما عدا طفلًا واحدًا قُتل في أثناء عملية الاقتحام، وأشار إلى إقامة نُصب تذكاري للمعلمة التي ضحت بحياتها من أجل البقاء مع الأطفال وعدم تركهم مع تلك العناصر الإرهابية، وأوضح المحاضر أن هذه العملية تمت أوائل عام 1980، وقد لاحظت الكم الهائل من تعاطف السفراء لدرجة أن عددًا منهم صفق إعجابًا بعملية الاقتحام وتحرير الرهائن دون أن يفكروا أو يشعروا، وهنا تذكرت الموقف الذي واجهته عندما كنت أشاهد برنامجًا تلفزيونيًا عن المحرقة، وأدركت أن هذه الزيارة تمثل جانبًا آخر من آلة الإعلام الإسرائيلي المضلل، وأن الزيارة استهدفت إجراء عملية «غسيل مخ» محكمة من خلال المحاضرات وإظهار القدرات

الإسرائيلية في المواقف المختلفة، سواء تجاه تحرير رهائنهم، أو تصفية مَن يقتل المدنيين الإسرائيليين العزل، وبعد انتهاء الجزء الثاني من مسرحية الزيارة، استكملنا الرحلة لزيارة هضبة الجولان، ووقفنا على «خط الهدنة»، ونظرنا جميعًا إلى الأراضي السورية التي تطل عليها هضبة الجولان، ثم تناولنا الغداء في إحدى ثكنات الجيش الإسرائيلي، وبعد عودتنا في المساء إلى تل أبيب، توجهت إلى مكتبي وأعددت تقريرًا كاملًا بما شاهدته، وتحليلي له وتقديري لتوجهات القيادة الإسرائيلية، وكانت رؤيتي أن هذه الزيارة تعد المرحلة الأولى في إعداد وتهيئة السفراء الأجانب للتعاطف مع إسرائيل إذا ما قامت بعمل عسكري على الحدود مع لبنان لتطهير الشريط الحدودي من العناصر الفلسطينية، ودرءًا للمزيد من العلميات التي تقوم بها الميليشيات الفلسطينية التي لا تتمكن منظمة التحرير الفلسطينية من السيطرة عليها.

*المصادفة تقودني إلى صيد ثمين:

عدت إلى منزلي مساء يوم 21 ديسمبر، بعد يوم عمل مرهق، تلاه درس اللغة العبرية، ولم تكن لديَّ أي خطط للخروج؛ إذ كانت رونا مرتبطة بعمل مع سفيرها، ولكن بعد تناول عشائي شعرت بالملل والرغبة في الخروج، فقررت الذهاب إلى فندق «ديبلومات»، ثم غيرت خططي مرة أخرى وتوجهت إلى الملهى الليلي في فندق «رامادا»، وجلست لتناول مشروب، وفي أثناء ذلك لمحت في نهاية قاعة الملهي

سيدتين تجلسان معًا، وتتناولان مشروبًا، وتتحدثان بجدية تبدو على ملامحهما، وكانت إحداهما صغيرة في السن، وجميلة بمعنى الكلمة، بينما كانت الأخرى أكبر سنًا وأقل جمالًا.. ووجدت نفسي أتقدم باتجاههما، ونظرت إلى السيدة الجميلة وطلبت - بطريقة لبقة وأنيقة - يدها للرقص معي، وقد استشعرت نظرة إعجاب من جانبها، قبل أن تقول: «ولمَ لا؟ فالليلة ما زالت في أولها!»، وتحدثت معي بالعبرية، ولاحظت أن لغتي العبرية ليست متقنة، فأخبرتها بأنني رجل أعمال أمريكي يهودي، دائم المرور على إسرائيل لإنجاز مهام عملي، وتجاذبنا أطراف الحديث، وعلمت أن اسمها إيريت، وأن صديقتها تدعى آيلا، وسألتها عن عملها، فقالت إنها تلقت نبأ ترقيتها إلى رتبة نقيب، وذكرت لي موقع عملها في جيش الدفاع الإسرائيلي، وموقع عمل زميلتها وصديقتها، وذُهلت من حساسية موقعيهما، واستشعرت أنني محظوظ للغاية.

بعد ذلك جلسنا وتبادلنا الحديث، وشعرت زميلتها بتنامي إعجاب إيريت بي، فاستأذنت في الانصراف إلى منزلها وتركتنا معًا لنستكمل حديثنا، وشعرت أن الموقف في صالحي، وسألتها إذا ما كنا سنلتقي في اليوم التالي، فقالت إنها ستتوجه إلى مقر عملها خارج تل أبيب، فسألتها إن كانت تقطن وحدها بمنزلها، فقالت إنها ما زالت تعيش مع والديها بعد أن فسخت خطبتها، واقترحت أن نذهب إلى الفندق الذي أقطنه، فأخبرتها بأنني قد استأجرت شقة لكثرة ترددي على تل أبيب، وعندما أخبرتها بعنوان شقتي ضحكت بشدة، قائلة إن جدتها

تسكن في الطابق الأول من البناية نفسها، ووافقت - بعد تردد - على الحضور معي، وفضلت أن تحضر بسيارة أجرة وكأنها ستقضي الليلة عند جدتها، وخرجتُ عائدًا إلى منزلي، وبعد نصف ساعة حضرت، وكانت كل العناصر قد نضجت، وبقينا معًا حتى السادسة صباحًا، ثم ذهبت بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف واتفقنا على اللقاء بعد أسبوع في فندق «رامادا» لتناول العشاء، وأخبرتها بأنني سأسافر إلى أوروبا في رحلة عمل لمدة أسبوع.

وقررت ألا أفوت الفرصة، خاصة أنه لا توجد أي شبهة ترتيب مسبق من قبل «الموساد»، أو «الشين بيت»، أو «آمان»، وفي ضوء معرفتي بموقعها الحساس للغاية قررت اغتنام الفرصة والمضي قدمًا، ولكن بحذرٍ وبدون اندفاع، حتى يقع هذا الصيد الثمين في شباكي، ولم أُطلع أي مخلوق على هذه الأحداث حتى تكتمل تفاصيلها.

*احتفال جماعي بأعياد الميلاد في القدس:

أبلغني رويرت بأنه حجز في فندق «ديبلومات» القدس أربع غرف مزدوجة، له ولآفي ولدان وزوجاتهم، ولديفيد وصديقته الروسية، بينما حجز الجناح الرئاسي لي أنا وورونا لقضاء عطلة أعياد الميلاد، واستحسنت الفكرة، خاصة أنني ذهبت للقدس من قبل مرتين فقط للصلاة في المسجد الأقصى ومشاهدة معالم المدينة، إضافة إلى تواجدي مع شقيقي في أثناء إقامته في فندق «هيلتون» القدس، وقد

سمعت كثيرًا عن الأجواء الفريدة التي تتمتع بها المدينة في فترة أعياد الميلاد، باعتبارها موقع مولد السيد المسيح - عليه السلام - ومهد رسالته.

ونصحني روبرت بعدم الذهاب إلى هناك بسيارتي حتى لا أتعرض لمتاعب الشرطة بسبب وجود لوحة واحدة أمامية، واقترح أن أذهب مع رونا في سيارتها، ووجدت أن الذهاب إلى القدس في هذا الموعد سيكون تجربة فريدة، حيث تتم الاحتفالات في «بيت لحم» ويبث التلفزيون الإسرائيلي الاحتفال المسيحي العربي، والكاثوليكي الأوروبي من الفاتيكان في توقيتٍ واحدٍ، حيث تنقسم الشاشة إلى قسمين لعرض الاحتفالين في الوقت نفسه.

واستأذنت السفير في الذهاب إلى القدس، وطالبني بتوخي الحذر، وذهبنا بالفعل بثلاث سيارات، وكنت مع رونا في سيارتها، وأصبح الجناح المخصص لي أنا ورونا مقرًّا للقاء المجموعة بأكملها قبل الخروج لتناول العشاء، أو التنزه، وبعد عودتنا كذلك، ونصحني روبرت بارتداء البنطلون الجينز والقميص والجاكيت الأسبور مع حذاء رياضي طوال الرحلة، حتى أستطيع الاندماج معهم في وسط الزحام دون لفت الأنظار، وأيدته رونا في ذلك، وفي المساء ذهبنا في جولة سيرًا على الأقدام، وعندما وصلنا إلى محل لبيع الزهور، قال روبرت بالعبرية موجهًا حديثه إلى ديفيد: «إن مالكة هذا المحل هي السيدة شولاميت كوشاك»، فصحح ديفيد له الاسم قائلاً: «إن اسمها شئولا كوهين»، فقال روبرت إن الاسمين لشخص واحد، وسألته رونا إن كان يعرفها،

فقال إنه يعرفها الآن جيدًا نتيجة تعامل الفندق مع محلها عند طلب باقات الزهور، ولكنه لم يكن يعرفها جيدًا عندما كانت تعيش في لبنان؛ فهي لبنانية يهودية، وكانت على علاقة غرامية بضابط لبناني، واستطرد روبرت موضحًا أنها كانت رائعة الجمال في شبابها، الأمر الذي أهلها لتكون عشيقة لمدير كازينو «الأوليمبيا» للقمار، وهو كازينو مشهور في بيروت، اعتاد ارتياده كبار الزعماء والشخصيات اللبنانية، ويُقال إنها - من خلال عشيقها - التقت الرئيس كميل شمعون، ومهدت للقاءات رفيعة المستوى بين مسئولين لبنانيين وإسرائيليين، ويتردد أنها أعدت للقاء بين السيد أديب الشيشكلي، وبين رئيس الأركان الإسرائيلي عام 1954، وأنها من خلال اتصالاتها الرفيعة استطاعت الحصول على صورة البروتوكول الأمني المبرم بين سوريا ولبنان، وأنها كانت تزور إسرائيل بانتظام عن طريق إسطنبول، وأن المخابرات اللبنانية اعتقلتها عام 1961 بتهمة تشكيل عدد من الخلايا التي تعمل لحساب «الموساد» داخل لبنان وسوريا، وتم تسليمها إلى سوريا لتقضي في السجن ست سنوات، قبل أن يفرج عنها في صفقة تبادل للأسرى مع السوريين عقب حرب 1967، وبعدها حضرت إلى إسرائيل لتمتلك هذا المحل الأنيق لبيع الزهور، كان روبرت يستعرض معلوماته عنها، فسألته عن مصدر كل هذه المعلومات عنها، فقال إنها كانت صديقة لوالدته، وكانت تحكي قصتها أمامه، وسألته إن كان ذلك قد حدث في لبنان، فقال بل في تل أبيب، وأضاف موضحًا أن والديه يحضران لزيارته من لبنان مرة على الأقل في السنة، ويتم تسهيل دخولهما إلى إسرائيل من خلال جيش جنوب لبنان، ويعودان بالطريقة نفسها.

وفي مساء 24 ديسمبر، ذهبنا جميعًا إلى «بيت لحم» لمشاهدة قُدَّاس عيد الميلاد المجيد، ولاحظت الأعداد الكبيرة من المسيحيين الفلسطينيين، إضافة إلى السائحين المسيحيين من أنحاء العالم كافة، وكانت مجموعتنا من ضمن الحشود المتواجدة، وحرص روبرت والآخرين على أن يكونوا قريبين مني ومن رونا، وأوضح لنا روبرت فيما بعد أنه كان يخشى من تسلل عناصر فلسطينية متشددة وسط الزحام؛ لتطعن السائحين المتواجدين في هذا الموقع بأسلحة بيضاء، من أجل إثارة الذعر في الحشد الكبير، ومن ثم إفساد هذه المناسبة.

وبعد جولتنا الشيقة، ذهبنا إلى أحد المطاعم الروسية بناءً على رغبة ديفيد وصديقته الروسية، وتناولنا العشاء على أنغام الموسيقى، ثم عدنا إلى الفندق لنجتمع كلنا في الجناح الخاص بي، ودار حديث عن الجيش الإسرائيلي، وسن الخدمة بالاحتياط، حيث شرح آفي الأمر، قائلًا إن الجيش الإسرائيلي عبارة عن جيش عامل، ومجندين، واحتياط، وإن الخدمة العسكرية واجب على كل من بلغ الثامنة عشرة، من الذكور والإناث، ولمدة ثلاث سنوات، وهناك استثناءات متعارف عليها، كالفتيات المتزوجات، أو الشباب الذين يكرسون حياتهم لخدمة الدين اليهودي، وأوضح أن سن الخدمة بالاحتياط قد تم مده إلى خمسة وأربعين عامًا، الأمر الذي يعني أن كل فرد في إسرائيل يجيد استخدام السلاح، كما يتم استدعاء المدنيين تحت الاحتياط لمدة أسبوعين سنويًا، وقد تصل هذه المدة إلى خمسة أسابيع متقطعة؛ للتدريب على النظم الحديثة في التسلح والقتال والاتصالات، وبذلك يحافظ جيش

الدفاع الإسرائيلي على مستوى عالٍ من المهارات القتالية لقواته، كما يحتفظ كل جندي - حتى الاحتياط - بسلاحه وملابسه العسكرية ليكون مستعدًّا لتلبية نداء الجيش إذا ما تطلب الأمر ذلك، وهنا قاطعته رونا لتتأكد من معلومة شائعة في السفارات الأجنبية، تتعلق باستدعاء الاحتياط وفقًا لرموز كودية متفق عليها تُذاع من راديو إسرائيل، وقد أكد المعلومة، قائلًا إن جميع المواطنين - رجالًا ونساءً- من ملاك أو قادة السيارات الخاصة أو العامة يلتزمون بالتوقف ونقل المجندين والاحتياط إلى وحداتهم في أثناء استدعائهم في حالات الطوارئ، تسهيلًا لانتقالهم، وإذا رفض أحدهم القيام بهذه الخدمة يتعرض للمساءلة القانونية.

انتقل الحديث بعد ذلك إلى حرب أكتوبر 1973، وسألتهم إن كانوا قد شاركوا في الحرب، وفي أي جبهة قاتلوا، فقال ديفيد إنه لم يشارك، في حين ذكر روبرت وآفي أنهما شاركا في الحرب على جبهة الجولان، وقال آفي إن إسرائيل فقدت ما يقرب من 2700 قتيل في حرب 73، وما يزيد على ستة آلاف جريح، مضيفًا أنه في مجتمع صغير كإسرائيل، فإن تلك الأرقام تعادل فقد الولايات المتحدة لمائتي ألف قتيل، وقرابة مليون جريح، واسترسل قائلًا: «هل تعلم أن لدى إسرائيل عشرة آلاف نُصب تذكاري لحروبها، وهذا الرقم يعني أن هناك نُصبًا تذكاريًّا لكل سبعة عشر جنديًّا سقطوا في الحرب»، وبرر ذلك بأن إسرائيل بلد صغير المساحة، محدود المصادر البشرية، وضيق النطاق الجغرافي إلى درجة يعرف فيها الفرد الجميع، وبالتالي فهناك

مصاب في كل عائلة سواء كان من أسرته، أو أقاربه، أو جيرانه، أو حتى أصدقائه، وذلك بسبب كثرة الحروب وارتفاع عدد القتلى والمصابين والجرحى.

*إخبار إيريت بحقيقة وظيفتي:

في مساء 28 ديسمبر اتصلت من تليفون عمومي بإيريت، وسألتها بالعبرية: «هل نحن على موعدنا للعشاء؟»، فقالت: «بكل سرور»، والتقينا في أحد المطاعم لتناول عشاء سريع، ثم عدنا إلى منزلي، ولكنها لم تصعد معي، حيث مرَّت على جدتها لبضع دقائق، ثم صعدت إلى شقتي، وأمضينا الوقت معًا، وفكرت في مصارحتها بحقيقتي؛ لأنها بالتأكيد ستعرف ذلك آجلًا أو عاجلًا، واتخذت قراري بإخبارها، فقلت لها بلا مقدمات: «أنا دبلوماسي مصري، ولست رجل أعمال يهودي أمريكي كما أخبرتك، وإنني أقدم اعتذاري عن هذه الكذبة البيضاء، ولأنني لم أكن صريحًا معكِ منذ البداية، والسبب الحقيقي هو أنني شعرت بانجذاب كبير نحوكِ»، كانت تنصت إلى ما أقول، وقد بدا عليها الاضطراب، ثم قالت بغضب: «نحن كضباط جيش، خاصة في تلك المواقع الحساسة، ليس من المفترض أن نكون على اتصال بأعضاء السفارات، ومن الجيد تدارك الأمر، خاصة أنني لم أذكر لقائي معك الأسبوع الماضي، ولقائي معك الآن حتى لأعز صديقاتي الرائد آيلا، والتي سألتني عما حدث بيننا، فقلت لها إنك كنت مسافرًا في الساعات الأولى من الصباح إلى الولايات المتحدة، وإننا اتفقنا على

اللقاء في حالة مرورك على تل أبيب..»، فقاطعتها قائلًا: «إنني أتفهم ذلك، والأمر في يدكِ ولك حرية الاختيار في عدم اللقاء مرة أخرى، ولكن يمكننا أن نلتقي في تكتم وسرية شديدين، والأصح أن يكون ذلك في منزلي، مستثمرين إقامة جدتك العجوز في البناية نفسها، وبالتالي يمكننا الاتفاق على موعد وموعد بديل في حالة تعذر الحضور في الموعد الأول»، كانت تنصت دون أن يبدو على وجهها أي رد فعل، فاستطردت قائلًا: «من جانبي، فأنا لا أريد أن أعرف شيئًا عن طبيعة عملكِ، ولن أتحدث أيضًا عن طبيعة عملي، وستكون لقاءاتنا مقتصرة على قضاء أوقات رائعة بين شخصين بينهما توافق وانجذاب، كالتي حدثت من قبل، وعمومًا فأنا لا أطلب منكِ الرد الآن، سأنتظركِ غدًا من الثامنة وحتى التاسعة مساءً، وإذا لم تحضري فسأعلم أنكِ قررتِ الاكتفاء بهذا القدر، وإذا حضرتِ فسأكون سعيدًا للغاية، وسألتزم بما اتفقنا عليه طوال فترة هذه العلاقة».

أنهيت كلامي، وكنت راضيًا عن طريقة تعاملي معها، ولم أستطع في مساء اليوم التالي توقع إن كانت ستحضر أم لا، وفي التاسعة إلا خمس دقائق سمعت طرقًا هامسًا على الباب، وعندما فتحت وجدت إيريت تقف أمامي، وقبل أن تدخل قالت لي: «على الرغم من قصر مدة تعارفنا، إلا أن ما بيننا مثَّل الكثير بالنسبة لي، وإذا التزمت بوعدك من ناحية عدم الحديث عن العمل، فسأكمل معك هذه المغامرة المحسوبة»، ودخلنا لنقضي وقتًا ممتعًا، ولم نتحدث عن عملها أو عملي، رغم أننا تحدثنا كثيرًا، في الثقافة والسياحة والبنوك والاقتصاد،

وشاهدنا فيلمًا بالتلفزيون، ثم غادرت في الثانية صباحًا إلى شقة جدتها، واستمر هذا الوضع في لقاءات تالية، وبدأت تشعر بالاطمئنان معي، وبمرور الوقت، شعرت أن إيريت وقعت في حبي وانجذبت نحوي بشدة، واستشعرت أنها في يوم من الأيام ستكون مصدرًا للمعلومات بالنسبة لي.

*حدث غير سعيد في السنة الجديدة :

تلقيت اثنتي عشرة دعوة لقضاء رأس السنة الميلادية، في اثني عشر مكانًا مختلفًا، وكان أصحاب كل دعوة يصرون على حضوري، وذكرت ذلك لروبرت وهو يدعوني لقضاء هذه المناسبة معه هو وزوجته ومجموعة أصدقائه، فعلّق قائلًا: «إن هذا يعني أن علاقاتك الاجتماعية متميزة وصداقاتك حقيقية، كما يعني أنك شخص محبوب ومرغوب في حضوره من الأوساط الاجتماعية الإسرائيلية، ولكن هل ستضع أولوياتك بالشكل الصحيح؟»، فأخبرته بأنني سأحضر الاحتفال معه بلا شك، ولكن ذلك سيكون في وقت متأخر بعض الشيء، والتقيت رونا في فندق «هيلتون»، وبدأت سهرتي بتلبية دعوة من مجموعة من اليهود المصريين، وسألوني بمجرد دخولي إذا ما كانت رونا زوجتي، وأجاب كلانا بالنفي، مؤكدين أننا زملاء في العمل، وكان عشاءً راقصًا، ولم أُقبّل رونا - كبقية المدعوين - لحظة منتصف الليل، وتعاملنا أمام الجميع كزملاء، واستأذنت مغادرًا إلى حفل آخر أقامه آفي وزوجته

اليمنية في منزلهما، وكان به عدد من اليمنيات اليهوديات، وانسحبنا – أنا ورونا – بهدوء قبل الثانية صباحًا؛ لنتوجه بسيارتينا إلى فندق «ديبلومات» حيث أقام روبرت وزوجته راحيل حفلًا في الملهى الليلي بالفندق، وكان يحضره عدد من الشخصيات، ومن ضمنهم ديفيد ليفي وزير الإسكان – مغربي الأصل – وزوجته، وعدد كبير من أصدقاء روبرت اللبنانيين والسوريين، وكان حفلًا صاخبًا مليئًا بالمشروبات والمأكولات الشرقية، والرقص على أنغام فرقة موسيقية أجادت في عزفها، وانسحبت ـ للمرة الثالثة ـ في الرابعة والنصف صباحًا، والحفل ما زال مستمرًّا، وحضرت رونا بعدي إلى منزلي، وانتهى عام 1981 المليء بالأحداث والمغامرات، وتساءلت كيف سيكون عام 1982، وماذا يخبئه لي القدر؟ وتمنى كل منا للآخر عامًا سعيدًا مليئًا بالصحة والسعادة والتوفيق، ولم يكن كلانا يعلم ماذا يخبئه لنا القدر في العام الجديد!

وفي الأسبوع الأول من يناير، بدأت ألاحظ علامات القلق والتوتر على رونا، وعندما سألتها عن السبب، أخبرتني بأنها تشعر منذ أيام بحالة من الغثيان المتكرر، فنصحتها بسرعة زيارة طبيب للاطمئنان على صحتها، وفي اليوم التالي صدق حدسي فيما توقعت، و دار بيننا حديث قصير، ظهر خلاله اتفاقنا في الرأي للتخلص من الأمر بسرعة، وأبلغتني بأنها حددت موعدًا بعد يومين لزيارة أخرى إلى الطبيب في عيادته، واستعانت بزميلة لها – محل ثقتها – للإقامة معها في منزلها حتى تتعافى، ولم تخبر صديقتها عن السبب الحقيقي حفاظًا على خصوصيتنا، وبقي الأمر سرًّا بيني وبينها فقط، وعقب ذلك ذهبت

للاطمئنان عليها بهدف دعمها نفسيًّا على تخطي هذه المرحلة، وقد ساعد هذا الأمر في توطيد علاقتنا بشكل أكبر.

وكان لديَّ موعد مسبق مع إيريت في الأسبوع الثاني من يناير، وقد فاجأتني بالحضور مبكرة عن موعدها، لكن كانت هناك مفاجأة أخرى أكثر إثارة؛ إذ حضرت هذه المرة وهي مرتدية الزي العسكري، مبررة ذلك بأنها حضرت من الجبهة مباشرة إلى شقتي، ونظرت إليها وهي ترتدي اللون «الكاكي»، و«الفاروقية والإسبلايت»، وعليها ثلاثة نجوم، ولا أدري لماذا استهواني هذا الموقف تمامًا، فقد انتابني إحساس بأنني أسيطر على جيش الدفاع الإسرائيلي في تلك اللحظات، ورغم ذلك فقد حافظت خلال اللقاء على نهجي في عدم القيام بفتح أي موضوعات تتعلق بعملها، واتفقنا على اللقاء في الأسبوع التالي، وغادرت إلى جدتها بعد منتصف الليل.

*معلوماتي عن لقاءات إسرائيلية لبنانية :

كانت السفارات الغربية في تل أبيب تعلم بوجود اتصالات قوية بين «الموساد» و«آمان» من جانب، والميليشيات المسيحية اللبنانية «الفلانجا» من جانب آخر، وذلك منذ عام 1974 عندما أعربت الطوائف المسيحية عن تخوفها من تحالف الطوائف المسلمة مع المنظمات الفلسطينية، وقد تركزت الاتصالات خلال الحرب الأهلية عامي 1975 و 1976 مع حزب الكتائب وقيادته من آل «الجميل»، بعد

المساعدات التي قدمتها إسرائيل إلى ميليشيات «الفلانجة» خلال تلك الحرب، بما سمح للموساد بفتح محطة له في لبنان في ميناء «چونية» (Jounieh) بشمال بيروت، وكان نظرائي في السفارات يتحدثون معي عن ذلك، وأفادوني بوجود محطة اتصالات في هذا الموقع – الذي يقع تحت السيطرة التامة من جانب أسرة الجميل – وكان معلومًا أيضًا لدى السفارات أن ديفيد كيمخي يتولى اتصالات «الموساد» في لبنان، حتى وهو في موقعه بالخارجية، وقد تحدث بعضهم أيضًا عن رحلات عمل قام بها ضباط اتصال من وزارة الدفاع الإسرائيلية لهذه المحطة - في بيروت - حيث أقاموا نظم اتصالات خاصة بهم في الميناء، وكان روبرت ياديد أحد المترددين على بيروت من وقتٍ لآخر، وقد أبلغني بتفاخر أنه يستطيع الذهاب في أي وقت يرغب فيه إلى بيروت، وأنه سيذهب في اليوم التالي لاصطحاب والديه وشقيقته لحضور إحدى المناسبات العائلية في تل أبيب، وقد دعاني إلى هذه المناسبة، وكانت مفاجأة لي أن غالبية الحاضرين كانوا من اللبنانيين اليهود، وقد حضر بعضهم من لبنان، وتحدثت مع والدي روبرت اللذين رحبا بي وتحدثا عن ظروف معيشتهما في لبنان، وقال والده إنهم يحضرون ثلاث مرات سنويًا لرؤية روبرت وأولاده من زوجته الأولى، وإن ذلك كان متعذرًا في البداية، إلا أن جيش جنوب لبنان يقوم بمساعدتهم وتسهيل مهمة انتقالهم لزيارة روبرت في تل أبيب، وأضاف أنه ما زال هو وعائلته يحتفظون بجوازات سفر لبنانية، إلا أنهم يسلمونها للمسئولين في جيش جنوب لبنان عند المرور من المنفذ الإسرائيلي، ويحصلون على هوية مؤقتة عند الدخول، ويعودون بالطريقة نفسها.

وفي أثناء الحفل سمعت اثنين من الحاضرين يتحدثان عن لقاء سري عقد في «چـنيف» يوم الثامن من يناير، بين شارون وإبراشا تامير، مع شخصية سورية رفيعة المستوى، وقال أحد المتحدثين إنه سمع أن هذه الشخصية هي رفعت الأسد – شقيق الرئيس الراحل حافظ الأسد، ورجل المخابرات القوي في النظام السوري آنذاك – وأن الاجتماع تم بناءً على طلب إسرائيلي – بوساطة سويسرية – وكان الهدف من اللقاء هو الاتفاق مع الجانب السوري على تقويض وإضعاف منظمة التحرير الفلسطينية، وعلى تقسيم النفوذ في لبنان بشكل عملي بين المسلمين والمسيحيين، ولم يُسفر الاجتماع عن أي نتائج تذكر.

*مصر وإسرائيل وقوات حفظ السلام :

كثر الحديث في الأسبوع الأول من يناير 1982 عن قوات حفظ السلام، وتطورات المفاوضات بشأنها، وكان من المفترض أن يتم توجيه رسائل من وزراء خارجية الدول الأربع المشاركة في قوات حفظ السلام إلى وزيري خارجية مصر وإسرائيل، وكنت على اتصال مستمر مع رونا فيما يتعلق بتطورات إنشاء هذه القوات باعتبار أن المملكة المتحدة هي إحدى الدول الأربع التي تم الاتفاق عليها ما بين مصر وإسرائيل للمشاركة في تكوين وإنشاء قوة حفظ السلام، وفي إطار تبادل المعلومات المعتاد بيني وبين رونا – حيث كنت أمدها بمعلومات خاصة بتطور مفاوضات التطبيع والحكم الذاتي – سألتها

عن نص الرسالة التي سيتم تسليمها في القدس والقاهرة بعدها بيومين، وترددت رونا، فأبلغتها بأن نص الرسالة عندما يتم تسليمه في القاهرة، سيتم إرساله أيضًا إلى السفارة المصرية في تل أبيب، وبالتالي فإنها ـ في الحقيقة ـ لا تمدني بمعلومات مصنفة بدرجة «سري» أو «سري للغاية»، بل «محظور» فقط؛ لأن الجانب الإسرائيلي سيقوم ـ فيما بعد ـ بتسريبها للصحافة والإعلام.

واقتنعت رونا بكلامي ووافتني بنص الرسالة، وقد أبرقت السفارة بها إلى مكتب السيد النائب كمال باعتبار أن هذا ما قد حصلت عليه من مصادري، حتى تُتاح الفرصة لدراسة نص الرسالة وما تحتويه من سلبيات وإيجابيات ـ مبكرًا ـ ليتمكن الجانب المصري بعد دراسة النص والرد في حالة اعتراضه على أي جزء من الصياغة، سواء في شقها السياسي، أو القانوني، أو شق الالتزامات المالية، وأخبرتني رونا بأنه في اليوم المحدد لتسليم الرسائل للجانبين المصري والإسرائيلي، تم إرسال برقية رمزية «عاجل جدًّا» لسفراء الدول الأربع في تل أبيب والقاهرة، وطلبوا فيها تأجيل إجراء اللقاء لوجود بعض التعديلات التي ستتم على نص الرسالة، وتلقيت بعد ذلك اتصالًا من رونا طلبت مني فيه ضرورة عقد لقاء لمجلس إدارة جمعية الدبلوماسيين بسرعة، وكان هذا هو «الكود» الذي بيني وبينها في حالة وجود أمر عاجل، وبالفعل طلبت عقد اجتماع جمعية الدبلوماسيين، واتصلت بالزملاء الآخرين وأقنعتهم بضرورة عقد اللقاء، والتقينا جميعًا في تمام الخامسة مساءً، وأبلغتهم بأنني اتفقت مع كل من الجنرال أبراشا تامير،

ودیفید کیمخي، على ترتیب لقاء مع كلٍّ منهما، وتحدثنا عن ترتيبات اللقائين، وبعد انتهاء الاجتماع انصرف الجميع وبقيت مع رونا في غرفة الاجتماعات بحجة صياغة خطاب افتتاح اللقاء الأول، وسألتني إذا ما كنت قد أرسلت نص الرسالة التي ستسلم مساء اليوم، فهززت رأسي علامة الإيجاب، فقالت إنها تلقت برقية رمزية عاجلة تطلب من سفيرها تأجيل اللقاء مع وزير الخارجية شامير بسبب إجراء تعديلات في نص الرسالة، وإنها تتوقع أن تتم التعديلات بسبب أمور قانونية في أكثر من عبارة في صياغة النص، وقالت إنها تتوقع تلقي النص الجديد خلال يومين، وأخبرتها بأنني سأعرض الأمر على السفير المصري لإطلاع القاهرة على الأمر واعتبار النص الأول كأن لم يكن، فبدت عليها علامات الارتياح، وبدأنا في صياغة خطاب الجمعية، ثم انصرفنا إلى سفارتينا، وأطلعت السفير سعد مرتضى على ما حدث، وأرسلنا إلى القاهرة، وبعد يومين - كما توقعت رونا - طلب السفراء الأربعة لقاء وزيري خارجية مصر وإسرائيل، وطلبت من رونا نص الرسالة الجديدة، وأعطتني إياها في ضوء أنه سيتم تسليمها في اليوم التالي، وقامت السفارة بإرسال النص الجديد، وكان الجزء الجديد يتضمن الشقين القانوني والمالي، وقد دفعت رونا ثمن هذا الأمر غاليًا باعتبارها ارتكبت جرمًا في حق إسرائيل!

8

غزو لبنان
الذي لم يتم

*معلومات خطيرة من يوديت وإيريت:

انتهيت من عملي مبكرًا يوم 10 يناير، وكنت قد اتفقت مع روبرت على اللقاء في التاسعة مساءً، فقررت التوجه إلى فندق «هيلتون» حتى يحين موعدي معه، وفي طريقي إلى الفندق وقفت في إشارة المرور إلى جوار سيارة صغيرة، ونظرت باتجاهها فشاهدت قائد السيارة وبجانبه سيدة في المقعد الأمامي، وفي المقعد الخلفي كانت تجلس سيدة شقراء تبدو في الثلاثين من عمرها، وكانت تبكي بشدة وهي تتحدث مع السائق والسيدة التي تجلس إلى جواره، وكانت تشير بإصبعها باتجاهي، فنظر هو والسيدة التي بجانبه إليَّ باندهاش، وفي هذه اللحظة تغيرت الإشارة إلى اللون الأخضر، فانطلقت بسيارتي، ولاحظت أن سائق السيارة الصغيرة يحاول اللحاق بي، وتأكدت من ظنوني عندما وجدته يضيء أنوار سيارته للتوقف، وبالفعل انتحيت جانبًا، فنزل من سيارته وتوجه نحوي وأنا في حيرة من أمري، وبدأ حديثه بالعبرية قائلًا إنه وزوجته في السيارة، وإن السيدة التي خلفه هي شقيقة زوجته، وقد أتمت إجراءات طلاقها منذ نصف ساعة، وكانوا عائدين إلى المنزل، لكن شقيقة زوجته كانت في حالة حزن وبكاء شديدين، وإنه سألها - على سبيل المداعبة - عما تريد، مؤكدًا لها أنه سيفعل أي شيء للتهوين عليها، فإذا بها تقول له: «إذا أردت أن تُفرج عني فيمكن لك أن تقدمني إلى شخص وسيم، وليكن سائق السيارة التي بجوارنا!»، فنظر باتجاهي هو وزوجته، ووعدها بأن يفعل ذلك مهما كلفه الأمر، ثم سألني إن كان من الممكن أن أدعو شقيقة

زوجته على العشاء، مؤكدًا أنه على استعداد لتحمل التكاليف، واعدًا بأن يحضر بعد الانتهاء من العشاء لاصطحابها إلى بيته الذي تقيم فيه لمدة أسبوعين.

توجست خيفة في البداية، ثم فكرت في أن الأمر تم مصادفة ومن الصعب أن يكون مخططًا له؛ لذلك فقد وافقت بعد تردد بسيط، وأبديت له موافقتي فذهب إلى سيارته ليحضرها إليَّ، وقدمت لي نفسها باسم يوديت، وقدمت لها نفسي باسمي الحقيقي، ثم دعوتها لتناول العشاء في أحد المطاعم، وفي الطريق بدأت هي الحديث عن علاقة الحب التي عاشتها مع زوجها، قبل أن تكتشف علاقاته النسائية المتعددة، وقالت إنها لم تتحمل ذلك وأرادت أن تُقدم على عمل مشابه، إلا أنها قررت عدم الانسياق في هذا الاتجاه، وفي أثناء حديثها ذكرت أنه في إطار عملها يتوجب عليها التغيب عن منزلها لأوقات طويلة كانت تصل أحيانًا إلى أسبوعين، وعندما سألتها عن هذا العمل الذي يجعلها تغيب عن منزلها لمدة أسبوعين، فاجأني ردها كالصاعقة؛ فقد كانت تحمل رتبة رائد في جيش الدفاع الإسرائيلي، وتعمل في موقع حساس للغاية، ورغم المفاجأة إلا أنني تظاهرت بعدم اكتراثي للأمر، وسألتها عن عمل زوجها فأجابت بأنه مهندس في إحدى شركات المقاولات، وقالت إنها قررت طلب الطلاق، وفوجئت بأن زوجها يوافقها تمامًا على مطلبها مما يعني أن لديه علاقة أخرى ثابتة، وشرحت لي مدى حزنها لذلك، وقالت إنها كانت لا تعرف طريقة لإسكات زوج شقيقتها وإلحاحه عليها لتخرج من حالة الحزن التي عليها، فأرادت

تعجيزه عندما شاهدتني في السيارة، وقالت له إنها تريد أن يقدمها إليَّ، وفوجئت به يسعى حثيثًا لتحقيق ذلك، كما فوجئت أكثر بموافقتي على طلبه المتهور، وسألتني عن عملي، وسبب وجودي في إسرائيل، خاصة أن لغتي العبرية ليست جيدة، فأخبرتها بحقيقة عملي، وقلت لها إنني أتعلم اللغة العبرية؛ لأنني من المفترض أن أبقى في تل أبيب لأربع سنوات، وأخبرتها بمعرفتي بالمحاذير التي يفرضها عملها، وطلبت منها ألا تتحدث معي عن عملها وألا تسألني عن عملي، وأن نكتفي بقضاء وقت سعيد معًا، ولاحظت أنها مستغرقة في التفكير، فسألتها عما إذا كانت في وضع يسمح لها باستكمال السهرة بعد العشاء، أو - باعتباري رجلًا مهذبًا - أن أعيدها إلى منزل شقيقتها؟ وبدلًا من أن تجيب عن سؤالي، سألتني إن كنت أقيم بمفردي، وبعد أن عرفت الإجابة، اقترحت أن نذهب إلى منزلي لتناول القهوة، ثم أقوم بتوصيلها إلى منزل شقيقتها بعد ذلك، ولكن فنجان القهوة امتد إلى الصباح، حيث غادرت شقتي في الصباح الباكر، وكنت حائرًا، ولا أعرف إن كانت مدفوعة باتجاهي أم لا، ورغم ذلك فقد قررت أن أمضي قدمًا في هذه العلاقة الجديدة، ولكن بحذر.

وفي صباح 14 يناير، التقيت يوديت في منزل شقيقتها، وكانت هي وزوجها في العمل، وبعد قضاء بعض الوقت معها، بدأت يوديت تتحدث عن لبنان وتطلعها لزيارته، وقلت لها إن جيش جنوب لبنان يستطيع تسهيل ذلك، وأخبرتها بأنني أعرف عددًا من الأصدقاء اللبنانيين اليهود الذين يزورون لبنان من هذا الطريق، ففوجئت بها تقول

لي إن إيريك – تقصد شارون – قد قام أول أمس بزيارة إلى بيروت، وعاد في اليوم نفسه! وكان لهذا الخبر وقع الصاعقة عليَّ، ولكنني تظاهرت بأنني أعلم ذلك، ولم أستطرد في الحديث عن هذا الخبر رغم فضولي الشديد!

وفي المساء التقيت إيريت، وأخبرتها بأنني على علم بزيارة شارون للبنان يوم 12 يناير، وسألتها إن كانت قد ذهبت معه، فنفت ذلك، ثم بدأت تروي تفاصيل الزيارة، قائلة إنه غادر على متن طائرة هليكوبتر من الوحدة الجوية الأولى لسلاح الهليكوبتر من مطار عسكري بالقرب من تل أبيب، وقد رافقه في هذه الرحلة مساعد رئيس الأركان – وقد علمت فيما بعد أنه الجنرال موشي ليفي – والجنرال أبراشا تامير مستشار بيجين العسكري، وكذا رئيس هيئة العمليات، ورئيس المخابرات الحربية – وقد علمت فيما بعد أنه الجنرال يهوشع ساغي – بالإضافة إلى طاقم من الأجهزة الأمنية، ثم سألتني عمَّن أخبرني بهذه الرحلة في ضوء كونها سرية للغاية، وقلت لها إن السفير المصري هو الذي أخبرني بذلك ولا أعلم مصادره، فواصلت إيريت سرد التفاصيل، قائلة إن الوفد هبط في محطة توليد الكهرباء في «الزوق» بمنطقة «جونية»، وكان في استقبالهم بشير الجميل – القيادي في «حزب الكتائب» آنذاك – وعدد من المقربين إليه، وتناول الجميع مأدبة عشاء، ثم تم ترتيب لقاء بين شارون وكميل شمعون، وبيار الجميل، حيث أطلعهما على ما تقوم به الميليشيات الفلسطينية من عمليات في شمال إسرائيل، مؤكدًا تصميم إسرائيل على القيام بعملية عسكرية محدودة لمسافة 45 كيلو مترًا داخل الحدود

اللبنانية بهدف تدمير البنية العسكرية والجهاز السياسي الفلسطيني، والتصدي - إذا ما اقتضى الأمر - للقوات السورية في حال تدخلها، واقترح شارون عدم مشاركة القوات اللبنانية في هذه العملية، مفضلًا عدم تواجدها في مناطق القتال حتى لا تقع بها خسائر بشرية، وقد وافقت قيادة الكتائب على ذلك من ناحية المبدأ، على أن يتم تحديد إطار وآليات التنفيذ خلال اجتماعات لاحقة للتنسيق بين الجانبين!

كنت أستمع إلى إيريت متظاهرًا بالهدوء، إلا أنني في حقيقة الأمر كنت في حالة ذهول من خطورة وحجم ودقة هذه المعلومات، حيث إن زيارة على هذا المستوى تعني جدية الجانب الإسرائيلي في تنفيذ هذه العملية، وفي صباح اليوم التالي أطلعت السفير سعد مرتضى على كل شيء، لكنه أبدى تشككه في صحة هذه الوقائع، مستبعدًا قيام شارون بمثل هذه الزيارة، وبالتالي استقر رأيه على عدم إبلاغ القاهرة حتى يتم تأكيد هذه المعلومات الخطيرة من أكثر من مصدر في مرحلة لاحقة.

*زيارة وفد عسكري لبناني لإسرائيل:

أخبرتني يوديت - في اتصال تليفوني - يوم 24 يناير بأن طليقها غادر شقتهما نهائيًا، وبالتالي ستكون لقاءاتنا من الآن فصاعدًا عندها في شقتها، وطلبت مني الذهاب إليها يوم 26 يناير؛ لأنها ستكون في مهمة خارج تل أبيب في اليوم التالي.

وفي الموعد المحدد التقينا عندها، وعبرت عن سعادتها لرؤيتي، مؤكدة أنها تفضل الاحتفاظ بهذه العلاقة سرًّا، وأنها تحضر إلى منزلها في مواعيد مختلفة لقضاء نصف يوم، ثم تتوجه إلى عملها مرة أخرى، وأنها تقوم بالعديد من المهمات خارج تل أبيب، ولم أسألها عن أي شيء، بل أكدت لها أنه بمجرد حضورها ستجدني بعد نصف ساعة في شقتها؛ إذ كانت قريبة من شارع «ديزنجوف» التجاري، وكنت في كل مرة أصل إلى هذا الشارع أترك سيارتي وأسير على قدمي متجولًا داخل عدة محال؛ لأتخلص من المراقبة - إن وجدت - ثم أدخل إلى منزلها بعد ذلك، وكانت هي دائمًا تتصل بي من أي هاتف عمومي، أو هاتف شقة أختها، أو والدتها، أو أيٍّ من أقاربها وأصدقائها، ولم تتصل بي أبدًا من هاتف شقتها.

وذات مرة، وبعد أن قضينا وقتًا معًا، لاحظت عليها الإرهاق، وسألتها عن سبب ذلك، فقالت إنها لم تنم دقيقة واحدة خلال اليومين الماضيين، حيث كانت مرافقة لوفد عسكري مهم، فقلت لها إنني على علم بتفاصيل الزيارات مع الجانب اللبناني، وكنت أقصد زيارة شارون للبنان، وفوجئت بأن يوديت أبدت ارتياحها لمعرفتي السابقة بالموضوع - أو هكذا ظنَّت - واسترسلت في حديثها قائلة إن الوفد اللبناني التقى مساعد رئيس الأركان الإسرائيلي للحصول على بعض المعلومات العسكرية، ولإجراء مفاوضات بشأن شراء بعض المعدات العسكرية، وكانت هذه مفاجأة جديدة بالنسبة لي، فلم أكن على علم بوجود وفد عسكري لبناني في تل أبيب، وقالت يوديت إن

الوفد العسكري حضر يوم 19 يناير، وذكرت بعض الأسماء من أعضاء الوفد، ومنهم فادي إفرام، وأنطون بريدي - أو توتو- وأنهم أقاموا في استراحة رئاسة الأركان، وأجروا المحادثات العسكرية في مقر الجيش الإسرائيلي بوزارة الدفاع، وكانت مهمة الوفد هي الحصول على معلومات عن العملية العسكرية الإسرائيلية لاجتياح لبنان حتى يتم وضع الخطط العسكرية للقوات اللبنانية للتنسيق، وحتى لا تتعرض للهجوم الإسرائيلي، وقدم الوفد اللبناني مخططًا عسكريًّا أطلق عليه اسم «مخطط مايا» على اسم مايا كريمة بشير الجميل، التي اغتيلت في عام 1980، ومضت قائلة إن الوفد اللبناني أجرى مفاوضات استمرت يومي 22 و23 يناير، أما الشق السياسي من المحادثات فتم في استراحة خاصة في الطريق إلى «حيفا» - وقد لفتت نظري هذه المعلومة في ضوء علمي بوجود استراحة تابعة للموساد في هذا الموقع - وعلى الرغم من كوني مع يوديت، إلا أن تفكيري بدأ يدور حول جدية هذا الموضوع، وقبل مغادرتي لمنزلها سألتها عن موعد لقائنا المقبل، فقالت إنها ستكون مشغولة تمامًا في الفترة المقبلة؛ لأنها ستقوم بالإعداد لزيارة رئيس الأركان ووفد من الضباط خلال أقل من أسبوع إلى لبنان.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى السفارة مبكرًا وقمت بكتابة تقرير بدأ بما يلي: «تتردد معلومات تكاد تكون موثقة بسبب مواقع مصادرها بشأن زيارتين قام بهما كل من وزير الدفاع شارون إلى لبنان ووفد لبناني إلى تل أبيب...».

*قصة بسيطة تكشف الاستعداد لغزو لبنان :

التقيت رونا في منزلي يوم 25 يناير 1982 ووجدتها حزينة ومهمومة، وعندما سألتها عن السبب قالت إن سائق المكتب الحربي الذي عمل لديهم لمدة ثماني سنوات قد قدم استقالته من العمل بالسفارة إثر مشادة مع الملحق الحربي.. وسألتها عن سبب المشادة، فقالت إنه طلب إجازة سنوية استثنائية لمدة أسبوع في الفترة من 8 إلى 15 فبراير، ولكن طلبه رُفض، فأصر على الحصول على يومي الثامن والرابع عشر من فبراير، ولكن الملحق الحربي رفض هذا الطلب أيضًا، نظرًا لوجود ارتباطات عمل سابقة يوم 8 فبراير، ووصول وفد من وزارة الدفاع البريطانية يوم 13 فبراير في زيارة لمدة ثلاثة أيام، إضافة إلى تواجد اثنين من أقارب زوجة الملحق الحربي خلال تلك الفترة، وبالتالي لا يمكنه الاستجابة لرغبته.. إلا أن السائق أصر متعللًا بأن لديه ظروفًا قهرية تضطره للتغيب في هذين اليومين تحديدًا، ومع إصرار الملحق الحربي على الرفض رد السائق بأنه مضطر لتقديم استقالته، وهنا أُسقط في يد الملحق الحربي الذي لم يكن يرغب في التراجع عن موقفه، فقال بغضب: «قبل أن تقدم استقالتك اعتبر نفسك مفصولًا من العمل».

كانت هذه القصة البسيطة تعني الكثير بالنسبة لي؛ فقد أضاءت «اللمبة» الحمراء في عقلي، فكيف لسائق إسرائيلي بسيطٍ يعمل بأجرٍ مُجزٍ، وبراتبٍ كبيرٍ لدى سفارة أجنبية، وقد عمل بها لمدة ثماني سنوات، أن يقدم استقالته ويضحي بعمله في مقابل الحصول على

يومين عطلة في تواريخ محددة؟ إلا إذا كانت هذه التواريخ قد تعني شيئًا؟ وربما يكون هذا هو أول الخيط الذي يجب أن أتتبعه! وقد استغرقت في تفكيري هذا دون أن أُشرك رونا معي.

وفي صباح اليوم التالي بدأت محاولة فك لغز السائق الإسرائيلي، ومحاولة معرفة ما سيجري في اليومين اللذين قدم استقالته بسببهما، وكان روبرت يمثل بداية الخيط بالنسبة لي، فاتصلت به وأخبرته بأنني أردت أن أدعوه مبكرًا إلى حفل كبير يضم فرقة غناء وكثير من المدعوين سأقيمه في منزلي إما في يوم 8 ، أو 14 فبراير، فصمت للحظة، ثم قال إنه راجع «أجندته» وسيضطر للاعتذار، حيث إنه مرتبط بمناسبة عائلية يوم 8 فبراير، وسيكون خارج تل أبيب في عمل يوم 14 فبراير، وطلب مني إقامة الحفل في أي يوم غير هذين اليومين، وسيساعدني في تدبير كل الاحتياجات، ووعدته بالتفكير في الموضوع.

بعد ذلك أجريت اتصالات مع كلٍّ من ديفيد، وآفي، ودان، بالإضافة إلى عدد من رجال الأعمال، وعرضت عليهم الأمر نفسه، وقد تلقيت اعتذارات مختلفة، بل وذكر أحدهم أنه سيكون خارج إسرائيل في مهمة عمل، ورد آخر بأن أسبوع التدريب العسكري السنوي له سيكون خلال هذه الفترة، وهنا بدأت تساورني الشكوك بشأن هذين اليومين، فلا بد أن شيئًا ما سيحدث في هذا التاريخ، خاصة في ظل توفر معلومات عن تحرك إسرائيلي تجاه لبنان.

وبدأت الأحداث تأخذ وتيرة متسارعة للغاية، ففي يوم 28 يناير، وفي أثناء حضوري حفل أقامه عدد من معارفي - ومعظمهم إسرائيليون من أصل لبناني - سمعت اثنين من المتواجدين - أحدهما صديق لي - يتحدثان العربية بلهجة لبنانية، وذكر أحدهما اسم إيلي حبيقة، و«آسو» (Asso)، وكنت أعلم أن «آسو» هذا هو أسعد أشفتري، أحد قيادات المخابرات اللبنانية، وتعمدت الاشتراك في الحديث، وسألتهما عمَّا إذا كان الرجلان متواجدين في تل أبيب، وجاءني الرد بأن بعض الشخصيات الإسرائيلية قد التقتهما مؤخرًا، وأن ذلك جاء ردًّا على زيارة وفد أمني إسرائيلي التقى حبيقة وأسعد.

ولم يكن الأمر في حاجة إلى كثير من الذكاء لإدراك أن الوفد المشار إليه من «الموساد»، وقد علمت فيما بعد أن فيليب، وماريون - وهما من قيادات «الموساد» - قد قاما بزيارة بيروت في 25 يناير.

وفي يوم 29 يناير التقيت يوديت، وسألتها عن زيارة رئيس الأركان، موضحًا لها أنني قد علمت بزيارة وفد الموساد إلى بيروت يوم 25 يناير، فقالت إن وفد المقدمة التقى نظيره اللبناني، وإن وفد رئيس الأركان - المكون من عشرة ضباط - قام بزيارته إلى بيروت يوم 26 يناير، وسألتها عن مكان إقامتهم، فأبدت استغرابها من السؤال، قائلة إنهم أقاموا - بالطبع - في فيلا تابعة للجانب الإسرائيلي في «طبرجا»، وأضافت أنهم قاموا بجولة في المناطق المسيحية والمواقع المطلة على أماكن تجمع القوات الفلسطينية، وأن الجنرال إيتان أكد - في لقائه مع بشير الجميل - أن الهدف هو تحطيم القدرات العسكرية

الفلسطينية داخل لبنان مع تجنب المواجهة العسكرية مع القوات السورية - بقدر الإمكان - والتأكيد على أن العملية العسكرية ستكون محدودة وسريعة.

واستطردت يوديت موضحة أن عددًا من أعضاء الوفد الإسرائيلي قد عقدوا اجتماعات مكثفة مع نظرائهم من الكتائب بهدف الحصول على معلومات عن المواقع التي نُصبت بها صواريخ سام من جانب القوات السورية في سهل البقاع؛ حتى يمكن تجنبها أثناء العلميات العسكرية، كما استهدف اللقاء الحصول على معلومات موثقة ودقيقة حول شبكة الطرق وخرائط مفصلة عن أحياء بيروت.

وفي يوم 30 يناير التقيت إيريت، وكانت جلسة مطولة استعرضت خلالها معلوماتي عن اللقاءات الإسرائيلية اللبنانية، والزيارات المتبادلة، وكانت مندهشة حيث إن بعض هذه المعلومات ليس لها دراية بها على الإطلاق، وبعد جدل ومراوغات وأسئلة مستفزة من جانبي، تحدثت إيريت عن عملية «الصنوبر الصغرى»، وفيها سيتم التوغل لمسافة من40 إلى 45 كيلو مترًا داخل الحدود اللبنانية، مؤكدة اقتناعها الكامل بأن العملية العسكرية سوف تستهدف قوات منظمة التحرير الفلسطينية والميليشيات الأخرى المتواجدة في جنوب لبنان، ولو اقتضى الأمر طردهم جميعًا من لبنان، كما تهدف العملية إلى تحجيم قدرات قوات الردع السورية المتواجدة في سهل البقاع، فذكرت لها أن معلوماتي تفيد بأن قوات المنظمة بفصائلها المتعددة لديهم تسليح سوفييتي جيد، وأنهم يجيدون حرب العصابات، وأن ذلك يمكن أن

يحدث خسائر بشرية كبيرة في القوات الإسرائيلية، فقالت باطمئنان إنهم على دراية بتسليح الجانب الفلسطيني، وإن المعلومات تفيد بأن لديهم 30 دبابة قديمة من طراز «ت54»، وحوالي 120 سيارة عسكرية، و150 مدفعًا مضادًّا للطائرات، وهي مدافع عتيقة لا تستطيع إسقاط الطائرات الإسرائيلية الحديثة، كما أن لديهم 90 مدفعًا من عيار 155، وحوالي 300 قطعة مدفعية من العيار الخفيف.. بالإضافة إلى زورقين مسلحين متواجدين في ميناء اللاذقية السوري، وعن حرب العصابات، قالت إيريت إن القوات الفلسطينية – حسب تقديراتهم – تتشبه بأوضاع الجيش النظامي التقليدي دون أن تتكامل لديها العناصر والمقومات المطلوبة للجيش النظامي، وأنهم يرون أيضًا أنها قد فقدت مميزات حرب العصابات المتمثلة في مرونة الحركة والاختفاء دون أن تكتسب مزايا القوات النظامية مع صعوبة عودتهم لأسلوب حرب العصابات، وأنه معروف لدى القيادات العسكرية الإسرائيلية أهمية التركيز – في بداية أي عملية عسكرية – على ممارسة ضغوط «عملياتية» برية وجوية وبحرية لعزل التشكيلات الفلسطينية بعضها عن بعض، وعن قياداتها، استهدافًا لقطع الاتصال بحلقات الهرم القيادي!

كنت أستمع إلى إيريت وأنا مندهش؛ لأنها في نهاية العشرينيات، ورغم ذلك تمتلك هذا الكم من المعلومات الدقيقة، ورغم أنها تحمل رتبة «نقيب»، إلا أن تواجدها في موقع حساس، أتاح لها الاطلاع على ملفات عسكرية تتضمن العديد من المعلومات وإستراتيجيات الحرب عالية التصنيف، وكان تقديري في محله من ناحية أنها صيد ثمين مليء بالمعلومات.

*إستراتيجية اجتياح لبنان في 14 فبراير:

التقيت إيريت يوم 4 فبراير بعد عودتها من مهمة خارج تل أبيب، وتحدثت معها عن يومي الثامن والرابع عشر من فبراير، وقلت لها إنني أعلم بما سيتم خلال هذين اليومين، ففوجئت بالدموع تنهمر من عينيها وهي تذكر أن الموعد الأول 8 فبراير ستكون فيه المناورات والتدريبات الأخيرة استعدادًا ليوم الغزو الذي سيتم في 14 فبراير، وأن المخاوف كبيرة من حجم الخسائر البشرية التي من الممكن أن تحدث في صفوف الجيش الإسرائيلي، وأنها حضرت لرؤيتي ولا تعلم متى ستعود من الجبهة الشمالية، فطمأنتها مؤكدًا أنني سأكون في انتظار عودتها، وبدأت إيريت تتحدث في موضوعات مختلفة استمرت لأكثر من ست ساعات، علمت منها أن الغزو سيتم على ثلاثة محاور رئيسية: المحور الأول شرقًا باتجاه «مزارع شبعا» بالقرب من الجولان السورية - على بعد ثلاثة كيلو مترات شمالي الهضبة - والمحور الأوسط نحو «الطيبة» باتجاه نهر «الليطاني»، والمحور الثالث غربًا للتقدم على الشريط الساحلي، وصولًا إلى مدن «صور»، و«صيدا» اللبنانيتين، وأنهم يخططون لأن يكون تقدمهم سريعًا بهدف تعطيل وإرباك الاتصالات، والسيطرة على سير المعارك، مع الهجوم على «مراكز القيادة والسيطرة»، وقالت إنهم يتوقعون بعض المقاومة من الوحدات الفلسطينية، وهنا قاطعتها لأذكر لها - كما أخبرتني يوديت - حجم التسليح الفلسطيني وكأنني أتبادل معها المعلومات، وشعرت هي بالارتياح لمعلوماتي، وأعطيتها انطباعًا بتعاطفي مع التوجهات الإسرائيلية في غزو لبنان، ومن هنا بدأ سيل من

المعلومات ينهمر منها دون تحفظٍ، حيث أخبرتني بأنهم لا يرغبون في مواجهة قوات سلاح المدرعات السوري، ولكن لو حدث ذلك فإنهم يتوقعون تقهقرها شمالًا إلى سهل البقاع بمجرد تعرض القوات السورية لخسائر، وواصلت إيريت كلامها، مؤكدة أن الغزو سيستند على إستراتيجية «الضربة الإجهاضية»، والهجوم المضاد المسبق على غرار ما تبنته القوات الإسرائيلية في حربي 1956 و1967 في ظل تفوق نوعي عسكري وتقني وتكنولوجي كبير، وسماء يسيطر عليها سلاح الطيران الإسرائيلي، إضافة إلى الخبرات المكتسبة والمستفادة من غزو لبنان السابق في عام 1978.

وعندما أعربت عن شكوكي في القدرات العسكرية والتكنولوجية الإسرائيلية، وفي إمكانية تنفيذ هذا المخطط، أكدت إيريت أنهم قادرون، وذلك من خلال استخدام منظومة عسكرية جديدة تم تطويرها في إسرائيل، حيث تم إطلاع إسرائيل على محتويات ما يُعرف في البنتاجون بمنظومة «صد الهجوم» وقام الجيش الإسرائيلي بتطوير نموذج خاص به، فقاطعتها قائلًا إنني رجل مدني ولا أفهم مثل هذه الأمور؛ لذلك بدأت إيريت في الشرح المبسط، موضحة أنه برنامج عملياتي يستخدم عدة أنظمة من التسليح معًا، ثم قدمت لي شرحًا مستفيضًا لهذه المنظومة التي سيتم استخدامها، حيث تقوم - في البداية - طائرات بدون طيار، مزودة برادارات، بمسح شامل لمنطقة المعارك، وخلف خطوط العدو، ويتم نقل هذه المعلومات إلى محطات أرضية تقوم بتحليلها وتحديد الأهداف المحتملة، ويتم نقل هذه المعلومات لاسلكيًا إلى قائد المعركة المتواجد في الميدان، والذي يختار الأهداف التي يرى الاشتباك معها،

ويقوم الرادار بتعقب هذه الأهداف المختارة والثابتة، ويتم إطلاق صاروخ محمَّل بذخائر وقنابل دقيقة التوجيه، وعندما يصل الصاروخ فوق الهدف مباشرة، يقوم بإطلاق قذائفه التي يتم توجيهها إلكترونيًّا صوب الهدف، وإذا كان الهدف متحركًا فإن الرادار الذي يتعقَّب الهدف يرسل إشارات إلكترونية إلى الصاروخ بما استجد من تغيير في موقع الهدف، فيصحح مسار الصاروخ إلى أن يتم إصابة الهدف وتدميره.

كانت هذه المعلومات ـ آنذاك ـ حديثة تمامًا، وكانت تفوق معلوماتي وإدراكي كرجل مدني عادي، وأكدت لها عدم فهم أي شيء مما تحدثت عنه، وسألتها عن البديل للمطارين الموجودين في سيناء، فقالت إنه تم الانتهاء مؤخرًا – وعلى وجه السرعة – من بناء قاعدتين جويتين في صحراء النقب، بهما مطاران حربيان جاهزان للاستخدام، وحاولت الاسترسال معها في الحديث، ولكنها اعتذرت بأن الوقت قد تأخر، ووعدتني بالحضور في اليوم التالي للوداع.

وبعد مغادرتها غرقت في حالة من الذهول، كنت أحاول أن أستجمع كل ذاكرتي وتركيزي لكتابة ما ذكرته لي من معلومات خطيرة وحديثة للغاية، وظللت مستيقظًا حتى الخامسة صباحًا في محاولة كتابة تقرير مفهوم وواضح، وقررت عدم مفاتحة السفير في الأمر حتى أستكمل بقية المعلومات في موعدي مع إيريت في اليوم التالي.

وفي لقاء الوداع، أخبرتني إيريت أنها قد تغيب شهرًا أو أكثر خارج تل أبيب، معربة عن أملها في أن تنتهي العملية العسكرية سريعًا، وبعد مرور بعض الوقت أدرت دفة الحديث لاستكمال ما توقفنا عنده أمس،

وكانت البداية بأن أخبرتها بأنه طبقًا لمعلومات سفارتي، فإن الطائرات التي سيتم استخدامها ستكون من طراز «سكاي هوك»، و«فانتوم» المعدلة، ولكن صواريخ «سام6 و 8» يمكنها إسقاطها، وطبقًا لما نشر مؤخرًا فربما يتم استخدام طائرات «إف15»، و«إف16» التي استُخدمت في ضرب المفاعل النووي العراقي، وأومأت إيريت برأسها وهي تقول: «لا تنسَ أن لدينا أيضًا طائرات كفير إسرائيلية الصنع، إضافة إلى طائرات الرصد والإنذار المبكر التي ستدير المعارك الجوية إلكترونيًّا من خلال توفير المعلومات عن الأهداف الجوية، وتحركات الطائرات المقاتلة السورية، ثم إرسال هذه المعلومات للمقاتلات الإسرائيلية»، وأضافت بأنه سيتم استخدام الطائرات بدون طيار المصنعة في إسرائيل، والتي تعمل على تنفيذ الإعاقة الإلكترونية، وتحمل جهاز رصد بالليزر لتحديد الأهداف المطلوب تدميرها، مشيرة إلى أنه سيتم استخدام نظم تعمل على تضليل نُظم توجيه هذه الصواريخ، مع استخدام صواريخ «شرايك» أمريكية الصنع، والتي تتوجه مباشرة نحو «الشعاع» الذي تبثه الصواريخ من طراز «سام» بنوعيها لتقوم بتدميرها.

واستمر الحديث بيننا عن كل التفاصيل، حيث تحدثت عن دور الطائرات المروحية في الغزو، ومدى التخوف من تفعيل كتائب صائدي الدبابات كما حدث في حرب أكتوبر 1973 وكيفية الرد عليها إن تم تفعيلها، وكذلك دور سلاح البحرية في العملية، وأنهيت حديثي معها عن العملية العسكرية بسؤالها عن كود النداء الإذاعي، فقالت بعد تردد إنه سيتم في الثامنة وثلاث دقائق مساءً إذاعة أغنية معينة – ذكرتها – في برنامج معين، بإذاعة صوت الجيش الإسرائيلي، وسألتها إن كان هذا

هو كود النداء لجميع الأفراد، فذكرت أنه بعد إذاعة الأغنية، هناك إما أغنيات تتبعها، أو أحاديث، ولكل منها علامة وكود نداء لاستدعاء احتياطي الأسلحة المختلفة الأخرى.

وبعد مغادرتها جلست وبدأت كتابة مشروع تقرير لعرضه على السفير، بحيث يتضمن ملخصًا بكل المعلومات التي حصلت عليها، وحرصت على أن يتضمن التقرير طلب التحقق من هذه المعلومات من الجانب المصري وأجهزته المعنية.

وفي الصباح جلست مع السفير سعد مرتضى واقترحت عليه عدم إرسال برقية بالرمز في هذا الشأن خوفًا من كسر شفرة البرقيات الرمزية، وعرضت أن أقوم بنقل المعلومات بنفسي إلى مصر، على أن أغادر اليوم فورًا نظرًا لخطورة إرسال تلك المعلومات كبرقية رمزية، لكن السفير اعترض على ذلك مفضلًا إرسالها «رمزًا» ، وبعد مناقشتي له في الأمر، انفعل وقال لي إنه هو السفير، وإن عليَّ تنفيذ تعليماته، مشيرًا إلى أن الأولوية في هذا الأمر لعامل السرعة، وطلب مني صياغة برقية رمزية مفصلة بالمعلومات لإرسالها فورًا إلى القاهرة، وبعد كتابة البرقية أبدى تشككه وعدم اقتناعه بإمكانية قيام إسرائيل في هذا التوقيت بهذه العملية، مستدركًا أنه نظرًا لخطورة المعلومات فلا بد من ذكر اسمي واسم الدبلوماسي الذي حصلت منه على هذه المعلومات والإفصاح عن مصدره إن أمكن، وقد فاجأني هذا المطلب وأصابني بصدمة، فرجوته بعدم فعل ذلك لما يترتب على ذلك من مخاطر في حالة نجاح إسرائيل في كسر الشفرة، وصارحته بأن مصدري عبارة

عن سيدتين تعملان ضابطتين في الجيش الإسرائيلي، وفي موقعين حساسين للغاية، فقاطعني مؤكدًا أن ذكر اسمي في البرقية سيزيد من رصيدي لدى الجهات كافة، كما أنه سيُذكر في ملف خدمتي، ولم يكترث لتحفظي على هذا الأمر نظرًا لمخاطره الشديدة عليَّ، وأصر على الإفصاح عن مصدري في البرقية لأن ذلك سيضفي مصداقية على المعلومات المذكورة، وقام بتغيير صياغة البرقية لتبدأ بذكر اسمي، ثم اقترح ذكر اسم رونا باعتبارها مصدر الخيط الأول الخاص باستقالة سائق المكتب الحربي بالسفارة البريطانية، ولكنني رفضت بحزم إقحامها في ذلك، خاصة أنها لا تعلم أي شيء عن هذه المعلومات، ولا أريد توريطها في الأمر، وأصررت على عدم الزج باسمها، فعاد السفير وكتب بخط يده: «علم السكرتير أول رفعت الأنصاري من الملحق الحربي البريطاني...»، فقلت له إن الجميع يعرفون أن علاقتي بالملحق الحربي البريطاني سطحية وغير قوية، وفي حالة كسر شفرة البرقية الرمزية سيوجه الاتهام مباشرة إلى رونا؛ لأنها نظيرتي في السفارة البريطانية، ويوجد بيننا اتصال دائم معروف للبعض، وأبديت اعتراضي وتخوفي، إلا أن السفير أصر على موقفه، وحاول طمأنتي قائلًا إنه في حالة كسر شفرة البرقية الرمزية فسيستغرق ذلك عدة أشهر، مما يجعل الأمر متقادمًا، كما أن ذكر الملحق البريطاني كمصدر وهمي سيبعد الأنظار عن مصادرك الحقيقية، ولا شك أن جهاز الموساد يعلم جيدًا أن علاقتك بالملحق الحربي سطحية بدرجة لا تسمح بحصولك منه على مثل هذه المعلومات الخطيرة، وأن علاقتك مع رونا لم تتناول هذه المعلومات من قريب أو من بعيد، وبالتالي سيتم استبعاد رونا كمصدر محتمل لهذه المعلومات.

وتم إرسال البرقية كما أراد السفير، وقد علمت فيما بعد أن ما تم إبلاغه للقاهرة كان له تأثير كبير في أوساط الخارجية المصرية، ولدى مؤسسة الرئاسة، والوزارات المعنية، والأجهزة الأخرى، في ضوء ما تضمنه من معلومات تتعلق باستدعاء الاحتياط الإسرائيلي، وأطقم سلاح المدرعات، والسلاح الجوي، وفرق الصاعقة، والمشاة، وتفاصيل خطة الغزو، وأسلوب وإستراتيجية الاختراق، ومنظومة صد الهجوم بنموذجها الإسرائيلي، وحتى كود النداء الإذاعي لأطقم الاحتياط المستدعاة.

*تحركات مصرية لمنع اجتياح لبنان:

أخبرني السفير سعد مرتضى، في اليوم التالي الموافق الخامس من فبراير، بأن ما تم إبلاغه قد تم وضعه في الحسبان ويؤخذ الآن مأخذ الجد لدى الجانب المصري، مضيفًا أنه علم للتو أن النائب كمال حسن أمر بأن يقوم سفير مصر في بيروت بإبلاغ الحكومة اللبنانية، وكذلك إبلاغ منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت بمضمون ملخص لما ورد دون الدخول في تفصيلات عسكرية.

وأضاف السفير أن النائب كمال أجرى اتصالًا هاتفيًّا مطولًا مع ألكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكي فور اطلاعه على ما ورد من السفارة المصرية في تل أبيب، وأنه أخذ برأي السفارة من ناحية مطالبة الإدارة الأمريكية بممارسة أقصى الضغوط على إسرائيل لضبط النفس،

وقد تقرر استدعاء السفير الإسرائيلي في مصر موشي ساسون، وأنه من المنتظر أن تتلقى السفارة نتائج التحرك المصري في الاتجاهات كافة.

وقد تلقت السفارة بالفعل رسالة من مكتب النائب كمال، فقرأتها بسرعة وذهبت لعرضها على السفير بحضور الوزير المفوض محمد بسيوني، وبدا الارتياح على وجهيهما، وعندما قمت بإعادة قراءتها لاحظت ما تضمنه محضر مقابلة النائب مع السفير الإسرائيلي من إنكار الأخير لصحة أيٍّ من هذه المعلومات، وتأكيد النائب بأنه لدى الجانب المصري معلومات مفصلة بيوم الاجتياح في 14 فبراير، والمناورات التدريبية النهائية في 8 فبراير، وبخطة وأسلوب الغزو، وكان السفير يقاطع النائب مشككًا في مصداقية هذه المعلومات، فرد النائب عليه بحزم، مؤكدًا له أن المعلومات التي لدى مصر تتضمن حتى كود النداء الإذاعي للأطقم المختلفة المستدعاة، وتناولت البرقية تحذير النائب من إقدام الحكومة الإسرائيلية على هذا التوجه والتداعيات الخطيرة لذلك على العلاقات المصرية الإسرائيلية الوليدة، وازداد تخوفي من إمكانية كسر شفرة التراسل الرمزي، وما قد يعنيه ذلك من متاعب وعواقب جمة عليَّ وعلى السفارة وعلى مصادري، ولم يكن في حسباني، ولم أتخيل ما قد يعنيه ذلك من مصائب وكوارث على رونا؛ لأن اسمها لم يرد في البرقية، حيث كنت قد أشرت في البرقية إلى أن مصدري هو الملحق الحربي في السفارة البريطانية، وذلك بناءً على رأي السفير، ولا بد أن يفهم الجانب الإسرائيلي أن الزج باسم الملحق الحربي البريطاني غير حقيقي وإنما تم ذكره للتضليل والتغطية على المصدر الحقيقي، ولكن كانت للموساد - فيما يبدو - حسابات أخرى.

وقد علمت فيما بعد أن النائب كمال، من واقع خبرته الواسعة قد قدَّر صحة هذه المعلومات وخطورتها، وربما كانت لديه دلائل وأخبار لم ترْقَ إلى مستوى المعلومات الموثقة كالتي تم إرسالها من تل أبيب، الأمر الذي أسفر عن اتصاله بالرئيس مبارك وأخذ الضوء الأخضر لتحرك مصري حاسم وحازم مع الجانب الإسرائيلي، من خلال استدعاء السفير الإسرائيلي لتحذيره، وكذلك مع الإدارة الأمريكية، من خلال الاتصال الهاتفي المطول مع وزير الخارجية الأمريكي، وعلم السفير سعد مرتضى فيما بعد أن النائب كمال قد حذر هيج من نوايا إسرائيل فيما يتعلق بالغزو، مؤكدًا على عدم التفريق ما بين دخول إسرائيل لمسافة كيلو متر واحد، أو دخولها حتى العاصمة بيروت، مشددًا على أن مصر تعتبر كلاهما غزوًا واجتياحًا وعدوانًا على بلد عربي، كما ذكر له رسالة من الرئيس مبارك مفادها أن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل لا تعني الامتناع عن أي عمل عسكري ضد مصر فقط، بل ضد كل الدول العربية، وأن لذلك تداعيات خطيرة على عملية السلام برمتها، والتي تشارك فيها الولايات المتحدة كشريك كامل وليس بصفة مراقب، كما علمت أن ألكسندر هيج أكد للنائب على عدم وجود أي معلومات لدى الإدارة الأمريكية عن نية إسرائيل في الإقدام على غزو لبنان في هذا التوقيت.

ومن المنطقي أن يكون قد تم اتصال سريع بين الإدارة الأمريكية والحكومة الإسرائيلية، بدليل إحجام إسرائيل عن تنفيذ المناورات التدريبية الأخيرة، وعن الغزو في الموعد المحدد، وفي تقديري أن

القيادة المصرية رأت ضرورة إبلاغ الإدارة الأمريكية بالمعلومات المفصلة المتوفرة لدينا عن الغزو تأكيدًا على مصداقيتها، وأن ذلك لاقى استحسانًا لدى الجانب الأمريكي وجعله يتخذ خطوات جدية لتأجيل هذا الغزو إلى ما بعد الانسحاب النهائي من سيناء في 25 إبريل، استهدافًا للمحافظة على مصالحه المهمة والمتمثلة في ضمان استمرار ترتيبات اتفاق كامب ديفيد ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل بشراكة ورعاية وهيمنة أمريكية مطلقة.

أما لقاء النائب كمال مع السفير الإسرائيلي ـ كما علمت فيما بعد ـ فكان عاصفًا، واحتد خلاله النائب على السفير الإسرائيلي أكثر من مرة موجهًا تحذيرًا جديًا للحكومة الإسرائيلية بعدم إمكانية القيام باجتياح القوات الإسرائيلية لجنوب لبنان، وما سيمثله ذلك من زلزال له توابعه ونتائجه الخطيرة على الموقف في الشرق الأوسط وليس على لبنان فقط.

وكما هو متبع في الأعراف الدبلوماسية، قام السفير الإسرائيلي بإرسال برقية رمزية مشفرة مفصلة وعاجلة بمضمون المقابلة مع النائب كمال، وتقديري أنه طلب – في حالة كون هذه المعلومات صحيحة – التحقيق والتحري عن مصدر تسرب المعلومات، وأن جهاز «الموساد» قد بدأ التركيز على حل البرقيات الرمزية الصادرة من السفارة المصرية خلال الأسبوع اللاحق لهذه المقابلة، كما بدأ «الشين بيت» في التركيز عليَّ وعلى عدد من أعضاء السفارة، وشعرت بأن شيئًا ما سيحدث، واستأنفت لقاءاتي مع رونا بشكل طبيعي، خاصة أن لقاءاتنا كانت قليلة للغاية في شهر يناير في ضوء انشغالي المستمر في لقاءات مصادري

النسائية العسكرية الإسرائيلية، وبدأ جهازا «الموساد» و«الشين بيت» في تكثيف رقابتهما علينا، وأطلق على عملية المراقبة الاسم الكودي (RR)، وهما الحرفان الأولان من اسمينا.

وفي يوم 17 فبراير التقيت إيريت، وسألتها عما إذا كانت مسئولة عن زيارات الجانب اللبناني لإسرائيل، فنفت ذلك، قائلة إنها تعلم بزيارة بشير الجميل ومعاونيه الثلاثة لتل أبيب في 15 فبراير، وأضافت قائلة إنهم حضروا على متن مروحية إسرائيلية انطلقت من محطة كهرباء «الزوق» إلى تل أبيب، وإنهم التقوا عددًا من المسئولين، وقد علمت فيما بعد من مصادر أخرى أن الجميل التقى إسحاق حوفي رئيس الموساد، وكان عائدًا لتوه من بروكسل، حيث كان يشرف على عملية إخراج اليهود «الفلاشا» من إثيوبيا إلى السودان، ثم عبر بروكسل، وأضافت إيريت أن الوفد اللبناني توجه بالسيارات إلى مقر بيجين في شارع بلفور بالقدس، وسألتها كيف دخلوا رغم تواجد صحفيين وإعلاميين بصفة مستمرة أمام الباب الرئيسي، فقالت إنهم دخلوا من باب خلفي يُستخدم في الحالات الأمنية الطارئة.

*التنصت على النائب كمال في إسرائيل:

شهدت السفارة حالة من الحراك المستمر للإعداد لزيارة النائب كمال حسن ووزير الدولة للشئون الخارجية الدكتور بطرس غالي إلى تل أبيب على رأس وفد مصري رفيع المستوى، ضم السفير عصمت

رضا مدير إدارة التطبيع، والسفير طاهر شاش المسئول عن محادثات الحكم الذاتي، والوزير المفوض فوزي الإبراشي القانوني البارع، كما ضم الوفد السكرتير أول عمر الفاروق من مكتب النائب.

كنا جميعًا - في السفارة - نعمل كخلية نحل في إعداد ملفات القضايا التي تم الاتفاق عليها، والقضايا المعلقة في مجال التطبيع بشقيه السياسي والعسكري، وقد وصل الوفد المصري يوم 28 فبراير في زيارة لمدة يومين، وكان السفير سعد مرتضى، والوزير المفوض محمد بسيوني على رأس المستقبلين، وكنت معهم، وانتقلنا من المطار إلى فندق «هيلتون»، وبدأت أول جلسة محادثات بين الوفد المصري برئاسة النائب كمال، والوفد الإسرائيلي برئاسة شارون، وتناولت المحادثات القضايا العالقة والحلول المطروحة لها، كما تناولت إجراءات الانسحاب النهائي من سيناء والمطالب الإسرائيلية في هذا الشأن، وتضمنت طلب إسرائيل للمرة الأخيرة بإبقاء مستوطنة «ياميت» واستعداد المستوطنين للخضوع للقانون المصري، ورفض الجانب المصري - بتعليمات واضحة من الرئيس مبارك - هذا المطلب.

وعرض النائب كمال عدة مقترحات بشأن «طابا» والعلامة 91 والاختلاف على موقعها، إضافة إلى تقديم عرض لشراء الفندق - تحت الإنشاء - والمفترض أن يكون فندق «هيلتون» طابا، وقد ذكر شارون أن مالك الفندق يرفض بيعه، وأنه يدخل في نطاق الحدود المختلف على ترسيمها ما بين الجانبين المصري والإسرائيلي، وكان واضحًا أن النائب كمال يفكر ويتحدث ويحاور شارون ويقارعه

الحجج بعقلية الفريق أول كمال حسن، الرجل العسكري، ووزير الدفاع السابق، وشعرت بأن ذلك كان أفضل بكثير مما لو حضر المشير أبو غزالة وزير الدفاع للتفاوض.

وانتهت جلسة المحادثات، وأقام شارون مأدبة غداء تكريمًا للوفد المصري، وصعد الجميع لنيل قسط من الراحة، وبدا واضحًا أن النائب كمال يعاني من مرض «الروماتويد» في يديه وقدميه، وأنه يقاوم الألم المبرح بمسكنات قوية أشرف عليها طبيبه الخاص الذي حضر معه، وفي المساء أقام النائب كمال حفل استقبال كبير في فندق «هيلتون»، وبعد ربع ساعة حضر شارون ووقف إلي جوار النائب كمال في استقبال المدعوين من السفراء الأجانب والجنرالات العسكريين والمسئولين الإسرائيليين.

وقرب انتهاء الحفل، سألني النائب كمال عن الدكتور بطرس غالي، فأخبرته بأنه ينتحي جانبًا للحديث مع شيمون بيريز، فطلب مني إبلاغه وإبلاغ الجميع بعقد اجتماع في جناحه الخاص فور انتهاء حفل الاستقبال، وذلك للإعداد لمحادثات الغد مع إسحاق شامير في القدس، وحضر الجميع بعد انتهاء الحفل إلى جناح النائب كمال ما عدا الدكتور بطرس، فسألني إن كنت قد أبلغته، ورددت بالإيجاب، فطلب مني البحث عنه، وذهبت إلى جناح الدكتور بطرس، وطرقت الباب، وبعد فترة فتح لي فأخبرته بأن النائب ينتظر حضوره لبدء الاجتماع، وفجأة ظهر من ورائه شيمون بيريز، وخرج بعد أن قال له: «سأتركك يا دكتور بطرس لتذهب إلى اجتماعك، ولنا لقاء آخر غدًا».

وقبل بدء الاجتماع طلب مني النائب كمال رفع صوت التلفزيون عاليًا، وبدأ السفير عصمت رضا بعرض الموقف تجاه الموضوعات المتفق عليها، وفجأة نظر النائب كمال إليَّ وقال: «ألم أقل لك أن ترفع صوت التلفزيون.. أريده عاليًا بحيث لا نستطيع سماع بعضنا بعضًا!»، ورفعت صوت التلفزيون إلى أعلى درجة، وبعد قليل توقف النائب كمال فجأة عن الحديث مشيرًا إلى الجميع بالصمت، فلاحظنا أن صوت التلفزيون قد انخفض للمرة الثانية دون أن يقترب إليه أحد منا، وهنا ضحك النائب وهو يقول: «يبدو أن أولاد العم يرغبون في سماع حديثنا، وربما المشاركة فيه أيضًا!»، وأدرك الجميع أن الأمن الإسرائيلي في فندق «هيلتون» يستطيع التحكم حتى في صوت الراديو أو التلفزيون بهدف الوصول إلى درجة نقاء عالية في التنصت والتسجيل، وتدارك النائب الموقف قائلًا: «لقد انتهى الاجتماع ويجب أن يقوم كل واحد منكم بتقديم ملاحظاته مكتوبة على ملف جدول أعمال لقاءات الغد الخاص بالتطبيع».

وبعد انصرافنا كلفني السفير سعد مرتضى بأن أذهب إلى السفير عصمت لإعداد المطلوب وعرضه على النائب في الصباح، وكان من المفترض أن أتوجه في صباح اليوم التالي - الأول من مارس - مع الوفد إلى القدس للمشاركة في المحادثات، ولكنني وجدت ثلاث رسائل مهمة فاستأذنت السفير سعد في الانتظار لإعدادها وإحضارها معي إلى القدس لعرضها عليه وعلى النائب، وبعد الانتهاء من هذه المهمة انطلقت في طريقي إلى القدس ومعي الرسائل الثلاث، وكانت الأولى من السفير أسامة الباز المستشار السياسي للرئيس، يطلب بناءً

على تعليمات من الرئيس مبارك، نص التصريحات التي أدلى بها النائب كمال إلى الصحفية سميدار بري عقب المحادثات مع شارون، وهنا أدركت أن السفير يسر لها لقاءً خاصًا مع النائب، وأنها كالعادة قامت بتحريف تصريحات النائب وردوده على أسئلتها، وبترت بعض الإجابات، ووضعت بعضها الآخر خارج سياق إطارها المقصود، وكانت هذه عادتها، وقد فعلتها أكثر من مرة مع السفير سعد مرتضى، وكانت تعرضه للحرج كلما أجرت معه حوارًا صحفيًا، ورغم ذلك كان يسمح لها بالدخول إلى السفارة في أي وقت، وكان يخصها بتصريحاته وحواراته، وقد اقترحت عليه ذات مرة أن تكون حواراته معها مسجلة، بحيث يضع جهازي تسجيل أحدهما خاص بها والآخر خاص بالسفير ليعود إليه عند الحاجة، مؤكدًا له أن الصحافة تحتاجه أكثر من احتياجه لها، وأن تصريحاته ولقاءاته - حسب إحصائياتنا في السفارة - ترفع توزيع الصحيفة التي تنشر فيها، إلا أنه لم يأخذ باقتراحي، وكانت سميدار تحرص على عدم تسجيل أي حوار أو تصريح لتمارس تحريفها للكلام بحريتها.

أما الرسالة الثانية فكانت بشأن خسارة الدكتور عصمت عبد المجيد، المندوب الدائم في نيويورك، لانتخابات منصب قاضٍ بمحكمة العدل الدولية في لاهاي، عن منطقة الشرق الأوسط، وكانت خسارته أمام مرشح الجزائر المخضرم والأوفر حظًا، في حين كانت الرسالة الثالثة بشأن تعليمات من الرئاسة إلى النائب كمال خاصة بالالتزام بالمواقف المصرية تجاه الانسحاب النهائي، والموافقة على تأجيل موضوع الحدود عند طابا للتداول بشأنه فيما بعد الانسحاب.

كانت الرسائل الثلاث في منتهى الأهمية؛ لذلك انطلقت بسيارتي - وكنت قد حصلت أخيرًا على لوحات معدنية إسرائيلية دبلوماسية لوضعها مكان اللوحة العراقية - وقد تجاوزت السرعة في ضوء رغبتي في الوصول بأسرع ما يمكن، ولاحظت وجود سيارة شرطة تحمل رادارًا على هيئة مسدس - وكان ذلك آخر ما توصلت إليه تكنولوچيا رادارات السرعة في ذلك الوقت - وبعد دقيقة وجدت سيارة شرطة أخرى تطلب مني - بالعبرية - التوقف على جانب الطريق، وبعد توقفي توجَّه الضابط نحوي وهو يتبختر في سيره ببطء، وأخبرني بأن سرعتي تجاوزت 140 كيلو مترًا في الساعة، فاعتذرت له مؤكدًا أنني في عجلة من أمري، فقاطعني ليبدأ في إلقاء محاضرة بشأن عدد الضحايا على الطرق بسبب السرعة الجنونية، وكيف أن عدد القتلى من جراء الحوادث في العام يزيد على عدد ضحايا الحرب مع مصر وسوريا، وهنا قاطعته قائلًا بحزم إنني كنت مسرعًا حقًّا وسأستمر في السير بسرعة، وسيكون هو أمامي بسيارته ليفتح لي الطريق؛ لأنني أريد أن ألحق بالوفد المصري برئاسة وزير الخارجية الذي يعقد الآن اجتماعًا مع شارون وشامير، ويجب أن أعرض على الوزير هذا الملف المهم، قلت هذا بلهجة آمرة وأنا أشير بالملف أمام وجهه، اندهش الضابط، ثم ذهب إلى سيارته، وبعد لحظات عاد ليعتذر لي، ويخبرني بأنه سيسير أمامي حتى مشارف القدس، فقلت له باللهجة الآمرة نفسها: «بل ستسير أمامي حتى فندق هيلتون القدس؛ إذ يوجد ازدحام مروري داخل المدينة»، فأومأ برأسه بالإيجاب وانطلق أمامي وقد أضاء إشارات سيارته الحمراء، وبدأ في استخدام «سرينة» السيارة، وكنت أسير خلفه

بسرعة 150 كيلو مترًا، حتى وصلت إلى الفندق وتركت سيارتي مسرعًا ودخلت باتجاه اجتماع الوفدين، فوجدتهما قد أنهيا جلسة المحادثات وفي طريقهما إلى غداء أقامه وزير الخارجية الإسرائيلي على شرف نظيره المصري والوفد المرافق له.

وعندما عرضت الرسائل على السفير سعد مرتضى، أخذها ليعرضها على النائب كمال، وقد علَّق د. بطرس على رسالة خسارة د. عصمت عبد المجيد لمنصب القاضي بمحكمة العدل الدولية مؤكدًا أن مصر بذلت أقصى ما في وسعها ولم تبخل بشيء في الحملة الانتخابية لكن المرشح الجزائري كان هو الأكثر خبرة والأوفر حظًّا، وعند قراءة الرسالة الواردة من الدكتور أسامة الباز، طلب النائب كمال حسن من السفير سعد مرتضى أن يتولى الموضوع، قائلًا له: «خذ حذرك من هذه الصحفية لأنها ليست أمينة فيما تنقله!»، ونظر السفير إليَّ نظرة لها معنى واحد هو: «أرجوك أن تصمت ولا تعلق على ذلك، خاصة وأنك تمقت ما تفعله سميدار بري»، وبالفعل آثرت الصمت ولم أفتح فمي بكلمة.

انتهت الزيارة بنجاح، وغادر الوفد المصري في طريقه إلى القاهرة، وكانت هذه هي الزيارة الأولى والأخيرة إلى إسرائيل التي اشترك فيها النائب كمال حسن والدكتور بطرس غالي معًا.

*كيمخي يفتتح نشاط الجمعية :

اجتمع مجلس إدارة جمعية الدبلوماسيين الأجانب في الثالث من مارس للإعداد للغداء الذي ستفتتح به الجمعية أنشطتها، والذي سيحضره ديفيد كيمخي مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية، والذي سيلقي محاضرة بعنوان: «التداعيات الإستراتيـچية للانسحاب من سيناء».

ناقشنا أهمية الحضور المكثف، وكيف يعمل كل منا في مجاله لجذب المزيد من الحضور، وبعد الاجتماع ذهبت إلى رونا في منزلها - بناءً على طلبها - وجلسنا نتحدث، قبل أن تقول لي فجأة: «طلبت منك الحضور إلى هنا لأشاركك في موضوع خاص بوصول زميل جديد يُدعى ديفيد للعمل كسكرتير أول للسفارة لدينا، وقد تسلم عمله بالفعل منذ يومين وذلك رغم يقيني من وجود تقشف في ميزانية وزارة الخارجية أدت إلى تقليص أعداد الدبلوماسيين في عددٍ كبيرٍ من السفارات»، فقلت لها محاولًا طمأنتها إن هذا الإجراء ربما يكون بناءً على طلب السفير، فهزت رأسها نافية ما أقول، ثم أضافت: «السفير لم يطلب شيئًا، بل إنه فوجئ أيضًا بمثل هذا التعزيز وسرعة وصول الزميل الجديد!»، ومرة أخرى أُضيأت «اللمبة» الحمراء في ذهني، وانتابتني حالة من التفكير العميق، إلا أن رونا قطعت ذلك بقولها: «لكن يوجد لديَّ خبر سار، فقد تمت ترقيتي استثنائيًا إلى درجة سكرتير أول، وهي ترقية سابقة لموعدها، وقد تم إبلاغي بأنني الوحيدة من دفعتي التي

تمت ترقيتها»، واسترسلت موضحة أن ذلك جاء بناءً على عملها وأدائها المتميز، ولذلك فقد تم إسناد مهمة خاصة لها، وهي أن تكون المتحدثة الصحفية باسم السفارة البريطانية في تل أبيب، وأنها ستتولى التعامل مع الإعلام الإسرائيلي - في ضوء إتقانها اللغة العبرية - والبريطاني من هذا المنطلق، وقالت إنها ستحتفل بهذه المناسبة، مشيرة إلى أنها تفكر في إقامة حفل استقبال ـ أيضًا ـ على شرف نائب السفير الجديد الوزير المفوض برندر جاست، والذي حل محل بايك، بعد ترقيته ونقله للعمل كسفير في هانوي.

لم تكن الموضوعات التي طرحتها رونا مرتبة ترتيبًا منطقيًّا بالنسبة لي، وكانت لديَّ شكوك في كل ما يحدث، ولكن لم تكن لديَّ أي معلومات تعزز شكوكي، فالتعزيز بدبلوماسي ممكن أن يتم، والترقية الاستثنائية بسبب الأداء المتميز واردة الحدوث، ولكنني كنت متوجسًا من شيء ما في داخلي، إلا أنني قررت مُسايرة الأحداث بحذر حتى يتضح الموقف.

وفي الرابع من مارس، أُقيم أول غداء لجمعية الدبلوماسيين الأجانب في فندق «ديبلومات»، وفوجئت بأن الحاضرين في أول مناسبة للجمعية كان كبيرًا، حيث حضر 53 دبلوماسيًّا من المدعوين، بالإضافة إلى أعضاء مجلس الإدارة الستة، وكان الحاضرون يمثلون 23 دولة، وقد حضر عن السفارة المصرية الوزير المفوض محمد بسيوني، وسكرتير أول السفارة الدكتور فاروق مبروك، وألقيت كلمة الافتتاح بصفتي رئيسًا للجمعية، أوضحت فيها أن الهدف من تأسيس الجمعية هو تسهيل عمل

الدبلوماسيين، وعقد لقاء شهري تستضيف فيه الشخصيات الإسرائيلية المهمة لإلقاء محاضرات حول موضوعات الساعة، بالإضافة إلى ترتيب زيارات ورحلات للأماكن المهمة في إسرائيل، وأشرت إلى أن الجمعية ستمارس دورًا مهمًّا في تقديم نمط الحياة الإسرائيلية للدبلوماسيين الأجانب المقيمين في تل أبيب، وقد لاقت الكلمة استحسان الحاضرين، وعقب ذلك ألقى ديفيد كيمخي محاضرته التي أكد فيها أن انسحاب إسرائيل من سيناء مخاطرة محسوبة، وتستحق المحاولة، ما دامت ستسفر عن سلام مع مصر.

أعقب ذلك تناول الغداء، وكانت الطاولة الرئيسية تضم أعضاء مجلس إدارة الجمعية، وكيمخي، والوزير المفوض بسيوني، والمستشار شابيرو من السفارة الأمريكية، ونشرت صحيفة «الجيروسالم بوست» في عددها الصادر في اليوم التالي خبرًا عن الجمعية وأنشطتها.

*حفل استقبال بمناسبة ترقية رونا:

في السابع من مارس، التقيت يوديت في شقتها وذكرت لي أنهم تنفسوا الصعداء لعدم تنفيذ عملية «الصنوبر الصغرى» المتعلقة بغزو جنوب لبنان، وسألتها عن آخر الزيارات بين الطرفين، فذكرت أن وفدًا لبنانيًّا حضر في الخامس من مارس في زيارة لمدة يومين، فقلت لها إنني أعرف معظم المشاركين في الوفود اللبنانية، ولم تعلق على عبارتي، واسترسلت قائلة: «لقد ضم الوفد زاهي البستاني، وأنطوان نجم،

وسليم الجاهل، وقد التقوا قيادات أمنية وقدموا ورقة باللغة الفرنسية تضمنت العوامل العسكرية والسياسية وأهميتها لنجاح خطة الاجتياح، ومراحل تنفيذها، والأهم أن الورقة تضمنت الوضع السياسي الداخلي في لبنان بما في ذلك فرضية تأليف حكومة برئاسة ماروني، والإبقاء المؤقت على مجلس النواب أو حله، والوضع القانوني للقوات الإسرائيلية، والمفاوضات المباشرة مع إسرائيل».

وبعد ثلاثة أيام، حضرت رونا لقضاء الليلة معي في شقتي، وسألتها عن زميلها الجديد، فقالت إنها غير سعيدة لأنه يلازمها كظلها، مشيرة إلى أنه سألها عن مصادرها ومدى مصداقيتها، وعن علاقاتها بالزملاء في السلك الدبلوماسي بحجة أنه يرغب في القيام بعمل مماثل، وأضافت أنه بعد انتهاء العمل اليوم دعاها على العشاء المبكر في أحد المطاعم، وذكر لها أن لورد كارينجتون سيزور إسرائيل في أوائل إبريل 1982، وأنها ستُكلف بترتيب التغطية الصحفية والإعداد الإعلامي لهذه الزيارة، وأشارت إلى أنه حاول التلميح لها برغبته في إقامة علاقة معها لكنها تهربت منه قائلة إن لديها موعدًا للقاء بعض الأصدقاء.

كنت أصغي إلى رونا باهتمام، ثم استغرقت في التفكير، وبدأت الشكوك تساورني من جديد، وانتزعتني رونا من شرودي واستغراقي في الأمر حين قالت إنها قررت عمل حفل الاستقبال على شرف الوزير المفوض الجديد مساء 12 مارس، وإنها ستعلن في نهاية الحفل عن خبر ترقيتها، مشيرة إلى أنها ستدعو عددًا من الزملاء في السلك الدبلوماسي، فسألتها إن كانت ستوجه الدعوة إلى زميلها الجديد

ديفيد، فقالت إنه بالطبع سيكون من المدعوين، وطلبت مني دعوة زميلي الدكتور فاروق مبروك، قائلة إنها تخطط لأن نذهب بعد ذلك لمواصلة الاحتفال مع مجموعة من الأصدقاء في أحد الملاهي الليلية الراقصة، وطلبت مني ترتيب الحجز لعشرة أفراد، فطمأنتها مؤكدًا أن كل شيء سيتم كما ترغب وأكثر، ثم طلبت منها أن تقدمني إلى زميلها الجديد فور وصولي إلى الحفل حتى أقوم بفحصه واختباره، وربما أستطيع الحصول منه على معلومات تفيد في عمل تقييم مبدئي له، خاصة في ظل شكوكي حول ظهوره المفاجئ.

وكان يوم حفل الاستقبال مزدحمًا، حيث أقمنا الغداء الثاني لجمعية الدبلوماسيين الأجانب ظهرًا، وكان ضيفه هو الجنرال إبراشا تامير المستشار العسكري لرئيس الوزراء، الذي ألقى محاضرة بعنوان: «محددات العلاقات العسكرية والخط الأحمر ما بين إسرائيل ومصر والدول العربية»، وكانت محاضرة مهمة في ضوء ثقل الجنرال تامير وما تمثله رؤيته من عناصر مهمة في الإستراتيـچـية العسكرية الإسرائيلية، وفي نهاية اللقاء تم التأكيد على إقامة الحدث الثالث للجمعية وهو زيارة إلى سيناء يوم 21 مارس، وقد لاحظت إقبالًا وتهافتًا على هذه الرحلة من جانب الدبلوماسيين كافة للمشاركة فيها، وكان ذلك طبيعيًّا في ظل الحملة التي أعدتها أجهزة الإعلام الإسرائيلية لوداع سيناء تحت عنوان: «الوداع يا سيناء»، وقد بدأت بالفعل رحلات وداع سيناء في عطلات نهاية الأسبوع، وكان هناك إقبال غير مسبوق لزيارة شرم الشيخ ودهب ونويبع وطابا، وكل منطقة في سيناء.

وانتهت ارتباطاتي في هذا اليوم المزدحم، ولم يبقَ أمامي سوى حفل رونا، وقد تعمدت أن أذهب إليه متأخرًا بعض الشيء، حتى أضمن وجود الجميع، وقد اصطحبت زميلي د. فاروق مبروك معي، وكما يفعل الجميع مع رونا، قبّلتها قبلة عادية أمام المدعوين متمنيًا لها دوام التوفيق، وتحدثت مع الوزير المفوض الجديد لعدة دقائق، وتبادلت - أنا وزميلي - أحاديث سريعة مع مجموعة من الزملاء في السفارات الأخرى، ولاحظت شخصًا يتقدم نحوي، ولم أكن أعرفه، سألني إن كنت أنا رفعت الأنصاري، فهززت رأسي بالإيجاب وعلى وجهي ابتسامة حائرة، فإذا به يقدم لي نفسه قائلًا إنه ديفيد سكرتير أول السفارة الجديد، وزميل رونا، وسألني إن كانت رونا قد أخبرتني عنه، فنفيت ذلك، ودار حوار مقتضب بيننا حاولت من خلاله معرفة طبيعة عمله في السفارة، وخبراته السابقة، فأخبرني أنه كان يعمل في بعثتين - قبل أن يأتي إلى تل أبيب - إحداهما في سنغافورة، فسألته إن كان يعرف زملاءنا بالسفارة المصرية هناك، فأكد أنه يعرف عددًا منهم على رأسهم السفير محب السمرة، وكان حديثه يدل على أنه كان صديقًا مقربًا من أعضاء السفارة المصرية هناك، وأعترف بأن ديفيد كان مقنعًا لدرجة جعلت من الصعب الاستمرار في شكوكي تجاهه، وفي نهاية حفل الاستقبال، وبعد مغادرة المدعوين، نظر ديفيد إلى رونا، ثم إليّ، وتساءل: «ماذا نفعل الآن؟»، وقبل أن ترد رونا قلت له إننا مدعوان معًا من جانب بعض الأصدقاء المشتركين الذين لم تتمكن رونا من دعوتهم إلى الحفل، ويرغبون في الاحتفال بترقيتها، وكان هذا الرد بمثابة تلميح بعدم رغبتنا في انضمامه إلينا، وقد وصلته الرسالة فغادر بالفعل معتذرًا عن عدم قدرته على الحضور معنا.

وتوجهت مع رونا إلى ملهى «كينج سليمان» في فندق «هيلتون»، حيث كان في انتظارنا روبرتياديد وزوجته، وبقية الأصدقاء، وانضم لهم شلومو، رجل الأعمال الإيراني اليهودي، وكنت قد التقيت به مرة واحدة في السابق، وتناولنا الشمبانيا احتفالًا بترقية رونا، وأمضينا وقتًا سعيدًا، ثم انتقلنا في الثانية صباحًا إلى الملهى الليلي لفندق «ديبلومات»، وعدت مع رونا إلى شقتي، واضطررت أن أقود سيارتها بنفسي بسبب احتساء رونا للكثير من الشمبانيا - على غير عادتها - وبعد وصولنا ذكرتها بأننا مدعوان إلى قصر «البيت الأبيض» خارج تل أبيب، الذي يمتلكه رجل الأعمال الإيراني شلومو، وأنني أعتمد على مهارتها في معرفة الطريق إلى هناك، فحركت رأسها بالإيجاب، ثم خلدت إلى النوم بسبب الإرهاق واحتساء الكثير من الشمبانيا.

*الغداء في «البيت الأبيض» الإيراني :

في اليوم التالي، استيقظت بعد الثانية عشرة ظهرًا، وحاولت إيقاظ رونا التي كانت تعاني من القيء والصداع الشديد، وطلبت مني الذهاب بمفردي لعدم قدرتها على الذهاب، واقترحت أن أذهب إلى موقف سيارات الأجرة القريب من منزلي لاستئجار سيارة تسير أمامي حتى مكان الدعوة، وترددت في الذهاب ولكنها أصرت على أن أذهب وأنها ستخلد إلى النوم مجددًا للحصول على قسط من الراحة حتى أعود، واستأجرت سيارة أجرة بالفعل، سارت أمامي حتى وصلت إلى البوابة الخارجية للقصر الأبيض، ولاحظت وجود كاميرات وحراس مسلحين

منتشرين في المكان، وبمجرد ذكر اسمي - عبر الإنتركوم - فُتحت البوابة، وعند دخولي بالسيارة طلب مني الحراس الالتزام بالأسهم والإشارات وعدم الخروج عن الطريق، ودهشت من هذه التعليمات، وبدأت بالفعل في السير في حديقة لا نهاية لها تشبه الغابة، وشاهدت عددًا من الطرقات المتفرعة، وكانت الكاميرات منتشرة على الأسوار والأشجار، وبعد سيري لمسافة طويلة - متبعًا الأسهم الإرشادية - وصلت إلى القصر، أو «البيت الأبيض» - كما يسمونه - وكان منظره مبهرًا، وقد تم تصميمه على نمط «البيت الأبيض» الأمريكي شكلًا ومضمونًا، وأمام الباب الرئيسي وجدت رجل الأعمال الإيراني في استقبالي بحرارة وترحيب، ودخلنا إلى حمام سباحة كبير للغاية، حيث قام بتقديمي إلى عدد من الأصدقاء ورجال الأعمال المدعوين، ثم اصطحبني في جولة بقصره، وفي أثناء ذلك ذكر لي أنه إيراني يهودي، وأنه خرج من إيران في عام 1978، وكانت لديه معلومات دقيقة عن قوة تأثير الخوميني، واستشعر سوءًا فقام بتصفية أعماله على وجه السرعة خلال الأشهر التي سبقت ثورة الخوميني، وقام بإرسال زوجته وأولاده إلى الولايات المتحدة، ونجح في تهريب أمواله بالكامل من إيران، ثم قرر العودة إلى إسرائيل تاركًا عائلته في أمريكا، حيث يقوم بزيارتهم بشكل دوري في ضوء ضرورة تواجد زوجته مع أولاده لمراعاتهم والإشراف على دراستهم، وقد قام ببناء هذا القصر - في ضواحي تل أبيب - على ستة أفدنة، ووضع نظامًا أمنيًا بالغ التعقيد، الأمر الذي كلَّفه الكثير، وأضاف أن تكلفة بناء القصر تزيد على ستة ملايين دولار، منها مليون للنظام الأمني فقط، أما بقية التحف والأثاث فقد كلفته نحو ثمانية ملايين دولار!

كان يذكر هذه الأرقام - المبالغ فيها في بداية ثمانينيات القرن العشرين - بكثير من التفاخر، واصطحبني في جولة لمشاهدة عدة أجنحة في القصر، منها: الجناح الشرقي التركي، والجناح الغربي، والجناح الإيراني، وغيرها، أما غرفة الطعام فكانت مذهلة - لا أستطيع نسيانها - حيث وجدت طاولة ممتدة تتسع لمائة مدعو، وكانت هذه الطاولة مُطعَّمة كلها بالعاج وعليها أدوات الطعام المستخدمة، وهي من الذهب الخالص عيار 18 قيراطًا، وكانت الأطباق المستخدمة من طراز لويس السادس عشر، وقد اشتراها من مزاد في فرنسا ودفع فيها ثمنًا مرتفعًا للغاية، وقد لاحظت أنه يرغب في إطلاعي على مدى ثرائه الفاحش، وبذخه في الإنفاق على منزله وعلى حياته الخاصة، وكان من الطبيعي أن أسأله عن مجال عمله فذكر أن لديه مصفاة بترول وعددًا من الشركات في أوروبا والولايات المتحدة، ومعظمها يعمل في مجال الأمن وتجارة السلاح!

ورغم البذخ الواضح، إلا أنني لم أشعر بالارتياح لتواجدي في المكان، وقررت مجاراة الظروف بحذر، خاصة مع استشعاري بأن الجميع يتوددون إليه بشغفٍ كبيرٍ، وقد دعاني شلومو لتناول المشويات بجانب حمام السباحة، وقدمني إلى عدد من عارضات الأزياء الإسرائيليات والألمانيات والبريطانيات اليهوديات، وأحسست بأنهن ينتظرن الإشارة من شلومو للانقضاض على الفريسة، وقد نظر شلومو إليَّ، واعتذر بأدب لاضطراره إلى تركي من أجل الترحيب ببقية المدعوين، قائلًا إنه سيتركني في أيدٍ أمينةٍ، ثم أضاف ضاحكًا: «الأيدي

الأمينة التي معك يمكن أن تكون ساحرة، وأن تستمر معك حتى الصباح، وفي أي مكان!»، فابتسمت وفهمت قصده، وازداد حذري وأدبي مع هؤلاء الفتيات الساحرات.

وفي السابعة مساءً تقدمت من شلومو مودعًا للمغادرة، وقد حاول إبقائي بإلحاح، مقدمًا لي عدة إغراءات باعتباري أعيش وحدي، فاعتذرت له مرة أخرى بسبب ضرورة مروري على السفارة، حيث ينتظرني السفير، وكان السبب الحقيقي لانصرافي هو رغبتي في الاطمئنان على رونا التي تركتها نحو ست ساعات في شقتي.

*الليلة الأخيرة مع رونا:

عدت إلى منزلي فوجدت رونا ما زالت نائمة، وحين أيقظتها لاحظت أن الإرهاق والتعب ما زالا يبدوان عليها، وطلبت مني أن أصطحبها إلى منزلها، وهناك رويت لها ما دار لدى شلومو، ودار بيننا حديث مطول عن إيران في ظل حكم الشاه، ثم بعد ثورة الخوميني، والتعاون بينها وبين إسرائيل وجهازي مخابرات البلدين، وأوضحت رونا أن مصدرها في المعلومات التي تحدثت عنها هو تقرير بدرجة «سري للغاية» صادر من المخابرات الأمريكية (CIA) حول المجتمع المخابراتي الإسرائيلي، وقد تم الحصول عليه بعد اقتحام السفارة الأمريكية في طهران واحتجاز الطاقم الدبلوماسي والإداري والمخابراتي بأكمله.

وأمضينا وقتنا حتى الصباح، حيث عزفت رونا على الجيتار، ثم أعدت الإفطار، وفي أثناء تناولنا للطعام تلقت مكالمة من سفارتها يطلبونها للحضور على وجه السرعة لوجود برقيات عاجلة بشأن أمر مهم!

وسألتني عما إذا كنت أرغب في الاسترخاء بمنزلها، ففضلت الاتصال بسفارتي أولًا، وعلمت أنهم حاولوا الاتصال بي في شقتي منذ الصباح الباكر ولم يستطيعوا العثور عليَّ، وأخبروني بوجود برقيتين رمزيتين عاجلتين لا بد من حلهما!

وانتابني القلق، كما انتاب رونا أيضًا، وتساءلنا إن كان من الممكن أن يكون السبب والموضوع واحدًا في سفارتينا، وتوقعت أن يكون هناك تطور مهم في أمر قوات حفظ السلام، لكن رونا لم تتوقع ذلك، وودعتها على أن نلتقي في المساء لتناول العشاء معًا، ولم نحدد المكان، حيث اتفقنا على الاتصال لتحديد ذلك، ولم أكن أدري أن هذا اللقاء سيكون الأخير لي مع رونا، وأنني لن أراها مرة أخرى منذ صباح يوم 14 مارس 1982 وحتى كتابة هذه السطور!

ففي المساء اتصلت بي رونا واعتذرت عن عدم إمكانية المرور على منزلي أو تناول العشاء معي في أي مكان، وذكرت أنه تقرر سفرها – فجأة – برفقة سفيرها إلى لندن، وأن الغرض من سفرها هو تكليفها بالإعداد لزيارة لورد كارينجتون وزير الخارجية البريطاني إلى إسرائيل، والتي من المفترض أن تتم في أول إبريل، وطلبت منها أن تحضر إلى منزلي لوداعي، فقالت إنها ستغادر تل أبيب في الصباح

الباكر، وإن سكرتيرة السفير تمضي الليلة معها في شقتها للتأكد من استيقاظها مبكرًا للحاق بالطائرة!

وأضافت أنها ستشتاق إليَّ بدرجة جنونية، وطلبت أن يتسع وقتي عند عودتها للقاءات مطولة، فضحكت ووعدتها بذلك متمنيًا لها رحلة سعيدة وعودة قريبة، وكانت هذه هي آخر مرة أسمع فيها صوت رونا!

(9)

أوقات عصيبة في إسرائيل

*إتهام رونا بالتجسس لصالح مصر:

التقيت يوديت في منزلها يوم 17 مارس، وكانت علاقتي بها قد تنامت بحيث أصبح الحديث لا يحتاج إلى مقدمات أو أسلوب غير مباشر، وبعد أن قضينا وقتًا معًا سألتها عمَّن قام بزيارة إسرائيل مؤخرًا من الجانب اللبناني، فقالت إن أربعة من القيادات العسكرية اللبنانية زاروا إسرائيل أول من أمس - أي يوم 15 مارس - حيث أقلتهم مروحية إسرائيلية، وقد التقوا الجنرال رافائيل إيتان، رئيس الأركان، وناقشوا معه التنسيق العسكري المأمول عند بدء العملية العسكرية، ثم انتقلوا بعد ظهر اليوم نفسه، على متن المروحية الإسرائيلية، إلى الجولان، حيث التقوا الجنرال أمير دروري، قائد الجبهة الشمالية، والمرشح لقيادة العمليات المرتقبة عند بدء العملية العسكرية في جنوب لبنان، وحضروا مناورة للواء المدرع بقيادة العقيد مائير داغان، ثم أعادتهم المروحية الإسرائيلية إلى لبنان مرة أخرى.

وفي اليوم التالي، التقيت إيريت في منزلي بعد الظهر، وحاولت معرفة ما يجري بعد تأجيل عملية اجتياح لبنان، فسألتها عن سبب إلغاء العملية العسكرية لغزو جنوب لبنان، فقالت إن هناك تحقيقات واسعة حول الموضوع، تجري بسرية تامة في كثير من المواقع، ومع عدد من القيادات التي كانت تعلم مسبقًا بموعد الغزو، مؤكدة أنها لا تعرف شيئًا عما يجري في هذه التحقيقات لأنها بعيدة عن موقع عملها، إلا أن ذلك يثير قلقها على الرغم من حرصها في التعامل، وفي أثناء حديثنا - ونحن في حالة استرخاء - تلقيت اتصالًا هاتفيًا،

وكان محدثي هو سكرتير أول السفارة الهولندية وزميلي في مجلس إدارة جمعية الدبلوماسيين الأجانب، فسألني عما إذا كنت واقفًا أو جالسًا، وكان السؤال غريبًا ومثيرًا للدهشة، وسألته عن السبب، فقال إنه ينصحني بأن أجلس إذا ما كنت واقفًا لأنه سيقول لي خبرًا له وقع الصاعقة، واعتقدت أنه يمازحني، لكنه أضاف بجدية: «هل تعلم أنه تم القبض على رونا ريتشي في لندن؟»، وكان الخبر له وقع الصاعقة عليَّ فعلًا، حتى إنني استغرقت بعض الوقت لأستوعب ما قاله زميلي، قبل أن أسأله بذهول عن السبب، فإذا به يواصل بالجدية نفسها قائلًا: «هذه هي المفاجأة؛ لأن السبب هو اتهامها بالتجسس لصالح مصر من خلال إفشائها الأسرار لعشيقها المصري.. الذي هو أنت!»، وهنا أدركت أن الصاعقة لم تكن قد هبطت عليَّ حتى سمعت هذا الكلام، فهويت على حافة السرير، ولم أتمالك أعصابي، ولم أكن أعرف ماذا أقول، كان زميلي على الجانب الآخر ينتظر تعليقي على ما قال، فحاولت التماسك، وقلت له وأنا لا أكاد أصدق ما حدث حتى الآن: «هل هذه مُزحة؟ لأنها ستكون سخيفة إن كانت كذلك!»، فقال: «أقسم لك إنها ليست مزحة؛ فقد سمعت الخبر بنفسي في نشرة الأخبار العبرية في السادسة مساءً، وقد تأكدت من هذا الخبر بعد أن قامت سكرتيرة السفير الهولندي بالاتصال بالإذاعة العبرية للتأكد من صحة الخبر!»، ثم طلب تفسيرًا للأمر، فأبلغته بأن كل هذا ليس صحيحًا، وغير حقيقي على الإطلاق، ودافعت عن رونا كزميلة لها كل التقدير والاحترام، ثم أنهيت معه المكالمة وأنا لا أكاد أشعر بنفسي.

كانت إيريت تنظر إليَّ بقلقٍ وهي لا تفهم ما يجري، فطلبت منها أن تغادر المكان على وجه السرعة، وسألتني بارتباكٍ عما حدث، وعن سبب اضطرابي وتوتري بهذا الشكل، فلم أجبها، وقلت لها إن هذا سيكون آخر لقاء لنا، وإن هذا لمصلحتها أمنيًّا، ازداد القلق والتوتر على وجهها، وتابعت حديثي الآمر لها، مؤكدًا عليها ضرورة إنكار معرفتها بي ونفي أي علاقة لها معي، فقامت على عجلٍ وهي لا تفهم ما يجري حولها، وكان هذا هو لقائي الأخير مع إيريت، فلم أرها بعد ذلك أبدًا.

وكانت الخطوة التالية هي إنهاء أي علاقة مع يوديت على الفور، وقد قطعت من جانبها أي اتصال بي، وكان هذا هو الأفضل لكلينا.

لم أكن أعرف ماذا أفعل، فقد تحققت مخاوفي وشكوكي التي بدأت مع سماع خبر وصول ديفيد كسكرتير أول للسفارة رغم إجراءات التقشف التي أخبرتني عنها رونا، وكذلك خبر ترقيتها بشكل استثنائي، وما تلا ذلك من تفاصيل، ودون أن أعرف ماذا سأفعل أو إلى أي مكان سأذهب، بدَّلت ملابسي على عجل، ثم خطر على بالي الوزير المفوض محمد بسيوني فاتصلت به وطلبت لقاءه فورًا لاستشارته في أمر عاجل، وكنت أعلم أن لديه علاقات قوية مع عرب إسرائيل، ومع الإذاعة العربية في القدس، وفي منزله قصصت عليه بسرعة كل ما حدث، فاتصل بالإذاعة العربية وبالتلفزيون الإسرائيلي وأكدوا له صحة الخبر الذي سيذاع في نشرة أخبار التاسعة مساءً، نقلًا عن إذاعة الـ (BBC) التي أذاعت الخبر باللغتين العربية والإنجليزية.

كان ما حدث يمثل مفاجأة مهولة بالنسبة لي، لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أفعل؟ وما التصرف السليم في هذا الموقف العصيب؟ وما الذي عليَّ أن أتوقع حدوثه تجاهي من الجانب الإسرائيلي؟ وما هو موقفي القانوني؟ وما هو موقف حصانتي الدبلوماسية؟ أسئلة كثيرة كانت تتزاحم في عقلي وتكاد تشل تفكيري.

بعد التأكد من الخبر، اتصلت بالسفير سعد مرتضى فلم أجده؛ إذ أبلغني حارس الأمن أن السفير خرج وسيعود بعد ساعة، فطلبت منه إبلاغه بعد عودته بأنني سأمر عليه للحديث معه في أمر مهم للغاية، واتصل أحد زملائي من السفارة بالوزير المفوض محمد بسيوني - وأنا عنده - وذكر له أن خبر إلقاء القبض على رونا قد انتشر بسرعة البرق في كل أنحاء إسرائيل، وتحدثت معه، واتفقنا على اللقاء في أحد الملاهي الليلية الساعة العاشرة مساءً بعد قيامي بالتأكد من الأمر وسماع الخبر بنفسي في نشرة أخبار التاسعة، وقد التقيت زميلي لسماع تقييمه لما يمكن أن يحدث في ضوء خلفيته القانونية واطلاعه على قواعد الحصانة الدبلوماسية، وسمعت منه وجهة نظره وسط موسيقى صاخبة وشباب يرقص ويحتسي المشروبات، ثم تركته وتوجهت إلى السفير في دار السكن، وقد أصيب بالدهشة بعد أن سردت له على عجل ما حدث، وبدأ في تلقي عدد كبير من الاتصالات الهاتفية من جانب الصحافة وأجهزة الإعلام، وكان السؤال الأول هو: أين يستطيعون العثور عليَّ؟ وكان السفير ينكر معرفته بمكاني، رغم أنني أجلس أمامه في غرفة المعيشة، وبالطبع كان السؤال الثاني عن تعليقه على الخبر، وكان رده بنفي أي علاقة لي أو للسفارة بما جاء في الخبر جملة وتفصيلًا.

واستمر حديثي مع السفير في دار السكن حتى الساعات الأولى من الصباح، حيث رويت له المؤشرات المبدئية التي أثارت شكوكي، وعلّق على كلامي قائلًا إن تسلسل الأحداث يشير إلى أن أجهزة الأمن الإسرائيلي هي التي أبلغت هيئة مكافحة التجسس البريطانية بعلاقتي الخاصة مع رونا، ولا شك أنهم أقنعوا الجانب البريطاني بأن هذه العلاقة أسفرت عن تسريب كبير في المعلومات، مشيرًا إلى أن التفسير المرجح للنهج الذي اتخذه جهازا «الموساد» و«الشين بيت» هو أنهما نجحا في كسر شفرة البرقيات الرمزية الأخيرة للسفارة المصرية، والتي سبقت التحرك المصري الجاد لوقف تنفيذ العملية العسكرية الإسرائيلية لغزو لبنان، فنظرت إلى السفير نظرة لوم وعتاب، وقلت له إن ورود اسمي في البرقية الرمزية، والزج بالملحق الحربي البريطاني باعتباره مصدري، دفع «الموساد» و«الشين بيت» إلى استنتاج أن مصدر معلوماتي الحقيقي هي رونا؛ إذ لا تجمعني بالملحق الحربي أي علاقة، فنظر السفير لي نظرة أسف وألم، معتذرًا لي عمّا حدث، ومؤكدًا أنه لم يتوقع أن ينجح الجانب الإسرائيلي في كسر الشفرة.

*تجاهل الصحفيين والإعلاميين:

عدت إلى منزلي في صباح يوم الخميس 19 مارس لأجد عددًا من الصحفيين في انتظاري حول المنزل، دخلت مسرعًا إلى باب المبنى، وحاول بعضهم اللحاق بي ولكنني نجحت في الصعود بسرعة

إلى شقتي، وبمجرد دخولي وجدت رسالة مسجلة على الهاتف من المستشار عوديد إيران الدبلوماسي البريطاني اليهودي، يطلب مني ضرورة الاتصال به لأمر عاجل، فلم أكترث له، ولكن بعد نصف ساعة تلقيت اتصالًا هاتفيًا منه بدأه بسؤالي عما سأفعل الآن ومستقبلًا إزاء هذه الأحداث، فأجبته ببرود: «لا شيء، سأعيش حياتي اليومية العادية كأن شيئًا لم يحدث، إلا لو حدثت تطورات من جانبكم كخارجية أو كأجهزة أمنية»، فضحك قائلًا: «ليست لدينا تطورات، وليست لدينا النية في الإقدام على أي خطوة، على الأقل في الوقت الحالي!»، وأضاف قائلًا بشكلٍ مستفز: «لو كنت مكانك لقدَّمت استقالتي إلى الخارجية المصرية وقمت بالتعاقد من الآن مع إحدى دور النشر المعروفة أو إحدى الصحف لشراء حق نشر مذكراتي، وربما ستتلقى عروضًا قد يصل مبلغها إلى مليون دولار الآن، وهي من الناحية الاقتصادية تُعد فائدة مالية كبيرة يمثل عائدها أكثر بكثير من راتبك لمدة عشرين عامًا في حال استمرارك في عملك بالخارجية المصرية!»، فقلت له ببرود ولا مبالاة: «ربما يفعل ذلك كثيرون، وأنت أولهم! ولكن بالنسبة لي فلست بحاجة إلى مليون دولار أو حتى ضعفهم، وأنا أقوم بعملي كدبلوماسي محترف، وأستمتع به إلى أقصى الحدود، والاستمتاع بالعمل - وليس تأديته فقط - هو نعمة من النعم التي يمنحها الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن أدائي لعملي واستمتاعي بمزاولته يفوق ما يمكن أن تقدمه لي الإغراءات المالية التي يمكن أن أحصل عليها!»، وأضفت قائلًا: «ولعلمك.. لم يحدث أي شيء بيني وبين رونا، ولم يكن هناك أي تسريب لأي معلومات كما تدَّعي أجهزة الإعلام، وهذا

لمعلوماتك فقط، ولك حرية نقل ذلك إلى رؤسائك في الموساد والشين بيت والخارجية إن شئت! والآن إذا لم يكن لديك الجديد لتضيفه، وإذا لم يكن هناك شيء آخر تبلغه لي رسميًّا، فإنني أستأذنك في إنهاء المكالمة التي تضمنت هذا العرض المغري، والذي لا أعلم إذا ما كان ذلك من وحي تفكيرك أم تم إملاؤه عليك، وطالما أن كلينا يعلم أن هذه المحادثة مسجلة من جانبكم، فقد تلقيتم ردي النهائي وفي أمان الله!»، وضعت سماعة الهاتف ولم أتحدث مع عوديد إيران بعد ذلك، أو يتحدث معي أبدًا.

وفي الثامنة من صباح الأحد 21 مارس، توجهت إلى مطار في تل أبيب - كان هو نقطة التجمع - لبدء الرحلة إلى سيناء، ووجدت الجميع يطالعون صحيفة «الجيروسالم بوست» التي تضمنت في صفحتها الأولى خبرًا عن أن السلطات الإسرائيلية التزمت الصمت الكامل خلال عطلة نهاية الأسبوع بشأن إلقاء القبض على رونا ريتشي سكرتير أول السفارة البريطانية بتهمة إفشاء معلومات سرية لدبلوماسي مصري في تل أبيب، وأشارت الصحيفة إلى أن رونا قد تم الإفراج عنها بكفالة قدرها عشرة آلاف جنيه إسترليني، قام والدها بدفعها، وذلك حتى جلسة 27 إبريل، وأن جلسة المحاكمة كانت سريعة ومحاطة بالسرية، وتم نظرها في نهاية يوم عمل المحكمة بشكلٍ استثنائي، حيث لم تكن مسجلة على قائمة القضايا المنظورة في «رول» المحكمة، وكان قرار الإحالة ينص على «أنه في يوم 20 نوفمبر قامت رونا بإفشاء أسرار لرفعت الأنصاري السكرتير الأول بالسفارة المصرية في تل أبيب، وقد أكدت رونا على براءتها من التهمة الموجهة إليها».

نظر إليَّ الجميع بدهشة، وعبرت مستشارة السفارة الفنلندية عن إعجابها بشجاعتي وجرأتي، مؤكدة أن أحدًا لم يتوقع حضوري اليوم في ظل ظروفي والقضية المثارة بشأني، فقلت لها إن كل ما نُشر، وما سوف يُنشر - كما أتوقع - هي قصص مختلقة وغير صحيحة، ولن تؤثر فيَّ شخصيًّا أو في أدائي لعملي، بدليل حضوري اليوم لمباشرة مسئوليتي عن رحلة سيناء كما كان مخططًا لها من الجمعية.

وفي الثامنة والنصف صباحًا، أقلعت الطائرة وعلى متنها ستين دبلوماسيًّا، وهبطت في مطار «عتسيون» بالقاعدة الجوية القريبة من شرم الشيخ وإيلات، وقام القائد وعدد من ضباطه بتنظيم جولة لنا داخل القاعدة، وقد لاحظت حالة من القلق والتوتر بسبب تواجدي على رأس وفد الدبلوماسيين، كما علمت أيضًا أنه قد تم اختصار الجولة إلى النصف بحجة ضيق الوقت، وانتقلنا بعد ذلك إلى جولة بالحافلات السياحية، بحضور مندوب من وزارة السياحة الإسرائيلية للتعرف على ومشاهدة عدد من المنشآت السياحية، مع شرح لإعادة ترسيم الهيكل التنظيمي لهذه المنشآت في كلٍّ من إيلات وطابا، وكيفية عملهم بعد الانسحاب النهائي من سيناء في 25 إبريل، وكانت محطتنا التالية هي إيلات، حيث تناولنا الغداء مع محافظ المدينة، الذي قدَّم شرحًا بشأن إعادة تنظيم مدينة وميناء إيلات بعد الانسحاب، وما هو منتظر من توقعات سياحية، وبعده ألقى السفير كيدار مدير إدارة مصر والشرق الأوسط في الخارجية الإسرائيلية محاضرة بعنوان: «التطبيع وصعوبات تطبيقه»، وفي الرابعة والنصف بعد العصر أقلعنا عائدين إلى تل أبيب.

كان جميع الدبلوماسيين في حالة ذهول من قيامي بمباشرة مسئوليتي عن الرحلة وإجراءات تنظيمها كما كان معدًّا من قبل، وكأن شيئًا لم يحدث، وقد تجاهلت تمامًا نظرات التساؤل على وجوه جميع الزملاء، وانتهت الرحلة على خير، وقمت بواجبي في رئاستها وتنظيمها على الرغم مما حدث!

كنت قد بدأت أدرب نفسي على فكرة تجاهل الصحفيين والإعلاميين، حيث كنت أجدهم في انتظاري أمام بيتي، وأمام السفارة، كما حدث صباح يوم 22 مارس، حين غادرت منزلي إلى السفارة؛ لأجد عددًا كبيرًا من الصحفيين في انتظاري تحت منزلي، وأمام مبنى السفارة، وتصرفت بشكل طبيعي عند دخولي من باب السفارة، وإن كنت قد أحسست بحالة توتر لدى طاقم حراس الأمن المصريين، فطمأنتهم وطلبت منهم التصرف بشكل طبيعي كأن شيئًا لم يحدث، والتقيت السفير سعد مرتضى، والوزير المفوض محمد بسيوني، وأشار كلاهما إلى ما نشر في جريدة «الجيروسالم بوست»، وتحدثنا عما جرى، وما هو قادم، وهنا اقترح السفير أن أنتقل للإقامة معه في دار السكن تجنبًا لمضايقات الصحفيين في كل مكان، خوفًا من قيامهم بسلوك استفزازي، فشكرته وأعربت عن تقديري للفتة الكريمة باستضافتي، واعتذرت لأن ذلك قد يفسر بشكل خاطئ، وكأنني أحتمي في دار سكن السفير، الأمر الذي قد يعني أنني قمت بعمل غير مشروع، وغير قانوني، وخارج نطاق العمل الدبلوماسي، وهو ما لم يحدث، واتفق معي الوزير المفوض فيما قلته، وأقنع السفير بالتبرير

الذي سردته، وفي أثناء النقاش اتصل مكتب وزير الخارجية الإسرائيلية إسحاق شامير وأبلغ السفير باستدعائه للقاء مهم في مبنى الخارجية بالقدس الساعة الثالثة بعد الظهر، وانتقل الحديث إلى ما يمكن أن يدور من نقاش في الخارجية، واحتمال أن يسألوا صراحة عن أبعاد هذه القصة، وهنا أكدت مرة أخرى على السفير أن كل ما حصلت عليه من معلومات كانت من مصادر عسكرية إسرائيلية، ولم أحصل على أي شيء من رونا، سوى ما يخص قوات حفظ السلام، وهو ما كان سيعلن في اليوم التالي، ولذلك فإن كل ما دار بيننا هو تبادل المعلومات في الإطار المتعارف عليه ما بين الدبلوماسيين لا أكثر ولا أقل، واتفقنا على ما تقدم، ثم انتقل الحديث إلى ما سيحدث إذا قررت إسرائيل اعتباري شخصًا غير مرغوب فيه، واستبعد الوزير المفوض أن يُقدم الجانب الإسرائيلي على هذه الخطوة التصعيدية، خاصة وأن مصر سترد في هذه الحالة ولا شك بمبدأ «المعاملة بالمثل»، وسيتم طرد سكرتير أول السفارة الإسرائيلية في القاهرة، وكان محقًّا تمامًا في تقديره.

* د. الباز يدعمني بالعناق في المطار:

توجَّه السفير سعد مرتضى إلى القدس، وذهب الوزير المفوض محمد بسيوني إلى مقابلة أخرى، وفي هذه الأثناء تلقت السفارة اتصالًا من الخارجية المصرية، وكان المتحدث السفير أسامة الباز، ولم يجد سواي لأرد عليه بعد أن سأل عن السفير والوزير المفوض ولم يجد

أيًا منهما، وذهبت من مكتبي بسرعة إلى مكتب السفير، فسألني عن السفير وأبلغته بوجوده في القدس بعد أن تم استدعاؤه من الخارجية الإسرائيلية، فقال مقاطعًا: «أبلغ السفير بأنني سأحضر في الخامسة بعد ظهر اليوم على متن طائرة ميستير خاصة وبصحبتي حارسي الخاص فقط، وقل له إنه في ظل الظروف الراهنة فإنني سأقيم معه في دار السكن ولا أريد أي حجز في أي فندق، ودعه يبلغ الجانب الإسرائيلي بذلك، ولقد تم ترتيب خط سير الطائرة مع السفير الإسرائيلي في القاهرة، وأريدك أن تتواجد في استقبالي بالمطار مع سعد وبسيوني وهذه هي تعليماتي!»، واتصلت السكرتيرة بالسفير في الخارجية الإسرائيلية وأبلغته بالأمر، فقرر أن يتناول الغداء في القدس، وأن يذهب إلى المطار مباشرة لوجوده في منتصف الطريق بين القدس وتل أبيب، ونسي أنني كنت في انتظاره بفارغ الصبر لمعرفة ما تم في الاستدعاء.

وكان المستشار حسن عيسى قد وصل في الصباح الباكر إلى تل أبيب ليقضي يومين قبل أن يتوجه إلى مقر عمله الجديد كقنصل عام لمصر في «إيلات»، وذلك مقابل افتتاح إسرائيل لقنصليتها العامة في الإسكندرية، وكان المستشار حسن صديقًا حميمًا وكانت تجمعنا روابط عائلية قوية، كما كان صديقًا لشقيقيَّ سمير، وسامي، وكانت له خبرة كبيرة وتراكمية للعمل مع إسرائيل، وقد حضر المستشار حسن إلى مكتبي وتحدثنا عن قصتي مع رونا، وفي ضوء نظرته الثاقبة وخبرته الكبيرة، توقع بأن يطلب الدكتور الباز مني مذكرة بما حدث، واقترح أن نبدأ في صياغتها معًا من الآن، وبدأت في كتابة المذكرة بمساعدته،

حتى وصلنا إلى صياغة مبسطة للموضوع، وكانت رؤيته صائبة؛ إذ حدث ما توقعه بالفعل.

أخذت معي المذكرة في حقيبة يدي وتوجهت إلى المطار لاستقبال الدكتور أسامة الباز، وعند دخولي إلى قاعة كبار الزوار فاجأني عدد من الصحفيين والمصورين، فأسرعت بالدخول إلى القاعة وتجنبت اللقاء معهم، ووجدت بالداخل السفير سعد مرتضى، والوزير المفوض محمد بسيوني، وكان معهما سكرتير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية ديفيد كيمخي، والسفير ديفون، ومدير إدارة مصر والشرق الأوسط بوزارة الخارجية السفير كيدار، وألقيت التحية على الجميع وصافحتهم ثم انتحيت جانبًا بالسفير سعد، وسألته عما حدث في وزارة الخارجية الإسرائيلية، مبديًا استعدادي لمغادرة تل أبيب على الطائرة الخاصة التي حضر بها الدكتور أسامة الباز، فابتسم السفير وتحدث بهدوء، وبصوت هامس، قائلًا: «لم ألتقِ الوزير شامير، بل التقيت السفير كيدار الذي قال لي إن الحكومة الإسرائيلية بكل هيئاتها وأجهزتها تود معرفة معلوماتي عن هذا الموضوع، وقد أجبته بإبداء اندهاشي من هذا النبأ؛ لأن العلاقات المصرية البريطانية في أفضل حالاتها، ومن شأن هذا الموضوع أن يُلقي ظلالًا لا داعي لها على تلك العلاقات، وأخبرته أن الأنصاري قد مارس عمله كدبلوماسي له اتصالات عادية، ولم يتسلم أي وثائق أو معلومات سرية من رونا، ولم يكن يجمع بينهما سوى الاتصالات المعتادة بين الدبلوماسيين في إطار تبادل المعلومات العادية»، وأضاف السفير أن كيدار أخبره

بوضوح بأن الخارجية الإسرائيلية ليست لديها النية في الوقت الراهن لإعلاني شخصًا غير مرغوب فيه.

وأطلعت السفير سعد مرتضى على المذكرة التي كتبتها بمساعدة المستشار حسن عيسى تحسبًا لطلب د. أسامة الباز لتقديم مذكرة لشرح ما حدث، وقد قرأها السفير وأبدى ارتياحه وموافقته على ما جاء فيها من تحليل وتقييم وتقدير للموقف.

وفي هذه الأثناء، وصلت الطائرة «الميستير»، وذهبنا جميعًا لاستقبال السفير الدكتور أسامة الباز، الذي بادر بمعانقتي أمام الجميع، وكان هذا التصرف إشارة إلى أن الدعم المصري سيكون من نصيبي.

وقد تأكد هذا المعنى عندما دعا ديفيد كيمخي الدكتور أسامة الباز إلى عشاء خاص في فندق «هيلتون»، قائلًا إن العشاء سيقتصر من الجانب الإسرائيلي عليه هو وديفون وكيدار، وسأل عمَّن سيحضر من الجانب المصري، فأخبره د. أسامة بأن الذين سيحضرون معه العشاء هم السفير والوزير المفوض، وأنا! وكانت مفاجأة سعيدة أخرى لي، ولا شك أنها لم تكن سعيدة للجانب الإسرائيلي، وقد ظهر هذا بوضوح على وجه كيمخي!

وفي اليوم التالي نشرت صحيفة «إيديعوت إحرنوت» صورة ظهر فيها د. أسامة الباز وبجانبه ديفيد كيمخي، وكيدار، وخلفه سعد مرتضى، ومحمد بسيوني، وخلفهما حارس د. أسامة، وكنت أنا خلف الجميع، ولكن التعليق كان مستفزًّا، حيث كُتب تحت الصورة: «رفعت

الأنصاري الدبلوماسي المصري الذي نشرت الصحف عنه أنه تلقى معلومات من الدبلوماسية البريطانية رونا ريتشي كان بالأمس ضمن مستقبلي مستشار الرئيس مبارك الدكتور أسامة الباز لدى وصوله إلى البلاد، وقد استقبل الأنصاري السكرتير الأول في السفارة المصرية في تل أبيب د. أسامة الباز مع السفير سعد مرتضى ومدير عام الخارجية ديفيد كيمخي»، وقد عبَّر هذا التعليق عن مدى ضيق السلطات الإسرائيلية - ممثلة في إعلامها - من ظهوري في المحادثات الثنائية، واستمراري في أداء مهامي ومزاولة حياتي اليومية بشكلٍ معتاد.

*رجائي بعدم نقلي من إسرائيل:

ذهبنا إلى دار السكن وجلس الجميع في حالة استرخاء، ثم دار حديث عن قضية رونا، ووجَّه د. أسامة حديثه إليَّ، وقال ضاحكًا: «أنت تذكرني بفرعون مصر الذي كانت حاشيته ومعظم مصادر معلوماته من سيدات يعملن لدى أعدائه!»، وضحك الجميع، ثم تحدث د. أسامة بجدية قائلًا: «بناءً على طلب السيد النائب كمال حسن أريد منك مذكرة بخط اليد بها كل المعلومات بشأت ما حدث»، فأخرجت المذكرة من حقيبة يدي وأعطيتها له مبتسمًا، فأبدى اندهاشه قائلًا: «أنت مستعد، ويبدو أنك تقرأ أفكارنا...»، فقلت: «كان هذا هو تقدير المستشار حسن عيسى، وكان مصيبًا في تقديره وتوقعه»، وكان المستشار حسن متواجدًا فأبديت تقديري واحترامي لشخصه، ثم نظر

د. أسامة إلى السفير سعد مرتضى، وقال: «وأنت أيضًا يا سعد، عليك أن تكتب مذكرة أُخرى بخط اليد تتضمن تقديرك للموقف ولما حدث»، ووعده السفير بأن تكون المذكرة معه في صباح الغد قبل أن يغادر تل أبيب، واستغرق د. أسامة عدة دقائق في قراءة مذكرتي، ثم سألني عن مصادري الحقيقية للمعلومات الخاصة باجتياح لبنان إذا لم تكن رونا هي المصدر، فأخبرته بصراحة أمام الجميع، وذكرت له أسماء مصادري من الإسرائيليين، وفي مقدمتهم يوديت وإيريت، واستعرضت أسلوبي في جمع المعلومات، وما حدث بشأن استقالة سائق المكتب الحربي البريطاني، وذكرت باختصار نموذج محاكاة لجمع المعلومات وكيفية تحليلها، فبدا السرور على د. أسامة وسألني عما إذا كنت أريد نقلي إلى أي سفارة أخرى أو إلى الديوان العام في ضوء الهجوم العنيف الذي تشنه عليَّ الصحافة الإسرائيلية، فقلت له إنني على علم بنقلي في وقت ما، ولكن النقل الآن سيؤكد الادعاءات الإسرائيلية الخاصة بتورطي في عملية تجسس، وأعربت عن رجائي بأن أستمر في عملي في إسرائيل لمدة ستة أشهر أخرى، وبعد ذلك يمكن نقلي في هدوء ليتكون انطباع لدى الرأي العام الإسرائيلي بأنني لم أكن متورطًا في أي قضايا تجسس، متوقعًا أن تأخذ الحملة الصحفية وقتها، ثم تنتهي خلال شهرين على أقصى تقدير، كان هذا هو تقديري للموقف في ذلك الوقت، ووافقني المستشار حسن عيسى، وعلّق الوزير المفوض محمد بسيوني بأن الجانب الإسرائيلي لن يصمت، وأن حملة إعلامه ستتصاعد لدرجة قد تشكل خطورة على حياتي، فاستغرق د. أسامة في التفكير قليلًا، قبل أن يعدني بأنه سيعمل على إقناع النائب كمال

حسن بوجهة نظري، ولكنه استدرك قائلًا إنه في حالة تطور الأمور إلى الأسوأ فسيتم النقل فورًا مع مراعاة أن يكون ذلك إلى موقع متميز، ثم نصحني بأن أمارس حياتي اليومية خلال هذه الفترة بالشكل المعتاد، دون المغالاة في الظهور، أو الإفراط في الانطواء.

توجهنا بعد ذلك - بسيارات السفارة - إلى فندق «هيلتون»، ودخلنا من باب خلفي، وكما وعد كيمخي، فقد كان عشاء عمل ودي بدون صحافة وإعلام، وجلسنا جميعًا في صالون ملحق بالجناح لتناول مشروب، ثم انتقلنا إلى العشاء - غير الرسمي - وكانت طاولة مستديرة، وفوجئت بالدكتور أسامة الباز يطلب مني أمام الجميع أن أجلس بجواره، وكانت هذه إشارة أخرى لدعم مصر لي، بدأ الحديث في أثناء العشاء المطول، حيث ذكر د. أسامة أنه يحمل مقترحات رسمية مصرية لترسيم الحدود، وأن الجانب المصري على استعداد لإيجاد حل لأي معوقات في هذا الشأن، بما في ذلك شراء الفندق الموجود في طابا، وأن الرئيس مبارك لن يقبل بتأجيل الانسحاب الإسرائيلي من سيناء بسبب الخلاف على نقاط الحدود في ضوء ما تم نشره في صحيفة «عالهمشمار»، التي ذكرت أن إسرائيل تلوح بعدم الانسحاب من بقية سيناء إذا لم توافق مصر على اعتبار «طابا» منطقة محايدة بين الدولتين، وقال إنه سيترك للجانب الإسرائيلي المقترحات المصرية لدراستها، مؤكدًا أن الرئيس مبارك يرغب في سرعة إجراء الاتصالات اللازمة في هذا الشأن، مشيرًا إلى أنه قد تقرر دعوة شارون لزيارة القاهرة خلال أسبوع.

ومن جانبه، أكد كيمخي أنه سينقل ذلك إلى رئيس الوزراء بيجين، ووزيري الدفاع والخارجية شارون وشامير، ثم انتقل الحديث إلى معوقات التطبيع، ووعد د. أسامة بحل الموضوعات العالقة، وإزالة العقبات الروتينية بشأنها، ثم انتقل الحديث إلى بدء محادثات الحكم الذاتي التي توقفت، وأعرب د. أسامة عن رفض مصر للمطلب الإسرائيلي الخاص بإجراء محادثات الحكم الذاتي في القدس، وفجأة رن جرس الهاتف، وأجاب كيمخي، ثم نظر إلى د. أسامة ليخبره برغبة الصحفية اللامعة - حسب وصفه - سميدار بري بالتعرف إليه، مؤكدًا أنها حاولت لقاءه في القاهرة أكثر من مرة ولم تنجح في ذلك، وسأله إن كان يأذن لها بالقدوم لدقيقة واحدة من أجل التعرف إليه وتحديد موعد للقائها بالقاهرة في المستقبل القريب، ومرة أخرى فاجأ د. أسامة الجميع - وأنا أولهم - حين نظر إليَّ وسألني إن كان يوافق على ذلك أم لا يوافق، وكان السؤال مفاجئًا لي بدرجة مربكة، ولكنني تمالكت نفسي، وقلت باحترام إن الأمر يعود إليه في الرفض أو الموافقة، ولكن في حالة الموافقة فيجب تطبيق الشرط الذي ذكره السيد كيمخي بشأن عدم الحصول على أي تصريحات صحفية الآن، ونظر د. أسامة إلى كيمخي قائلًا: «أرجو أن تؤكد عليها أن اللقاء سيكون لمدة دقيقة واحدة، وللتعارف فقط»، وأخبرها كيمخي بأنها تستطيع الحضور للمصافحة فقط دون أن تحصل على تصريح واحد، وبالفعل دخلت سميدار بري، وصافحت الموجودين، وعندما رأتني ظهر الشحوب على وجهها، ثم استدارت إلى السفير أسامة الباز قائلة: «أنا لا أستطيع الوصول إليك على الرغم من محاولاتي العديدة، أرجوك أعطني رقم

تليفونك الخاص بالقاهرة؛ فقد فشلت في الحصول عليه من مساعديك أو سكرتيرة مكتبك...»، ولم يتركها الدكتور أسامة لتكمل حديثها، بل قاطعها طالبًا منها أن تتصل الأسبوع المقبل بمكتبه لتحديد موعد للقاء، ولم يعطها أي رقم هاتف خاص به.

انتهى العشاء وجلسة المحادثات وانصرفنا جميعًا، وفي الصباح مررت على د. أسامة والسفير سعد في دار السكن، وانتحى بي السفير جانبًا ليعطيني المذكرة التي أعدها حتى أراها قبل أن يسلمها للدكتور أسامة الباز، فشكرته وأعربت له عن تقديري لهذه اللفتة، وذهبت إلى غرفة مكتبه وقمت بتصويرها ثم أعدت إليه الأصل، وكانت المذكرة تحتوي على تقرير عن واقعة إلقاء القبض على رونا، والظروف والملابسات المحيطة بذلك، وما يمكن أن يكون وراءه من دوافع، وما له من آثار، وأشارت المذكرة إلى طريقة التناول الصحفي والإعلامي للقضية، سواء طريقة بث النبأ في الإذاعة والتلفزيون، أو في تخصيص أماكن بارزة بالصفحة الأولى في معظم الصحف، وما تضمنته من تعليقات سلبية للغاية تسيء إلى العلاقات المصرية الإسرائيلية، وكيف أبدت الصحف دهشتها من استمراري في العمل ومتابعتي لحياتي اليومية كالمعتاد، وأشار السفير سعد في مذكرته إلى لقاءٍ عابرٍ مع السفير البريطاني في حفل استقبال يوم السبت 20 مارس، وأن الأخير حيَّاه ببرود غير معتاد، ورجَّح أن يكون الأمر كله قد نُقل لعلم السلطات البريطانية بواسطة الإسرائيليين بهدف الإساءة إلى مصر، كما تناولت المذكرة الضجة الإعلامية التي رافقت الموضوع، وضرورة عدم الإقلال منها، وكيف ركزت الصحف على هذا الموضوع بدليل اشتراك

أربعة صحفيين معروفين من جريدة «معاريف»، واثنين من «إيديعوت إحرنوت» في كتابة مقالات وتعليقات سلبية، وانتقل إلى شخصية رونا ووصفها بأنها تستدعي الاهتمام، ثم تناول تقييم أدائي فذكر أنني أقوم بعملي في السفارة بشكل مرضٍ، وأن اتصالاتي الدبلوماسية والاجتماعية لا غبار عليها، وأن ما قدمته من معلومات كان جهدًا شخصيًّا ولم أكلَّف به من السفارة، وانتقلت المذكرة إلى تحليل توقيت الحدث باعتباره وقتًا تتسم فيه العلاقات المصرية الإسرائيلية بالتوتر، بعد تأجيل زيارة الرئيس مبارك إلى إسرائيل، وتأجيل محادثات الحكم الذاتي، والخلاف على الحدود، وغيرها، وأن الوقت غير مناسب لمثل هذه المواضيع التي استغلتها بعض الصحف ووسائل الإعلام على نحو غير إيجابي، وانتقلت المذكرة إلى دور المخابرات الإسرائيلية في إبلاغ ما دار للسلطات البريطانية؛ لأنها وحدها تملك وسائل التنصت والمتابعة لكل ما يدور في إسرائيل، ثم سرد في مذكرته آثار هذا الحدث على العلاقات المصرية البريطانية، مشيرًا إلى ضرورة تصحيح الصورة بالشكل الذي تقدره الوزارة، وفي الوقت المناسب، لإيضاح تلك الأمور، وحتى لا تترك رواسبها أثرًا على العلاقات الثنائية المصرية البريطانية الطيبة.

وأوصى السفير سعد مرتضى في مذكرته بعدم نقلي في المستقبل القريب حتى لا يكون في ذلك اعتراف ضمني بمسئوليتي، مؤكدًا على أنه إذا ما تقرر نقلي تحاشيًا للحرج، فلا بد أن تقدر الوزارة عند نقلي أنني قمت بعملي على وجه مشكور.

كانت المذكرة مؤيدة وداعمة لموقفي، وكان السفير منصفًا في عرضه لما حدث، وتقديره للموقف، ولذلك فقد قدمت له شكري وتقديري على دعمه ومساندته لي.

*توتري بسبب تطاول الإعلام الإسرائيلي:

خلال الفترة من 19 مارس إلى أول إبريل، نشرت الصحف الإسرائيلية ما يزيد على خمسة وستين خبرًا ومقالًا مسيئًا للغاية، وفيما يلي بعض ما نشر في عدة صحف إسرائيلية:

*«إيديعوت إحرنوت» - 21 مارس:

تحت عنوان: «قضية الجاسوسية.. هل هي جزء من التطبيع؟»، وصفت الصحيفة ما حدث بأنه قضية شاذة، استغلت فيها رونا حصانتها الدبلوماسية لا للتجسس من أجل وطنها، بل لصالح مصر، وشبهت الصحيفة القضية بقضايا هارولد فيلبي، ورونالد ماكلين، وفيليب برجس، وهم دبلوماسيون بريطانيون عملوا في واشنطن وتجسسوا لصالح الاتحاد السوفييتي، مشيرة إلى أن قضيتي لم تحدث في تاريخ إسرائيل إلا مرة واحدة في عام 62، عندما عمل دبلوماسي من إحدى دول الكومنولث البريطاني في التجسس من إسرائيل لصالح مخابرات إحدى دول الكتلة الشرقية.

*«علهمشمار» - 21 مارس:

جاء فيها تحت عنوان: «دبلوماسي مصري يلجأ إلى الأسلوب السري لجمع المعلومات» ما يلي: ذكرت وثيقة الـ CIA التي كشفها الإيرانيون أنه حتى بعد توقيع اتفاقية السلام فستظل مصر الهدف الرئيسي للمخابرات الإسرائيلية، وقد أخطأ هذا التقرير الأمريكي في عدم ذكر جهود المخابرات المصرية تجاه إسرائيل، أو على الأقل حقيقة أن المخابرات المصرية تنظر إلى إسرائيل كما كانت تنظر إليها في الماضي، والدليل على ذلك أنه بعد زيارة الرئيس السادات للقدس بثلاثة أشهر رفضت مصر طلب إسرائيلي خاص بإصدار عفو عن شخص حكم عليه بالإعدام في مصر بتهمة التجسس لصالح إسرائيل طوال عامين، وقد أُعدم بالفعل، وفي مايو 79 ألقت مصر القبض على طبيب مصري أُتهم بالتجسس لصالح إسرائيل طوال 17 عامًا.

*«جيروسالم بوست» - 21 مارس :

نشرت الصحيفة تقريرًا أشار إلى أن إسرائيل سادها صمت إزاء قضية إلقاء القبض على رونا بتهمة إفشاء أسرار لزميلها رفعت، وأن المسئولين بالقدس أكدوا على أنه ليس لإسرائيل دخل في ذلك، وليس لديهم ما يذكرونه سواء بشأن رونا أو رفعت، ولم يؤكد المسئولون بالإيجاب أو النفي ما إذا كانت إسرائيل على علم مسبق بإلقاء القبض على رونا، أو ما إذا كانت السلطات الإسرائيلية قد تقدمت بشكوى ضدها، وأشارت الصحيفة إلى أن رونا أعلنت أنها بريئة من التهم الموجهة إليها عند سماع قرار الاتهام.

***«معاريف» - 21 مارس:**

نشرت الصحيفة تقريرًا اشترك في كتابته أربعة صحفيين في مقدمتهم الصحفية إنجة دويتشكرون، رئيسة نقابة الصحفيين، وقد بدأ التقرير بسرد عدد من المقابلات مع جيران رونا في تل أبيب، ونقلت على لسان أحدهم أنني كنت أقيم تقريبًا عند رونا، وهذا بالطبع لم يحدث، لكنني لم أندهش من هذا التلفيق؛ إذ إن الصحيفة ادعت إجراء مقابلة معي، وذكروا على لساني ما لم أقله، وزعمت الصحيفة كذلك أنها أجرت حديثًا مع السفير المصري، وقد أكد لي السفير سعد مرتضى أن هذا لم يحدث، وتناول التقرير معلومات عن رونا، ودراستها للغة العبرية، وانتخابنا معًا في مجلس إدارة جمعية الدبلوماسيين الأجانب في إسرائيل، وألمحت الجريدة إلى وجود علاقة سابقة بيني وبين رونا بدأت عندما كنت أعمل بسفارتنا في لندن.

***«معاريف» - 22 مارس:**

تحت عنوان: «التزام الصمت حول قضية رونا»، كتبت الصحيفة أن أفراد أسرة رونا وأقاربها، وحتى جيرانها أيضًا، يلتزمون الصمت المطبق بعد إطلاق سراحها بكفالة عشرة آلاف جنيه إسترليني وعودتها إلى منزل والديها يوم 20 مارس، مشيرة إلى أن رونا ترفض التحدث مع أي شخص، وأن الصحيفة - أي «معاريف» - أوفدت ثلاثة صحفيين إلى مدينة «إرديري» في أسكتلندا للقاء رونا، وأنهم جميعًا فشلوا في الحصول على أي معلومات، واختتمت الصحيفة تقريرها بالإشارة إلى أن الصحف الأسكتلندية أطلقت على رونا لقب: «ملكة حفلات الليل في تل أبيب!»

* «هاعولام هاذيه» - 24 مارس:

أوردت المجلة تحقيقًا كبيرًا تحدث عن ظهوري أنا وورونا معًا «في جميع المناسبات الاجتماعية»، ووصفتنا إحدى الصحفيات بـ «رفعت الأنصاري وحرمه»، وأن القضية عكست قصة حب في المجال الدبلوماسي بإسرائيل، وادعت المجلة أن ريتشي تعرَّفت عليَّ في لندن، ونشأت بيننا علاقة وطيدة في ضوء أنني «مطلق»، ولي نجل عمره ثمانية أعوام، ووصفتني بأنني اجتماعي، وأتصادق بسرعة، وأن رونا كانت رفيقتي في حفل العيد القومي المصري، وفي حفل عيد ميلاد بيتا روزنبلوم (لا أعرف مَن هي بيتا هذه!) وأننا اعتدنا أن نلتقي يوميًّا لتناول الغداء في المطعم الصيني بشارع «ديزنجوف» (لم أدخل المطعم الصيني مطلقًا، لا مع رونا ولا مع غيرها؛ لأنني لست مغرمًا بالطعام الصيني)، وادعت المجلة أننا كنا نطلب من صاحب المطعم أن يتيح لنا الجلوس في الطابق السفلي من المطعم، وأننا اعتدنا أيضًا تناول القهوة في مقهى «إكسودس» القريب من منزلي.

وذكرت المجلة أن الخارجية البريطانية تحيط الموضوع بالغموض والكتمان، وأنني أزاول حياتي العادية، وأحرص على مشاهدة مسلسل «دالاس» كالعادة، وزعمت المجلة أن مراسلتها اتفقت معي على مقابلتها يوم 23 مارس لأدلي برأيي في الموضوع، ولكنني لم أحضر للموعد (وهذا لم يحدث بالطبع)، واختتمت المجلة تحقيقها الطويل بتصريحات السفير سعد مرتضى، الذي أعرب عن دهشته إزاء أعمال النشر «غير

النظيفة» حول القضية، الأمر الذي من شأنه الإضرار بالعلاقات الممتازة مع بريطانيا، وأن مثل تلك الأمور لا لزوم لها على الإطلاق.

***«معاريف» - 26 مارس:**

سردت الصحيفة، في تقرير طويل، وقائع القبض على رونا، مستعرضة حياتها في أثناء تواجدها بإسرائيل، مشيرة إلى أن الاتهام الموجه لها هو تسليمها وثائق سرية لرفعت الأنصاري، وتناولت الصحيفة تصريحات السفير المصري في تل أبيب بأنه لا يرى أي داعٍ لنقل الأنصاري من منصبه، وأن هذا هو رأي الخارجية المصرية أيضًا، وتساءلت الصحيفة عما إذا كان سيتم دعوة أحد الدبلوماسيين البريطانيين ليحل محل رونا في مجلس إدارة جمعية الدبلوماسيين الأجانب أم لا، مشيرة إلى أن السفارة البريطانية قد أعلنت أن الدبلوماسي جورج شادث قد تولى مهام منصب رونا بصفة مؤقتة.

***«معاريف» - 29 مارس:**

ذكرت الصحيفة في صفحتها الأولى تحت عنوان: «إسرائيل تلمح لمصر بأن الأنصاري غير مرغوب فيه»، أن إسرائيل ألمحت لمصر بأنها تفضل إعادة الدبلوماسي رفعت الأنصاري إلى القاهرة بسبب دوره في قضية التجسس التي ارتبط فيها اسمه باسم الدبلوماسية البريطانية رونا ريتشي، وأضافت الصحيفة: لقد امتنعت مصر عن إعادة رفعت خوفًا من تفسير هذه الخطوة على أنها اعتراف ضمني بضلوعه في قضية التجسس، وقد تدارست الدوائر السياسية في القدس إمكانية الإعلان

عن أن رفعت شخصية غير مرغوب فيها، ولكن تقرر عدم القيام بذلك حتى لا يسفر عن حدث دبلوماسي في فترة حساسة للغاية في علاقات الدولتين.

***«إيديعوت إحرنوت» - 30 مارس:**

نشرت الصحيفة في صفحتها الأولى مقالًا بعنوان: «القاهرة تدرس هل حُرق رفعت كدبلوماسي»، أشار إلى أن الصحف المصرية لم تنشر كلمة واحدة عن قضية رفعت ورونا، وأن وسائل الإعلام المصرية تتجاهل عن عمد القصة التي احتلت العناوين الرئيسية ونُشرت في الصفحات الأولى في إسرائيل وبريطانيا، وذكرت الصحيفة أن القصة يتم تداولها «همسًا» في أغلب حجرات مقر وزارة الخارجية المصرية بميدان التحرير، مشيرة إلى أن أحد الدبلوماسيين - وهو على معرفة برفعت - أعرب عن دهشته قائلًا: «إنكم تختلقون قصصًا»، وقالت الصحيفة إن الخارجية المصرية تصر من الآن فصاعدًا على إشراك رفعت الأنصاري في كل الاجتماعات واللقاءات الرسمية التي تعقد بين وفدي مصر وإسرائيل، وأن أحد المسئولين بالخارجية المصرية - رفض ذكر اسمه - قد أوضح أنهم سيعكفون في الأسابيع القادمة على دراسة موضوع «إمكانية استمرار الأنصاري في عمله بإسرائيل أم أنه قد حُرق كليًا كدبلوماسي أحد مهامه الرئيسية تكوين علاقات طيبة، وإذا ما اتضح بالفعل أن المجتمع الإسرائيلي قد أغلق أبوابه في وجه الأنصاري فسوف يُستدعى إلى القاهرة وسيكون قرار استمراره في إسرائيل من عدمه خاضعًا لذلك.

*«بومان هاشفوح» - 30 مارس:

ظهرت المجلة وهي تحمل على صفحتها الأولى عنوان: «دبلوماسي من المخابرات»، وأوردت تقريرًا جاء فيه أن رونا اعترفت بالاتهامات الخطيرة التي وجهها إليها محققو مكافحة التجسس في بريطانيا، وأنها قالت: «لقد سلَّمت لرفعت مادة من سفارتنا في تل أبيب، ولم يخطر ببالي أن هذا عمل تجسسي»، وقد أدى هذا الاعتراف إلى عدم اعتراض ضباط التحقيقات في لندن على توجيه نص اتهام «ليِّن» ضدها، وإطلاق سراحها - بضمان - حتى بدء المحاكمة، وأضافت المجلة: وهكذا انتهت فترة عمل قصيرة في السلك الدبلوماسي للعاشقة التي وقعت في شراك «دون جوان ضفاف النيل» كنساء أخريات كثيرات، إلا أن رفعت تمكن من الحصول على معلومات سرية إلى جانب قصة الحب، وبدأت المجلة في الحديث عني قائلة: لقد كان الأنصاري «زبونًا معروفًا» لأجهزة مكافحة التجسس البريطاني منذ الفترة التي عمل فيها كسكرتيرٍ ثانٍ بسفارة مصر في لندن، فالأنصاري - ذو القامة الطويلة وحُسن المظهر - يحب الحياة، وقد اعتبره الـ (MI5) - جهاز المخابرات البريطاني - عميلًا للمخابرات المصرية أُرسل إلى لندن تحت ستار دبلوماسي للعمل في ميدان جمع معلومات سرية من أي نوع به فائدة لمصر، وحقيقة أنه كان في أثناء عمله في لندن ما يزال متزوجًا وأبًا لطفل لم تعقه عن تطوير أسلوبه الفريد في عالم التجسس عن طريق حجرة النوم، وقد تضمنت قائمة عشيقاته في لندن عددًا من أسرة السلك الدبلوماسي، كما تضمنت نساء إنجليزيات من مختلف

الوزارات الحكومية، وقد جمع الأنصاري في لندن بين اللهو والمرح والعمل على نحو أثار الإعجاب والتقدير لقدراته بين رجال مكافحة التجسس البريطاني المحنكين الذين لا يعرف أحد مثلهم مدى إمكانية بيع «أسرار الدولة عن طريق حجرة النوم»، وقد تنفس رجال الـ (MI5) الصعداء حين تم نقل الأنصاري إلى إسرائيل وترقيته إلى درجة سكرتير أول، ولكن راحتهم لم تطل كثيرًا؛ فبسرعة أدركوا أن الأنصاري مستمر في الخط الذي كان يتبعه في لندن، ويجند لخدمته دبلوماسية من سفارتهم في تل أبيب، حيث كانت رونا في موقع يمكنها خلاله الاطلاع على الكثير من الأسرار، ولذا قرر الـ (MI5) إعادة رونا إلى لندن، ولكنهم لم يعتمدوا على الخارجية، فقد خشي المحققون في جهاز الـ (MI5) من إطلاع كبار مسئولي الخارجية على سر قضية الأنصاري مع رونا كي لا يتم تسريب معلومات عن الموضوع في وقت سابق لأوانه، ولذا تم ترقية رونا إلى درجة سكرتير أول قبيل إلقاء القبض عليها بشهر، وكانت رونا غارقة تمامًا في حبها لدرجة أنها لم تنتبه لشبكة الأنصاري التي وقعت في شراكها. لقد أحبت الأنصاري بحق وبصدق ولم تهتم بأسلوبه مع السيدات الإسرائيليات اللاتي وقعن بسرعة في حبه تحت إغراء التألق والبريق المزيف الذي يحيط بشخصه، ولم تصرِّح رونا بأنها حامل من الأنصاري إلا لصديقة واحدة، وقد أخبرتها بأنها تريد تربية طفلها أملًا في الزواج من رفعت في النهاية ولكن الأنصاري كان محترفًا وأبعد ما يكون عن الزواج من رونا، وبحزنٍ بالغٍ أجرت رونا عملية الإجهاض وعانت الكثير لا لشيء إلا للعودة إلى محبوبها المصري، ثم تساءلت المجلة عما يمكن أن تقدمه رونا «لرجل مخابرات محنك

كاالأنصاري»، ثم أجابت: هي مادة غنية جدًّا وذات قيمة كبيرة ويمكن أن تضر إسرائيل بشكلٍ خطيرٍ؛ فالسفارة البريطانية لها موقعها الخاص الذي يمكنها من جمع مادة غنية في دولة حساسة كإسرائيل في مجال السلام والحرب في الشرق الأوسط، وتدخل لورد كارينجتون - بتوجيه من رئيسة الوزراء تاتشر- في أوضاع الشرق الأوسط، وحوَّل السفارة البريطانية في إسرائيل إلى مركز جمع معلومات شرعي، ولذا كانت رونا تستطيع أن تجمع للأنصاري مادة سرية. ويبدو أن رونا - كي تدافع عن نفسها - زعمت أنها لم تسلم الأنصاري أي مادة بها ما يضر بأمن بريطانيا وأسرارها، وإنما مادة تتعلق بإسرائيل فقط، وبالتالي لم تمس أمن بريطانيا، وهذا الادعاء يمكن بالطبع أن يفيد رونا نظرًا لأن ذلك في نظر المحققين البريطانيين أقل خطورة مما لو كانت ريتشي قد سلمت العميل المصري «أسرار دولة» تتعلق بأمن بريطانيا المباشر، وبالتالي لم تعمل ضد المصالح البريطانية، بل على العكس فهي تخدم السياسة البريطانية الرسمية المؤيدة للسلام وإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكارينجتون نفسه - الذي سيزور إسرائيل أول إبريل - سيعرض نفس وجهة النظر ولكن - على صعيد مكافحة التجسس - كان لا بد من إعادة رونا فورًا إلى لندن بحجة الإعداد لزيارة كارينجتون، ولم يعلم أحد في السفارة البريطانية بإسرائيل السبب الحقيقي لهذا الاستدعاء، ولقد فوجئت رونا نفسها في المطار بأن هناك شخصين ينتظرانها ليقوداها إلى التحقيق في مبني جهاز الـ (MI5) بأحد أحياء لندن، وقد تأكدت مما أوردته الصحيفة عن تفاصيل القبض على رونا فيما بعد من السفير سعد مرتضى، حيث أخبرني بأن لقاءً فاترًا

جمعه والسفير البريطاني موبرلي، ما أثار دهشة السفير سعد، وعندما سأل بعض المقربين لكليهما، عرف أن موبرلي فوجئ عند وصوله إلى مطار «هيثرو» ومعه رونا باقتراب شخصين، تبين بعد ذلك أنهما من جهاز (MI5)، وقد أحاطا رونا وأخبراها وهي بصحبة السفير بأنها مقبوض عليها، وقد حاول موبرلي التدخل، لكنهما أخبراه بأن الأمر ليس من شأنه، وأكدا له أن وزارة الخارجية البريطانية ليست على علم بما يجري، وأنه سيتم إبلاغ الوزارة فيما بعد، وقد شعر موبرلي بالإهانة لعدم تمكنه من التدخل في هذا الموقف، ولم يعرف حقيقة الأمر حتى تم إبلاغ الخارجية البريطانية صباح يوم 18 مارس بقرار اتهام رونا.

أما الصحافة البريطانية فقد اتسمت أخبارها بالموضوعية، حيث كانت تنشر الأخبار دون تعليقات سلبية أو مسيئة، واكتفت بالحديث عن رونا وعملها في الخارجية، ثم انتقالها إلى السفارة البريطانية في تل أبيب.

ولا أنكر أن ما كان يُنشر في الصحف الإسرائيلية كان يصيبني بالتوتر والضيق، بسبب كثرة الادعاءات والبذاءة المستخدمة في بعض المقالات المنشورة عن القضية، وكنت أشعر بالغثيان من قراءة ترجمة المقالات الواردة في الصحف العبرية، بسبب الأكاذيب التي وصلت إلى حد اختلاق مقابلة صحفية معي – وهو ما لم يحدث على الإطلاق – وكنت في هذه الفترة أواجه ضغوطًا نفسية، وتوترًا عصبيًا مع تزايد وتيرة الإعلام الإسرائيلي سوءًا، وكانت كتابات الصحافة الإسرائيلية تحرض الشعب الإسرائيلي على غلق أبوابه في وجهي؛ لأن ذلك من شأنه أن «أُحرق» ولا

يكون لبقائي في تل أبيب أي فائدة، ولم يأخذ الإعلام في حسبانه طبيعة الشعب الإسرائيلي «الفضولي» لكل ما هو ممنوع، وقد أتت حملات الإعلام الإسرائيلي بنتيجة عكسية، حيث أسفر عن رغبة جامحة للتقرب مني والتعرف عليَّ، خاصة من جانب المواطنات الإسرائيليات، وقد تعرفت على العديد منهن في مناسبات اجتماعية دُعيت إليها وحضرتها - في أثناء هذه الحملة المتصاعدة ضدي - ومن هؤلاء سيدة تدعى شولاميت، كانت في الثلاثين من عمرها تقريبًا، وكانت تعمل في مجال السياحة، الذي اعتبرته متنفسًا لي، وبابًا أطرقه لكي أُمارس حياتي اليومية بشكلٍ عادي، خاصة بعد أن قطعت علاقتي نهائيًّا مع إيريت، ويوديت، خوفًا عليهما، وقد لاحظت في لقاءاتي النسائية أنهن يحرصن على عدم مفاتحتي في موضوع رونا أو ما يُنشر في الصحافة الإسرائيلية بشأني، وشعرت أن المجتمع الإسرائيلي قد فتح لي كل أبوابه، على عكس ما كانت ترغب الحملات الصحفية والإعلامية الموجهة ضدي، ولم يعد هناك حذر نحوي من جانب الإسرائيليين، فقد أصبح «اللعب على المكشوف»، لو جاز هذا التعبير.

*توتر العلاقات بين مصر وإسرائيل :

أخبرني السفير سعد مرتضى بالتوتر القائم بين مصر وإسرائيل، وذكر أن الحكومة الإسرائيلية في اجتماعها الأسبوعي يوم الأحد 21 مارس قررت - بعد المباحثات التي أُجريت مع النائب كمال حسن - الأخذ باقتراح استمرار جيش الدفاع الإسرائيلي في مواقعه وعدم إتمام

الانسحاب من سيناء، وذلك بعد أن استعرض شارون الخلاف مع مصر بشأن ترسيم الحدود، مؤكدًا أن إسرائيل قد قدمت أقصى التنازلات الممكنة، وأن الوسيط الأمريكي لم يتدخل - بشكل جدي - للتوسط لحل الخلاف الحدودي، بل أعرب عن قلقه من تفاقم الخلاف ليصبح أزمة فعلية كما قال له السفير الأمريكي سام لويس، والذي أضاف للسفير سعد مرتضى أن مناحم بيجين قد أرسل إلى الرئيس ريجان رسالة أعرب فيها عن مخاوفه إزاء توجهات الرئيس حسني مبارك الذي قد يتنكر لاتفاقيتي كامب ديفيد والسلام بعد إتمام الانسحاب من سيناء، وأكد بيجين في رسالته أن إسرائيل قد قدمت أقصى حد للتنازلات، وأنه قد حان الوقت لأن تثبت مصر حسن نواياها للتغلب على اختلاف وجهات النظر بشأن ترسيم الحدود التي تزعزع الثقة بين القاهرة والقدس، وتم إبلاغ القاهرة بما سبق وبما أسفرت عنه محادثات د. أسامة الباز في إسرائيل، وعرض الوضع المتوتر في الضفة الغربية ومحاولة المعارضة حجب الثقة عن الحكومة في الكنيست .

*تفاصيل التحقيقات مع رونا :

دار حوار بيني وبين المستشار حسن عيسى عما حدث في أثناء التحقيق مع رونا خلال الأيام الثلاثة التي تم احتجازها فيها - من 15 إلى 18 مارس - وما إذا كنا سنعرف يومًا شيئًا عن هذا الأمر، فاستبعد ذلك موضحًا أنه عادة لا يتم الإفصاح عن أسلوب التحقيق مع المتهم أمنيًا ولا إعلاميًا، مرجحًا أن يكون أسلوب الإقناع هو الذي

تم اتباعه مع رونا لحثها على الاعتراف ولو بتهمة «إفشاء أسرار بدون قصد متعمد»، وأبديت له رغبتي في الاتصال بها، فقال ستكون في ذلك مخاطرة كبيرة، ومن شأن ذلك أن يضر بمصالح رونا وموقفها في القضية، وربما يثير المزيد من الشكوك لدى محققي الـ (MI5)، ونصحني بعدم الاتصال بها مطلقًا، ولفترة كافية بعد صدور الحكم الذي يتوقع أن يكون بالبراءة، مشيرًا إلى أن هذا لا يعني أنها يمكن أن تستمر في عملها بالخارجية البريطانية، وأنها في حالة حصولها على البراءة فسيتم الاستغناء عن خدماتها وتسوية حالتها، أو ستُجبر على تقديم استقالتها.

كنت مشفقًا على رونا من المصير الذي واجهته بلا ذنب، وازداد حنقي على أجهزة الأمن الإسرائيلية، لكنني رغم كل هذه الضغوط عدت إلى ممارسة حياتي اليومية المعتادة، دون إفراط في الظهور أو اختفاء وانطواء، كما نصحني الدكتور أسامة الباز، فكنت ألتقي أصدقائي، وأقبل دعوات بعضهم لي على العشاء، وقد لاحظت وجود أصدقاء جدد في كل دعوة من جانب مجموعة الأصدقاء القدامى، وعلمت منهم أن كثيرًا من المدعوين الجدد كانوا يطلبون أن تتم دعوتهم في أي مناسبة أتواجد فيها، وذلك من باب الفضول وحب الاستطلاع، وقد حرصت تمامًا على الانسحاب بهدوء بمجرد إحساسي بتواجد رجال الإعلام، ولذلك كنت أقبل الدعوات في المنازل الخاصة فقط، وأرفض قبول دعوات الأماكن العامة، وهو الأمر الذي أسفر عن نجاحي – خلال تلك الفترة – في تفادي كاميرات المصورين ولقاءات

الصحفيين، ومررت بفترة عصيبة بسبب محاولات الصحفيين ورجال الإعلام - وبإصرار - مطاردتي وإزعاجي.

وفي أحد لقاءاتي معه، فوجئت بالمستشار حسن عيسى يقول لي هامسًا: «سأبوح لك بسر يجب أن تحتفظ به لنفسك»، وأثارت عبارته الغامضة فضولي، وأردت أن أعرف هذا السر متسائلًا عما إذا كان يتعلق بالتحقيق مع رونا، إلا أنه نفى ذلك، وأخبرني بأنه علم بصفة مبدئية من الأجهزة الأمنية المصرية - قبل حضوره إلى إسرائيل لتسلم مهام عمله الجديد - أن هناك قضية تجسس لصالح إسرائيل في مصر، وأن أحد المتورطين في القضية هو سكرتير أول السفارة الإسرائيلية في القاهرة، والذي يتولى شئون الإعلام والصحافة، وأن أركان القضية كانت جاهزة، وكان سيتم الإعلان عنها، وربما استشعر الإسرائيليون خطورة ذلك فقاموا بضربة استباقية من خلال الإعلان عن القضية الخاصة بك، ونظر إليّ وهو يقول إن الإسرائيليين بهذه الطريقة قد ضربوا أكثر من عصفور بحجرٍ واحدٍ، فقد أبعدوا رونا، وحجّموا نشاطك، وربما سيتم التصعيد معك حتى تترك إسرائيل ـ طوعًا أو كرهًا ـ وفي الوقت نفسه حصلوا على حماية لقضيتهم، حيث إن الإعلان عنها لن يتم تصديقه عالميًّا أو لدى الرأي العام في مصر وإسرائيل، وسيكون هناك اعتقاد راسخ بأن ذلك ليس سوى محاولة من مصر للرد على التحرك الإسرائيلي وليس حقيقة، وبالتالي فإن عنصر التوقيت كان له أهميته القصوى التي لم يدركها الجانب المصري، ولذلك فإن الوقت لم يسعف الأجهزة الأمنية المصرية للإعلان عن قضية التجسس الإسرائيلية التي اكتملت

أركانها، وبذلك فقد نجح جهازا «الموساد» و«الشين بيت» في تحقيق عدة أهداف من الإقدام على خطوة الإعلان عن قضيتك.

وفي 25 مارس تلقت السفارة رسالة من مكتب النائب كمال حسن موجهة إلى السفير سعد مرتضى، وكانت الرسالة تقضي بالإبقاء عليَّ في تل أبيب، مع الإشارة إلى أنه قد يتقرر نقلي خلال الأشهر الستة المقبلة، وأن الوزارة ستراعي أن «يكون مقر عمله الجديد مناسبًا للجهود الاستثنائية والأداء المتميز لسيادته»، وأدركت أن الدكتور أسامة الباز قد أقنع النائب كمال حسن بالأسباب التي ناقشناها لاستبقائي لفترة قد تصل إلى ستة أشهر، يتم سحبي بعدها في هدوء.

وكان من الواضح أن الحملة الإعلامية الشرسة ستستمر، وإن كانت نتائجها تأتي بعكس ما تريد، فبدلًا من أن يغلق الشعب الإسرائيلي أبوابه في وجهي، ازداد فضول الإسرائيليين للتعرف عليَّ والاقتراب مني، كما كان واضحًا أن وزارة الخارجية المصرية تساندني وتدعمني ولا تفكر في نقلي من إسرائيل، وهنا قررت أجهزة المخابرات الإسرائيلية التعامل معي بشكلٍ مختلفٍ، وبأسلوبٍ جديدٍ يجبرني على المغادرة.. وبدأت محاولات اغتيالي!

10

مغادرتي إسرائيل سرًّا

*أول محاولة لاغتيالي:

كان من الواضح أن تواجدي في تل أبيب واستمراري في عملي أصبح يمثل عنصر استفزاز وتوتر لأجهزة الأمن الإسرائيلية، التي وضعت في تقديرها أنه سيتم سحبي إلى القاهرة على الفور بعد إثارة هذه الضجة الإعلامية والمقالات السلبية العديدة التي تناولتها الصحافة الإسرائيلية ضدي، ولذلك فقد اتخذ الجانب الإسرائيلي قراره بتطوير أسلوب التعامل معي، وذلك من خلال عمل تحذيري يبدأ بالترهيب، ويتطور إلى محاولات جدية لاغتيالي.

وقد بدأ المخطط في 25 مارس، ففي أثناء عودتي إلى المنزل، وبعد أن تركت سيارتي في مكان يبتعد مائة متر فقط عن منزلي، وفي أثناء سيري لعبور الشارع باتجاه منزلي، لمحت سيارة «بيجو» سوداء بها أربعة أفراد تغلب على أوصافهم الصفة الرسمية، أو ربما كانوا من رجال الشرطة ولكن بملابس مدنية، كانت السيارة تأتي مسرعة باتجاهي، وكادت تصدمني لولا أنني قفزت على رصيف الشارع، فوجدتها تطلع فوق الرصيف وتتجاوزني بسنتيمترات وأنا أقفز للمرة الثانية فوق سور صغير يحيط بالمبنى الذي أقطن فيه، وحاولت التقاط رقم السيارة بعد وقوعي، لكنها لم تكن تحمل أي لوحات معدنية.

وأدركت على الفور أن ما حدث لم يكن سوى خطوة أولية لإنذاري وبث مشاعر الخوف داخلي، كنت قد أصبت ببعض الجروح والخدوش، وتمزق بنطلوني، وفكرت في الأمر سريعًا وأنا أرى السيارة

تبتعد قبل أن تختفي تمامًا، لقد كانوا يستطيعون اغتيالي بسهولة ـ لو أرادوا ـ ولكن ما تم كان فقط عملًا تحذيريًّا، وبقوة.

*عرض مُغرٍ لنشر مذكراتي:

تلقيت اتصالًا مفاجئًا في السفارة يوم 27 مارس، كان المتحدث هو يوري آفنيري، رئيس تحرير مجلة «هاعولام هاذيه» - أي «هذا العالم» - وكان آفنيري من الحمائم في إسرائيل، وله مواقف معارضة للعمل والليكود، ومن أشد مؤيدي عملية السلام، ومبدأ السلام مقابل الأرض، وحتمية انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة - ليس جميعها - في مقابل السلام، وقد عاتبته في البداية على ما نُشر في مجلته، فقال لي إن ضغوطًا شديدة مورست عليه للنشر بهذا الشكل، ثم قال إنه يتصل بي ليعوضني عما حدث، فقاطعته قائلًا إنني لا أجري أي مقابلات صحفية الآن في ظل الحملة الإعلامية المسيئة لشخصي، فقاطعني بدوره قائلًا إنه لا يريد ذلك، وأخبرني بأنه سيرسل لي مع إحدى صحفيات المجلة مظروفًا مغلقًا، طالبًا مني أن أقرأه بعناية؛ لأتخذ القرار الصحيح بشأنه، مضيفًا أن الأمر إذا ما تم فسيكون مربحًا لكلينا، ورجاني أن أرسل ردي إليه في مظروفٍ مغلقٍ أيضًا، واعدًا بأن يكون ذلك سرًّا بيننا فقط لن يبوح به سوى لعددٍ محدودٍ جدًّا لمدة خمس سنوات!

وبمجرد إنهاء المكالمة، توجهت إلى السفير سعد مرتضى، ورويت له ما جاء في مكالمة يوري آفنيري، فأبدى دهشته من ذلك، وبعد ساعة اتصل

بي أمن السفارة ليبلغني بوجود مندوبة من مجلة «هاعولام هاذيه» ومعها مظروف تريد أن تسلمه لي، فتوجهت إلى مكتب الاستقبال في الطابق الأرضي بالسفارة، ووجدت مندوبة المجلة، التي سلمتني المظروف قائلة: «لديَّ تعليمات بالانتظار لأحصل على ردك، وأرجو أن يكون في مظروف مغلق»، وعندما فتحت المظروف وجدت به عقد اتفاق وخطابًا وشيكًا مصرفيًّا، وبدأت في القراءة، وكم كانت دهشتي كبيرة!

فقد كان العقد لاحتكار نشر مذكراتي مقابل مليون دولار، ومرفق بالعقد شيك مصرفي بهذا المبلغ، وكان العقد المبدئي يتضمن ألا تتجاوز مدة الانتظار لصدور المذكرات أكثر من خمس سنوات! وجن جنوني في لحظتها، ولم أهتم بقراءة عقد الاتفاق بالتفصيل، بل نظرت إلى السيدة التي أحضرت الخطاب، وقلت لها أرجو أن تبلغي ردي التالي للسيد يوري آفنيري، وقمت بتمزيق العقد والخطاب والشيك، ثم وضعتها كلها في المظروف نفسه وسلمته لها وطلبت منها مغادرة المكان على الفور، وتوجهت إلى السفير، فسألني عن سبب غضبي، وأخبرته بالأمر، واعتذرت له لأنني لم أطلعه على ما تم إرساله إليَّ خوفًا من تفسير ذلك بأننا كنا نتدارس الأمر، ورجوته أن يذكر للسيد يوري أنني أعتبر ما حدث إهانة موجهة إليَّ شخصيًّا؛ لأنني كنت أعرف أن علاقتهما طيبة في ضوء مواقف آفنيري من قضية السلام، فنظر السفير إليَّ ضاحكًا، وقال: «مليون دولار مبلغ كبير، وربما ستندم في يوم ما على تصرفك هذا.. كان يمكنك تقديم استقالتك من الخارجية والتركيز في كتابة مذكراتك، وكنت تستطيع التفاوض في الشروط

المالية..»، صدمني كلام السفير، فنظرت إليه بتجهم، وقلت بحدة: «هل تعلم أنني هذا الشخص؟ أنا أعشق وظيفتي وسأستمر بها، وإذا كتبت مذكراتي في يوم من الأيام فلن يكون الناشر مجلة إسرائيلية!»، وفوجئت بابتسامة عريضة على وجه السفير، الذي قاطعني قائلًا إنه كان يمزح معي، ثم بدأ يتحدث بجدية: «أولًا ما قمت به كان تصرفًا سليمًا 100 % وكان عفويًا وتلقائيًا، وبتمزيقك كل ما كان في المظروف، فقد أرسلت رسالة واضحة تمامًا، وفي تقديري أن صاحب هذه الفكرة هو عوديد إيران الذي سبق وأن ذكر لك مبلغ المليون دولار، وربما استشعر يوري - بحاسته الصحفية - أن هذه ستكون فرقعة إعلامية جديدة بها الكثير من الفوائد والمصالح لمجلته.. وسأؤكد له في أول لقاء لنا أن ما فعله يعد إهانة لك وللسفارة ولمصر بأكملها»، ثم صمت قليلًا قبل أن يسألني عما إذا كنت أنوي كتابة مذكراتي لإحدى الصحف المصرية أو العربية، وأخبرته بأنني لا أفكر في ذلك.

*شولاميت تكشف «سواتر» الموساد :

عدت إلى منزلي بعد ظهر 27 مارس بصحبة شولاميت، خبيرة السياحة الإسرائيلية، حيث بدأت في الحديث معي عن السياحة في إسرائيل، ثم نظرت إليَّ فجأة وهي تقول: «لهم حق فيما ينشرونه عنك من ألقاب روميو، ودون جوان، وكازانوفا، وبلاي بوي»، فقاطعتها قائلًا: «ليس مهمًا ما يُنشر عني فهم يبالغون في ذلك وأنا إنسان عادي»، ولم تنتظر حتى أنتهي من كلامي، وإذا بها تقول بوضوح: «أنا أعلم بما سيثير

اهتمامك، ولذا دعني أقل لك إن المكاتب السياحية الإسرائيلية في أوروبا والأمريكتين تقوم بعملها على أكمل وجه، وتبذل جهودًا حثيثة للترويج للسياحة العلاجية والترفيهية وسياحة الشواطئ والآثار»، ثم فاجأتني وهي تتحدث بصراحة أكبر وتقول: «أنت تعلم بالطبع أن جهاز الموساد كثيرًا ما يتخذ المكاتب السياحية الحكومية، وأحيانًا شركات السياحة الخاصة كساتر له، وهي أفضل واجهة لإخفاء العملاء داخلها، وتوجد العديد من وكالات ومكاتب السفر مملوكة لليهود وتتم إدارتها من جانب الموساد، وقد تفتح فروعًا لها - باعتبارها وكالات أوروبية - في العديد من الدول العربية!»، وبدأت شولاميت تستحوذ على انتباهي بالفعل، وعلَّقت على كلامها قائلًا إنني أعلم كل ما ذكرته وكذلك يعلمه كل دبلوماسي قارئ ومطلع، ثم سألتها عن خطط السياحة الإسرائيلية بعد الانسحاب الكامل من سيناء، فإذا بها تحول مسار الحديث بذكاء قائلة إن «الموساد» و«آمان» عادة ما يزرعان عملاءً عربًا لهما على الطرق البرية الدولية العربية، والتي يمكن استخدامها في نقل قوات عسكرية عربية باتجاه الحدود مع إسرائيل، وعملاء الموساد لهم دائمًا «سواتر» مناسبة على هذه الطرق، كاستراحة، أو مقهى، أو مطعم وجبات سريعة، أو محطة بنزين، أو وحدة لخدمة السيارات، أو غيرها، ويتم دعمها ماليًا من جانب «الموساد» و«آمان» في ضوء خسارتها المادية المتوقعة وتشجيعًا لها على الاستمرار، وعندما طلبت منها أمثلة على ذلك، ردت بسرعة وبدون تفكير وكأنها كانت تنتظر السؤال، ذاكرة عدة طرق، منها طرق: بغداد إلى عمان، وبغداد إلى دمشق، وجدة إلى عمان، ودمشق إلى بيروت، فسألتها عما إذا كان يوجد لهم عملاء من هذا النوع في مصر، وبالسرعة نفسها قالت

إنه لا بد من وجود أعين لهم على طرق: العريش، ورفح، وشرم الشيخ، ونوبيع، وطابا، وغيرها، ولكنها لا تعرفهم، ثم استدركت قائلة إن العملاء المتواجدين على طرق الدول العربية يتم تزويدهم عادة بوسيلة اتصال للإبلاغ عن أي تحركات عسكرية باتجاه الحدود، ولا يوجد ما يستدعي عمل ذلك في سيناء؛ لوجود قوات حفظ السلام، والالتزام ببنود اتفاقيتي كامب ديفيد والسلام، بعد ذلك انتقلنا للحديث عن التطبيع، وعن زيارات بيجين وشارون لمصر، فإذا بها تقفز فجأة كمن تذكر شيئًا؛ لتقول: «اسمع هذه القصة فهي مثيرة.. كرميلا أزكين مواطنة إسرائيلية من مواليد 1927، وعملت لحساب المخابرات الحربية آمان في إحدى الدول العربية تحت اسم مارجريت جون دارلنج كبريطانية الجنسية، وكانت متزوجة من يونا آزكين الذي حمل اسم مايكل جوردون، وكانت له مهام أيضًا في إحدى الدول العربية، وقد زارت مصر عام 1979 ضمن وفد برفقة مناحم بيجين، وتم تقديمها لكم في الإسماعيلية باعتبارها سكرتيرة في مكتب رئيس الوزراء يختص عملها بمجال السياحة، بينما زارت مصر في نوفمبر الماضي - 1981 - بصفة مختلفة، حيث أصبحت تمتلك وكالة كرميلا للسياحة، ومن المرجح أنها أقامت هذه الشركة بأموال الموساد، وفي زيارتها الأخيرة قامت بإجراء اتصالات مع المكاتب السياحية المصرية لتنظيم رحلات سياحية إسرائيلية إلى مصر، وهي بالفعل تبذل جهودًا حثيثة لعمل صداقات مع الأوساط السياحية المصرية، ومع فئات بعينها، وتعمل على ربط هذه الفئات مع إسرائيل بروابط المصلحة التجاربة الشخصية!»، وقد أكد لي المستشار حسن عيسى، في أثناء عمله كقنصل عام في «إيلات»، صحة المعلومات التي ذكرتها لي شولاميت.

*المحاولة الثانية لاغتيالي :

ذهبت إلى السفارة في المساء، وأبلغت السفير بما دار مع شولاميت حول القطاع السياحي ودوره في العمل الجاسوسي السري، وتم إبلاغ الخارجية بكل شيء، ثم عدت إلى منزلي في ساعة متأخرة بعد يوم عمل شاق، تبعه عشاء مع بعض الأصدقاء، وفي أثناء سيري في الشارع بالقرب من بيتي، كنت أتلفت حولي بتوجس بحثًا عن سيارة أخرى قد تكرر ما فعلته معي السيارة «البيجو» السوداء من قبل!

ولشدة إرهاقي غرقت في سبات عميق، وبعد فترة لا أعلمها، استيقظت من النوم بسبب شعوري بالاختناق، وأحسست بوجود بخار ماء كثيف في الغرفة، وفي طريقي لإضاءة المصباح شعرت بسخونة عالية في قدمي من مياه على أرضية الحجرة، فأضأت البطارية، التي أضعها عادة إلى جانبي لاستخدامها في حالة انقطاع التيار الكهربي، وفوجئت بوجود كمية كبيرة من المياه تغمر الأرض وتكاد حرارتها تقترب من درجة الغليان، فنزلت من على السرير وخرجت من غرفة النوم وأضأت نور الحمام الملحق بغرفة النوم، لأكتشف أن ماسورة المياه الساخنة قد تم كسرها ـ بفعل فاعل ـ بطريقة واضحة، وأن مياه السخان قد تسربت من الحمام إلى داخل غرفة النوم في أثناء نومي، فاتصلت بالسفارة وطلبت من طاقم حراس الأمن - وكان مكونًا من أربعة عشر جندي حراسة من قوات الصاعقة المصرية - أن يرسل لي ثلاثة حراس على وجه السرعة، وخلال دقيقتين كانوا قد وصلوا، وكان أحدهم يعمل كهربائيًا قبل انضمامه إلى قوات الصاعقة، وقاموا بإغلاق

محابس السخان والمياه وطلب حارس الأمن - الفني في الكهرباء - عدم إضاءة نور غرفة النوم قبل تجفيف المياه من الأرض، وقمنا جميعًا بأعمال التجفيف، ثم أضأنا غرفة النوم، فإذا بالجندي الكهربائي يكتشف انتزاع الغلاف البلاستيكي الذي يغطي السلك الكهربائي للأباجورة، فقال لي بتأثر: «ربنا ستر يا فندم لأنك لو قمت بإضاءة الأباجورة وقدمك على الأرض المغطاة بالمياه لتعرضت لصاعقة كهربائية في الحال»، ثم حملوا الأباجورة معهم لإصلاحها، وطلبت منهم عرضها على السفير قبل إصلاحها، واستغرقت في التفكير، وفي هذه اللحظة أدركت تصاعد حملة الموساد تجاهي، وأن المزاح بدأ يأخذ طابع الجد والخطورة، واستشعرت أنهم على استعداد لعمل أي شيء من شأنه دفعي إلى مغادرة إسرائيل.

وفي صباح اليوم التالي أخبرت السفير بمحاولتَي اغتيالي، وشعرت بقلقه عندما قال لي إنه يجب الإبراق فورًا بالواقعتين للقاهرة، مشددًا على ضرورة أن آخذ حذري من الآن فصاعدًا.

*المحاولة الثالثة لاغتيالي :

ولم تتأخر المحاولة الثالثة لاغتيالي كثيرًا، فقد كنت عائدًا إلى منزلي في العاشرة من مساء يوم 29 مارس، وكثيرًا ما كنت أدخل إلى شقتي وفي يدي سيجارة مشتعلة، ولحسن حظي وطالعي لم يكن بيدي شيء هذه المرة؛ لأنني بمجرد فتح باب شقتي أحسست بضغط في الاتجاه المضاد، ورائحة قوية نفاذة، وأدركت علي الفور أنها رائحة غاز،

وتنبهت فلم أقم بإضاءة النور في مدخل الشقة، وتركت الباب مفتوحًا وأسرعت عائدًا إلى السفارة، وحضر معي طاقم من حراس الأمن ومعهم مفاتيح وبطاريات إضاءة، كما حضر الكهربائي برفقتهم، وقام على الفور بفصل الكهرباء عن الشقة، وباستخدام البطاريات وجدنا أن ماسورة الغاز الرئيسية محطمة تمامًا ـ بشكل متعمد ـ وتم على الفور إغلاق المصدر الرئيسي للغاز، وفتح جميع النوافذ والأبواب، واتجه أحدهم إلى السفارة للاتصال بقسم الشرطة وبمؤسسة الغاز، وقد حضر مندوبها على الفور ومعه ماسورة جديدة تم وضعها بدلًا من المكسورة، وأسرع في الخروج قبل وصول أفراد الشرطة، وأغلب الظن أنه قد جرى التنسيق في توقيت وصول كلٍّ منهما، وقد سألني ضابط الشرطة عدة أسئلة ليس لها أي معنى ولا تعني الجدية في التحقيق، ثم انصرفوا جميعًا، وأدركت ما كان مخططًا لي في حالة دخولي - كالمعتاد - بسيجارة مشتعلة، أو في حالة إضاءة الأنوار، حيث سيتم نسف الشقة في الحالتين، وبهذه الطريقة يكون التخلص مني قد حدث، ويبدو الأمر كما لو كان قضاءً وقدرًا، بسبب تسرُّب عرضي في ماسورة الغاز.

ولم أستطع البقاء في الشقة بعد هذا الحادث، فذهبت إلى السفارة بعد منتصف الليل، واتصلت بالسفير في دار السكن معتذرًا له عن إزعاجه باتصالي في وقت متأخر، ثم سردت عليه ما حدث، فطلب مني أن أقوم بإعداد رسالة بالحادث الأخير ليوقعها ويرسلها غدًا، وقال بغضب: «أنا على يقين أن هذا الحادث مدبر، وأنهم يسمعوننا الآن من

خلال أجهزة التنصت الخاصة بهم، وليكن معلومًا لهم أنني لن أدع هذا الحادث يمر هكذا، وسيكون لي معهم شأن آخر».

وفي صباح اليوم التالي - 30 مارس - قام السفير بإبلاغ وزارة الخارجية بما حدث، وقد علمت فيما بعد - من الزملاء في مكتب النائب كمال حسن - أنه استغرق في التفكير عند عرض الموضوع عليه، ثم قال: «إن ثمن حياة هذا الشاب سيكون خطاب اعتذار من جانب الحكومة الإسرائيلية للحادث المؤسف الذي وقع له قضاءً وقدرًا»، وأضاف أنه لن يجازف بحياتي أكثر من ذلك، واتخذ قرارًا بإعادتي إلى مصر بصفة سرية بقدر الإمكان.

*الليلة الأخيرة في تل أبيب :

في السابعة من مساء يوم 31 مارس، أُبلغت بوجود رسالة واردة «فوري وعاجل جدًّا»، فتوجهت على الفور إلى السفارة، وتسلمت الرسالة وقمت بكتابة نصها دون الاستعانة بزميل آخر «فني رمز» - وهو ما كان متبعًا من قبل - وكان مضمون الرسالة الموجهة إلى السفير يتعلق بي، حيث جاء فيها أنه في ضوء تصاعد المخاطر الأمنية تجاهي، وحرصًا على سلامتي، فقد تقرر نقلي وعودتي إلى القاهرة بشكلٍ سرِّي خلال الساعات الأربع والعشرين المقبلة، كما تضمنت الرسالة تعليمات للاتصال بأحد العاملين في شركة طيران «إير سيناء»، والذي حضر خصيصًا من القاهرة صباح اليوم لتلقي تعليمات كيفية

مغادرتي إسرائيل، وأدركت أن تعليمات الاتصال به يجب أن تتم فورًا للتنسيق معه بشأن كيفية المغادرة، وعلى الرغم من كل الأحداث التي واجهتها، وتوقعي حدوث ذلك، إلا أن قرار سحبي بشكل سري كان مفاجأة بالنسبة لي.

أخذت الرسالة وتوجهت إلى مكتب السفير، فأخبرتني سكرتيرته أن لديه مقابلة صحفية تجريها سميدار بري، وفي ضوء خطورة الأمر قررت مقاطعة المقابلة، وتجاهل وجود الصحفية، التي تزعمت فيما بعد الحملة الإعلامية ضدي، ودخلت إلى مكتب السفير دون استئذان، فبدت عليه علامات الدهشة لمقاطعتي اللقاء وعدم اكتراثي لوجود الصحفية سميدار بري، وشاهدت في عينيه قلقًا من إمكانية إثارتي لأي تعليق مضاد لها قد يحرج موقفه، وبالطبع لم يكن في نيتي شيء أكثر من عرض الموضوع في ضوء أهميته وضرورة اتخاذ إجراءات تنفيذية على وجه السرعة.

وقفت إلى جانب السفير بدون توجيه التحية للصحفية، وبدأ هو في قراءة الرسالة بإمعان وتركيز، ولمحت بطرف عيني فلاش كاميرا ولم ألاحظ وجود مصور مع سميدار يجلس خلف باب المكتب، وقد قام بالتقاط صورة لي مع السفير في أثناء قيامي بعرض الرسالة عليه، وثارت ثائرتي عند قيامه بتصويرنا، وطلبت بإصرار الحصول على الفيلم فورًا حتى أقوم بإتلافه، وحاول السفير تهدئتي، واضطربت سميدار وراحت تعتذر عمَّا بدر من المصور المرافق لها، والذي كاد يبكي متعللًا بأن الفيلم يحتوي على صور في غاية الأهمية لرئيس الوزراء بيجين ولوزير

الدفاع شارون، واضطررت لتركه بناءً على طلب السفير، وبعد تعهد سميدار بري وقسمها لنا بعدم نشر الصورة.

وبعد أن تم احتواء موقف الصورة، نظرت إلى السفير وقلت له باللغة العربية: «سأبدأ اتصالاتي لتغطية هذا الموضوع»، فقال: «اذهب بالتوفيق»، فخرجت وتركت سميدار بري، وأنا أثق في أنها لن تبر بقسمها، ولن تفي بوعدها، وهو ما حدث فعلًا، حيث نُشرت الصورة بعد ذلك في أكثر من صحيفة، منها على سبيل المثال: «إيديعوت إحرنوت» بتاريخ 9 إبريل 82، و«دفار»، و«جيروسالم بوست» بتاريخ 11 إبريل 1982.

*مغادرتي لإسرائيل سرًّا:

أجريت من مكتب سكرتيرة السفير اتصالًا بمندوب «إير سيناء» واتفقنا على اللقاء في بهو فندق «ديبلومات» بعد ثلاثين دقيقة، وبمجرد دخولي إلى الفندق فوجئت بنداء في الميكروفون باسمي لوجود مكالمة دولية تخصني في مكتب الاستقبال، وذهبت لتلقي المكالمة وأنا في حالة ذهول؛ لأنني لم أذكر لأحد أنني سأذهب إلى فندق «ديبلومات» في هذا الوقت، وكانت المكالمة من شقيقي سمير من نيويورك، وسألته بدهشة عن كيفية معرفته بوجودي في الفندق في هذا التوقيت رغم أنني لم أخبر أحدًا بوجودي هنا، فقال إنه اتصل بمنزلي ولم يجدني، فاتصل بالسفارة فلم يجدني أيضًا، وتم تحويله

إلى سكرتيرة السفير، التي ذكرت له أنني كنت في السفارة، ثم توجهت إلى فندق «ديبلومات» بعد أن أجريت مكالمة من السفارة، فاتصل وذكر لعاملة الهاتف أنني قد أكون في بهو الفندق لتناول القهوة مع أصدقائي، ولم أكن أعرف لماذا يعاني شقيقي كل هذا العناء من أجل الوصول إليَّ والتحدث معي إلا لو كان هناك ما يستحق كل هذا العناء، وقد دار بيننا حديث عائلي معتاد في البداية، ولم أبح له بأي شيء عن محاولات الاغتيال التي تعرضت لها، ولا عن ترتيبات مغادرتي لإسرائيل سرًّا، وسرعان ما أفصح شقيقي عن سبب إلحاحه في الوصول إليَّ حين قال إن والدي في حالة قلق وتوتر شديدين بسبب ما قرأه في الصحف البريطانية والعربية الصادرة في لندن عن موضوعي، وطلبت منه إجراء مكالمة مشتركة مع والدنا، وذكرت له أنني لن أستمر في المكالمة لمدة طويلة، بل فقط لطمأنة والدينا، حيث إن لديَّ مقابلة عمل مهمة، ثم أضفت - كنوع من التغطية على مغادرتي في اليوم التالي - أنه يمكنه أن يتصل بي في منزلي بعد يومين أو ثلاثة لإجراء مكالمة ثلاثية أخرى مع الوالدين لفترة أطول، وقد تحدثت مع والدي وطمأنته مؤكدًا له أنني أمارس حياتي اليومية بالشكل المعتاد، وأخبرتني أمي بأنها تدعو لي في مكة، وأنهيت المكالمة سريعًا، ثم التقيت المندوب الذي أبلغني تفصيليًّا بخطة المغادرة سرًّا في اليوم التالي، الأول من إبريل.

وكان يجب عليَّ أن أعود لأبدأ في جمع مقتنياتي المهمة وإعداد حقيبة خاصة على وجه السرعة، فتركت المندوب وعدت إلى السفارة لأجد السفير ما زال في السفارة بعد أن أنهى اللقاء الصحفي، وترك رسالة لدى أمن السفارة بضرورة مروري عليه في مكتبه، وبمجرد

دخولي قام وعانقني وكأنه يودعني قبل أن أرحل، وأبلغته بلقائي مع مندوب «إير سيناء» دون الإفصاح عن خطة المغادرة، ويبدو أنه أدرك ذلك، فنصحني بأن أتصرف بشكل طبيعي من حيث الحضور صباحًا إلى مكتبي في السفارة، مضيفًا أنه قام بتأجيل مقابلة له خارج السفارة حتى يكون في وداعي قبل مغادرتي إلى القاهرة.

بعد ذلك صعدت إلى مكتبي لجمع أوراقي المهمة وملفاتي الخاصة – بما في ذلك المقالات الصحفية المسيئة – ووضعتها في عدة مظاريف مغلقة باسمي، على أن يتم إرسالها بالحقيبة المصحوبة في الأسبوع التالي، ويتم توجيه هذه المظاريف إلى إدارة الأمن في وزارة الخارجية حتى يتسنَّى لي استلامها في القاهرة، ثم عدت إلى منزلي وبدأت في جمع ملابسي ومقتنياتي في حقيبتين وأرسلتهما مع أحد حراس الأمن إلى السفارة، وجلست أفكر وأراجع خطة الرحيل على النحو المتفق عليه مع مندوب «إير سيناء»، وفجأة رن جرس الباب، وعندما فتحت الباب وجدت شولاميت تقف أمامي، وكنت قد نسيت تمامًا أنني واعدتها في آخر مرة لقضاء هذه الليلة معي، وبعد دخولها قالت إن موعدنا كان في التاسعة والنصف، وإنها حضرت ولم تجدني في الشقة، فذهبت إلى إحدى صديقاتها، وفي الحادية عشرة قررت أن تجرِّب حظها وتمر عليَّ مرة أخرى.

جلستُ معها نتجاذب أطراف الحديث – في إطار تصرفي المعتاد معها – فسألتها عن أفواج السياحة القادمة، فذكرت أن السياحة بدأت في الهبوط اعتبارًا من يناير 1982 وبشكلٍ حادٍّ بسبب توتر الأوضاع في

إسرائيل داخليًا، وكذلك بسبب ما يتم في الضفة الغربية وغزة والقدس من أعمال شغب وتمرد وعصيان من الفلسطينيين، وبدرجة أقل من عرب إسرائيل، إضافة إلى التوتر الحادث على الحدود مع لبنان، ثم أخبرتني بأنها تلقت عرضًا للعمل في فندق «هيلتون» إيلات، وأنها أجرت بالفعل مقابلة وقبلت العرض ووقعت عقدًا لمدة ثلاث سنوات، وأنها ستحصل على أسبوع عطلة كل شهر، مؤكدة أنها ستحرص على قضاء هذا الأسبوع معي، وتعليقًا على كلامها ابتسمت وقلت لها إن القنصل العام المصري في إيلات هو المستشار حسن عيسى، وهو صديق لي، وإنها تستطيع الاعتماد عليه في حالة احتياجها لأي شيء، واتصلت به بالفعل في «إيلات» وأخبرته بأن صديقتي شولاميت ستبدأ عملها في فندق «هيلتون»، وطلبت منه مساعدتها في مجال السياحة والتأشيرات إذا كان ذلك ممكنًا، وتحدث حسن معها ورحب بها، مؤكدًا أنه سينتظر حضورها، وأنهيت الاتصال معه دون أن يعرف أنني سأغادر إسرائيل في اليوم التالي.

وبعد نصف ساعة من حضور شولاميت فوجئت بجرس الباب يرن، وكان روبرت وزوجته قد حاولا الاتصال بي في المنزل وفي السفارة ولم يجداني، فحضرا للاطمئنان عليَّ، وقدمتهما إلى شولاميت، وهمس روبرت في أذني قائلًا إنها جميلة وتستحق أن تشغلني عنه فلا أرد على مكالماته، ثم دعاني أنا وشولاميت إلى الخروج معه هو وزوجته، قائلًا إن هناك مجموعة من الأصدقاء يسهرون حاليًا في أحد الملاهي في انتظارنا، فاعتذرت له متعللًا بأنني أشعر بأعراض

«نزلة برد»، ولذا فإن شولاميت ستمضي معي الليلة لتقوم بتمريضي، وارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه وهو يعرض عليَّ إحضار طبيب أو أدوية، فشكرته قائلًا إنني أحتاج إلى بعض الراحة فقط، وقبل أن يرحل فاجأني بسؤال عما إذا كنت سأغادر إلى مصر في ضوء ما يتم نشره عني، فقاطعته مؤكدًا أن هذا لن يحدث الآن، وأنني إذا غادرت لاحقًا فسيكون ذلك في شكل إجازة أو كحامل حقيبة، وذهب بعد أن اتفقنا على وعد باللقاء في الأسبوع التالي.

كانت كل الظروف تساعدني على الرحيل سرًّا، فها هو روبرت قد حضر لرؤيتي واطمأن على استمرار تواجدي في إسرائيل، ومعي صديقتي التي ستمضي الليلة معي، وقد أوحيت له بأنها ستمضي معي الليالي الثلاث التالية، وفي الصباح، وقبل مغادرتي إلى السفارة، أخبرت شولاميت بأنها تستطيع مواصلة النوم لفترة أطول، مؤكدًا عليها أن تغلق باب الشقة عند مغادرتها، وأبلغتها بأنني متوجه إلى السفارة، وأن أمامي يوم عمل شاق وطويل، وسألقاها بعد عودتها من «إيلات» لانشغالي خلال اليومين التاليين، وعلى غير المتوقع فاجأتني شولاميت وهي تقول إنها قد بدأت تحبني بالفعل، ثم تجهش بالبكاء وتقول: «أشعر أنك متوتر، ولم تحظَ بنومٍ عميقٍ، فقد شعرت بك وأنت تدخن ولديَّ إحساس وشعور بأنني لن أراك مرة أخرى!»، فطمأنتها قائلًا إنني سأذهب إلى السفارة الآن لارتباطي بمواعيد عمل، ثم تركتها في الشقة وذهبت إلى السفارة في الثامنة والنصف صباحًا، وقمت بتوديع السفير سعد مرتضى، والوزير المفوض محمد بسيوني، والذي وعدني بأنه

سيشرف على جمع مقتنياتي وإنهاء تعاقد الشقة، كما ودعت المستشار أحمد جمعة، والسكرتير أول فاروق مبروك، وتحدثت معهم بشأن نقل بقية متعلقاتي وسيارتي إلى المكان الذي سيتم نقلي إليه.

*وصولي إلى القاهرة سرًّا:

لا أجد فائدة من الخوض في تفاصيل وترتيبات مغادرتي لإسرائيل سرًّا، فقد تم كل شيء بحرفية فائقة، حتى وصلت إلى الطائرة التي تقلني إلى القاهرة، وكنت متواجدًا بمفردي في الدرجة الأولى بالطائرة، حيث تم إعلام المسافرين قبل الرحلة بعدم وجود خدمة الدرجة الأولى بالطائرة، وتم إسدال الستائر ما بين الدرجة السياحية والدرجة الأولى، وجاءت المضيفة لترحب بي باللغة العربية قائلة: «أهلًا وسهلًا»، وفوجئت بذلك حيث إن المعتاد وجود طاقم مشكل من طيار ومساعد طيار ومضيفات أمريكيين على طائرات «إير سيناء»، وكان وجود مضيفة مصرية بمثابة مفاجأة لي، وفي منتصف المسافة - التي كانت تقطعها الطائرة في أقل من ساعة - توجهت إلى حمام الطائرة، ثم عدت إلى مكاني لأجد هدية - عبارة عن مجموعة من العطور - وبها بطاقة كُتب عليها: «من مصر ومن مصر للطيران لابن مصر البار تقديرًا لما قام به من أعمال»، وقد هزتني المفاجأة وأثرت فيَّ بشدة، ووجدت المضيفة تبتسم لي وهي تتقدم نحوي قائلة: «هذا هو أقل شيء يمكن أن تقوم به مصر ممثلة في شركة مصر للطيران في

أثناء رحلة عودتك بالسلامة»، وكانت لفتة كريمة وجميلة وذات معنى ومغزى، وقد قبلت الهدية بتأثر وقدمت شكري وتقديري للمضيفة التي حضرت فيما بعد ومعها بطاقتها الشخصية وعليها رقم هاتف منزلها، وطلبت مني أن أتصل بها بعد أسبوع!

وقد علمت ـ فيما بعد ـ أن طاقم الطائرة قد تم تطعيمه بمساعد طيار مصري، وبهذه المضيفة، وكان اسمها هدى، وأنه في توقيت ما قد تم قطع الاتصالات – ولا أعلم الجانب الفني بشأن ذلك – تخوفًا من استدعاء الطائرة للعودة إلى مطار تل أبيب بحجة اكتشاف وجود شخص إضافي بالطائرة دون تذكرة، ولم أعلم تفاصيل ما حدث بالضبط، ولم أسأل العاملين بالأجهزة المعنية عمَّن أعد خطة بسيطة ومحكمة لترحيلي سرًّا دون علم أحد بأنني قد غادرت إسرائيل، وقد ظل الجانب الإسرائيلي – بأجهزته المختلفة – غير مدرك لأنني غادرت إسرائيل لمدة تسعة أيام، عندما نشرت جريدة «إيديعوت إحرنوت» في عددها الصادر بتاريخ 9 إبريل 1982 مقالًا كتبته سميدار بري بعنوان: «عودة الصديق المصري للدبلوماسية البريطانية سرًّا إلى القاهرة»، وذكرت فيه أنني تركت إسرائيل سرًّا وعدت إلى القاهرة.

وبمجرد توقف الطائرة، طلبت مني المضيفة النزول على وجه السرعة، ووجدت سيارة مرسيدس سوداء، بها ستائر سوداء خلف نوافذها المقفلة، تحت سلم الطائرة مباشرة، وقام أحد الأفراد بإدخالي إلى السيارة على الفور، لنخرج بعد ذلك من باب خلفي في المطار – دون المرور بأي إجراءات – وقد اتصل بوزارة الخارجية مستخدمًا

جهاز اللاسلكي، وأبلغ مكتب النائب كمال حسن بأن «الأمانة وصلت سالمة من تل أبيب»، وجاء الرد باللاسلكي أيضًا: «النائب كمال يُبلغ تحياته وتهنئته بسلامة الوصول وفي انتظاره غدًا الساعة الواحدة ظهرًا».

ودخلت إلى منزلي، وكانت مفاجأة أذهلت زوجتي نادية وابني حسام، ولم تدرك ابنتي دينا شيئًا؛ إذ كان عمرها وقتها يزيد قليلًا على سنتين، أما حسام الذي كان عمره ثماني سنوات، فقد احتضنني وقبلني، وشعرت باشتياقه وحنينه إليَّ، واقتصر لقائي بنادية على السلام - كأصدقاء أو أقارب - وانتشر خبر عودتي ما بين العائلة، وحضر عدد منهم مساء اليوم نفسه للتهنئة بسلامة الوصول.

في اليوم التالي، ذهبت إلى لقاء الفريق كمال حسن في الموعد المحدد، وبمجرد دخولي قام من مقعده وعانقني، وشعرت بدفء وحنان الوالد في لقائه بي، وقد تحدثنا حديثًا مطولًا عما تم، واستعرض تقديره للموقف، وأنه كان لا بد من سحبي بهدوءٍ خوفًا على حياتي، وسألني عن رغباتي بشأن نقلي من الخارج إلى الخارج مباشرة، فأجبت بأنني أرجو ـ إن أمكن ـ استصدار قرار نقلي بصفة عاجلة، وأن يكون تنفيذه فوريًّا حتى لا تفسر عودتي وبقائي في القاهرة ـ من وجهة نظر الإعلام الإسرائيلي ـ بأنه استدعاء للتحقيق معي من جانب الخارجية المصرية والأجهزة المعنية، ووافق على طلبي، معلقًا الأمر على المكان الذي سأنقل إليه، ومدى وجود أماكن شاغرة فيه، ثم سألني عن المكان الذي أرغب في الانتقال إليه، فاقترحت أن أعمل في إحدى بعثاتنا الدائمة ـ في نطاق الأمم المتحدة ـ مثل نيويورك، أو

چنيف، للعمل في مجال المنظمات الدولية، وهو أفضل من العمل في المجال الثنائي، ورجوت أن يكون الاختيار هو نيويورك إن أمكن لوجود شقيقي هناك، وقد وافقني في هذا أيضًا، ووعدني بدراسة الأمر واتخاذ اللازم، وفي نهاية اللقاء أشار عليَّ بالتوجه إلى إدارة الأمن، وإلى إدارة شئون السلك – الأفراد – لتنفيذ الإجراءات الروتينية.

*اكتشاف سر تسجيل حوار الشاطئ:

التقيت مدير إدارة الأمن في وزارة الخارجية فطلب مني ضرورة عمل لقاءات مع قيادات الإدارة ووعدته بتنفيذ ذلك، وقد ذهبت فعلًا لعقد هذه اللقاءات والجلسات بداية من يوم 3 إبريل، وقد طلبوا مني أن أتحدث، وكانوا جميعًا في حالة إصغاء تام لكل ما أقول وأحكي عن فترة عملي في تل أبيب التي امتدت إلى تسعة أشهر ونصف الشهر تقريبًا، وكانوا يقارنون ما لديهم من معلومات من كافة سفاراتنا بإجاباتي عن أسئلتهم من واقع معلوماتي التي جمعتها من مصادري الإسرائيلية، وتحدثنا في موضوعات كثيرة للغاية، واستمرت هذه الجلسات لمدة ثلاثة أسابيع، وبمعدل مرتين أسبوعيًّا، وكانت كل جلسة تمتد لأكثر من ست ساعات، واستعرضت خلالها موضوعات كثيرة كنت أبذل قصارى جهدي في عرضها بتركيز شديد، مع قيامي بتقديم نموذج تحليل (Profile) لكل شخصية عرفتها في إسرائيل، وكانت أسئلتهم مختلفة ومتنوعة ولا نهاية لها، وقد أجبت عنها جميعًا، وسردت قصصًا

عايشتها سواء في مواقف لا صلة لها بعمل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، أو بأوضاع سياسية، أو عسكرية، أو اقتصادية، أو حتى من خلال حياتي الاجتماعية ومعارفي وأصدقائي، وكان هناك سؤال محير لهم، وهو إيجاد تفسير للمعلومات التي وردت بشأن كيفية تمكن «الموساد» و«الشين بيت» من تسجيل حديث لي مع رونا، خاص بالتوجهات الإسرائيلية، وذلك في أثناء سيرنا على الشاطئ بلباس البحر، وفي وجود عدد كبير من المصطافين والزائرين ورواد الشاطئ، وفي وجود ضوضاء عالية من أحاديث إلى لعب كرة المضرب، وانتهاءً بالموسيقى الصاخبة التي كانت تملأ الشاطئ بأكمله، وقد فهمت - دون أن يتم ذكر ذلك صراحة - أن الخارجية البريطانية أُبلغت في إطار التعاون الثنائي بأن جهاز «الموساد» قدم تسجيلًا صوتيًا لي مع رونا على شاطئ البحر، وكدنا نيأس جميعًا من التوصل إلى تفسير لذلك، خاصة وأن كل جلسة عمل كانت تبدأ بهذا التساؤل، ولا نصل في نهايتها إلى نتيجة منطقية ومقنعة، إلى أن خطر في ذهني - في إحدى الجلسات - وفي معرض حديثي عن أي تفاصيل غير ذات قيمة بالنسبة لي، وبعد إعادة رواية القصة نفسها، وعرض ما تم ذكره لأكثر من ست مرات، تذكرت وجود كلب بوليسي كبير من طراز «جيرمان شيبرد»، وكان كلبًا لطيفًا، وأنا أعشق هذا النوع من الكلاب، فرحت ألاطفه وأربت ظهره ورأسه وأداعبه، وكنا نلاعبه أنا ورونا، وكان يسير معنا وحولنا وإلى جانبنا، وهنا قفزت عدة أسئلة: كيف كان شكل هذا الكلب؟ وكيف كانت طريقة سيره معكما؟ وماهو شكل الطوق الذي كان في عنقه؟ وفي النهاية توصلوا إلى أن الكلب كان مدربًا تدريبًا عاليًا، وأن مدربه كان

يسير في مكان قريب منا، ويُصدر له التعليمات بالسير بجانبنا وخلفنا وأمامنا، وفي داخل الطوق الذي حول رقبته كان يوجد جهاز إرسال، وكانت تقف بالفعل سيارة من سيارات شرطة حماية الشواطئ على مقربة من الشاطئ، وتذكرت أنه قد لفت نظري وجود هوائي ضخم وطويل مثبت على مقدمة السيارة، وهذا يرجح أنه كان يلتقط الإشارات الصادرة من جهاز الإرسال المزروع في طوق الكلب، وقد تم تسجيل الحديث بأكمله، وهنا فقط تم حل اللغز، وكان أسلوب المخابرات الإسرائيلية في هذا الموقف جديدًا وفريدًا من نوعه.

وقد تحدثت أيضًا، وبكل صراحة، عن علاقتي مع كل من الملازم أول إيريت، والنقيب يوديت، والدخول معهما في علاقة عاطفية بعد تأكدي أنه لم يتم دفعهما من جانب أيٍّ من الأجهزة الإسرائيلية.

وتحدثت معهم بشأن رونا وإمكانية ترتيب لقاء سري معها في أي مكان في أوروبا أو بريطانيا، وكان الرد أن ذلك سابقًا لأوانه ولننتظر لنرى كيف ستسير المحاكمة، وعند تساؤلي حول إمكانية تعويض رونا ماديًا عن أضرارها وتركها لوظيفتها الدبلوماسية في الخارجية، كان ردهم أن الإقدام على مثل هذه الخطوة بشكل غير محسوب ومدروس من شأنه الإضرار بها حتى بعد انتهاء المحاكمة؛ لذلك يجب الانتظار ودراسة ما ستسفر عنه المحاكمة، وحول تقديرهم لموقف رونا في القضية، قالوا إن الجانب البريطاني لن يجد شيئًا يدخل تحت بند إفشاء أسرار تمس الأمن القومي البريطاني، وبالتالي يمكن توقع حكم بالبراءة مع الاستغناء عنها أو استقالتها من الخارجية، إلا أن ذلك يعتمد على القاضي والظروف

المحيطة بالمحاكمة، مشيرين إلى أن الوزارة ستكلف مندوبًا من السفارة للحضور مع العامة لمتابعة جلسات المحاكمة.

***

لم تهدأ الخلافات مع زوجتي، منذ عودتي إلى القاهرة؛ لذلك قررت إنهاء إجراءات الطلاق والانتقال إلى شقة والدي المغلقة، وبذلك انتهت علاقتي بزوجتي، والتي استمرت ما يزيد على تسع سنوات، وكان يمكن لها أن تنتهي النهاية نفسها بعد مضي سنتين فقط!

وفي السابع من إبريل، استدعاني النائب كمال حسن، وفي أثناء اللقاء قال لي إن إدارة الأمن تعترض على نقلي إلى نيويورك لا لشيء إلا لاعتبارات قوة اللوبي اليهودي وسيطرته على مجريات الأمور هناك.

عدت إلى شقة والدي وبدأت أتدبر أمور معيشتي، وفي اليوم نفسه اتصل بي والدي من السعودية وأعرب عن سعادته لعودتي سالمًا إلى مصر، وقال لي إنه يقرأ ما ينشر عني ويشعر بالقلق، ونصحني بالبقاء في مصر لأنها أكثر أمنًا.

*قرار نقلي إلى ڤيينا :

استدعاني النائب كمال حسن في 12 إبريل مرة أخرى، وأبلغني بأنه بعد دراسة الموقف، فقد أصدر قراره بإلغاء نقل المستشار إبراهيم علام إلى ڤيينا ليصبح إلى باريس، مع استصدار قرار جديد بنقلي إلى

ڤيينا، وأن التنفيذ سيكون فوريًا استجابة لرغبتي، وبالتالي فإنه قد وجد حلًا يتفق مع مخاوف إدارة الأمن، وفي الوقت نفسه يحقق رغباتي من ناحية نقلي إلى دولة المقر الثالث للأمم المتحدة، وبها الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وقدمت شكري البالغ وتقديري للنائب، ثم استأذنته في تأجيل سفري لمدة شهر، فنظر إليَّ بدهشةٍ قائلًا إنني مَن طلب التعجيل بنقلي في أسرع وقت، فبررت طلبي بأنني أنهيت إجراءات طلاقي وأحتاج إلى بعض الوقت لترتيب أموري مع طليقتي وتدبير شئون الأولاد، فوافق على طلب التأجيل، وفي نهاية اللقاء صافحني وقال لي إنني سأعمل في ڤيينا بالمجالين الثنائي والمتعدد، ملمحًا إلى رغبته في التركيز على المتعدد، خاصة وكالة الطاقة الذرية، مشيرًا إلى أنه بعد وصولي سيكون هناك اجتماع لمجلس محافظي الوكالة، وأن أول بند ستتم مناقشته هو تدمير إسرائيل للمفاعل النووي العراقي، وطلب مني أن أركز على هذا الموضوع استمرارًا لعملي في تل أبيب، ووعدته بتنفيذ ذلك على أكمل وجه.

وخلال شهر إبريل لم تنقطع المقالات المسيئة عني في الصحف الإسرائيلية، وبعد التأكد من مغادرتي لإسرائيل، بدأت الصحف في الحديث عن خروجي سرًا وبتكتم شديد، وعن استمراري - في الفترة السابقة لذلك - في موقعي بالسفارة ومشاركتي في اللقاءات الثنائية والأحداث المختلفة، مع الاستمرار في تكرار قصص الغرام والمغامرات النسائية، أما في مصر، فقد علمت بتوجيه تعليمات من جانب الأجهزة المعنية لأجهزة الإعلام المصرية بعدم النشر فيما يتعلق بقضيتي، وقد استجابت كل الصحف، باستثناء ما تم نشره في جريدة «الجمهورية» - بالخطأ - نقلًا عن وكالات الأنباء.

وبدأت في متابعة ما يُنشر في لندن بعد جلسة محاكمة رونا في 27 إبريل 1982، التي تم فيها توجيه الاتهام لها، طبقًا لما جاء في جريدة «التايمز»، وبتاريخ 30 إبريل نشرت جريدة «الجويش كرونيكل» - التي تصدر في لندن - أن رونا حضرت ثلاث جلسات في محكمة «هورس فري رود ماجيستير كورت»، حيث تم تلاوة قرار الاتهام، وأضافت الجريدة أن الادعاء أعلن أنه سيقدم ثلاثة شهود، بينهم شخص يُدعى مايلز، وتحدثت مع الزملاء في إدارة الأمن عنه، فذكروا لي أن لديهم معلومات ممن تم تكليفهم بحضور جلسات المحاكمة من السفارة بأن مايلز هو نفسه ديفيد، الذي تم إرساله إلى تل أبيب، وأتقن تمثيل دوره كدبلوماسي، وهو الذي أشرف على ترحيل رونا، وسافر معها على الطائرة نفسها دون أن تشعر هي أو سفيرها بوجوده، بعد أن درس أسلوب حياة رونا وتعرف على أصدقائها وصديقاتها، ولذلك فإنه سيُعتبر شاهدًا أساسيًّا في القضية.

وقد سارت القضية في طريقها المعتاد، وكنت أتابعها من خلال الصحف التي تصلني بعد انتقالي إلى سفارتنا في ڤيينا، حتى اتصل بي الزملاء من السفارة المصرية في لندن، وأخبروني بأن الحكم على رونا قد صدر مخففًا للغاية، حيث قضت المحكمة بسجنها لمدة تسعة أشهر، مع إيقاف التنفيذ لمدة سنة، ورغم تأكيد زملائي بأن الحكم مخفف، ورغم إدراكي أنا لذلك، إلا أنني لم أكن سعيدًا به؛ إذ كان لديَّ أمل كبير في حصولها على البراءة.

خاتمة

لا شك أن مستقبل أي دولة يتوقف على حجم ودقة وصحة المعلومات التي يحصل عليها جهاز مخابراتها، وهو ما يُعد بمثابة الضوء الذي ينير الطريق أمام القيادة لاتخاذ القرارات الإستراتيـچـية العليا في سياسة الدولة القومية.

وقد عملت إسرائيل منذ نشأتها في عهد بن جوريون، على جعل «الموساد» مؤسسة دولية ذات مهام إستراتيـچـية لمراقبة الأعداء والأصدقاء معًا، ولهذا استعانت إسرائيل واعتمدت على الطوائف والجاليات اليهودية ومنظماتها في مختلف أنحاء العالم، إضافة إلى المؤسسات الصهيونية العالمية، التي تنتشر شبكاتها في العديد من الدول، وفي تقدير الخبراء أن جهاز «الموساد» هو المخطط الرئيسي لمعالم السياسة الإسرائيلية داخليًا وخارجيًا، ولذا اعتمد على مصادره البشرية بصورة أكبر من اعتماده على المصادر التقنية والتكنولوچـية، بمعنى أن عنصر الجاسوس البشري كان هو قاعدة «الموساد» الأصلية من خلال انتشاره بحكم ازدواج الجنسية للمواطن الإسرائيلي، وتواجد جاليات يهودية فيما يزيد على 86 دولة في مختلف أنحاء العالم، ولقد عملت إسرائيل جاهدة على ربط هذه الجاليات بالوطن الأم ووضع

أولوية خدمة إسرائيل قبل مصالح الدول المقيمين فيها، الأمر الذي ساهم في تنامي العمق الإستراتيـجـي لإسرائيل - من خلال هذه الجاليات - في مجال العمل المخابراتي وجمع المعلومات.

ومنذ بداية تواجدي في إسرائيل، تولَّد لديَّ انطباع بأن إسرائيل مجتمع يميل إلى المغالاة والهستيرية في كل شيء، حتى في مجال الرياضة، فانتصاراتها تُستقبل بابتهاجٍ استثنائي، وهزائمها باكتئابٍ قومي، وتصرفات مواطنيها وردود أفعالهم تتسم بالمبالغة، ولقد تأكد لي خلال تعاملاتي مع الأفراد والمواطنين - الذين عرفتهم بعيدًا عن مجال العمل الرسمي - أن لديهم قناعة ثابتة بأن الدولة العبرية لم تنشأ فقط من أجل حل المشكلة اليهودية في أوروبا، وإنما باسم الرغبة في إقامة دولة أوروبية في الشرق الأوسط، ينتمي إليها مجتمع أوروبي عصري هو المجتمع الإسرائيلي، كما أعربوا أيضًا عن إيمانهم بأن الصهيونية الحديثة استهدفت تحرير اليهود من مجتمعاتهم المعزولة، ومن عزلتهم وتخلفهم في أوروبا، وأن تعيد لهم كرامتهم، في ضوء كونها حركة تحرير وطنية، وأن ينال اليهود حريتهم، وأن يكون لهم كيانهم في أرضهم القديمة، وأن الهدف الأسمى للصهيونية هو الوصول إلى حق الشعب اليهودي في أن تكون له أمته كبقية الأمم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يمكن تطبيق هذه الحقوق والمبادئ على الفلسطينيين أو على أي مواطن غير يهودي في كوكب الأرض؟ الإجابة بالطبع واضحة.. فلقد اعتنق الإسرائيليون مفهوم الحرب، بدليل العدد الكبير من المبادرات السلمية التي رفضتها إسرائيل، فعلى

سبيل المثال – لا الحصر – في خلال أقل من عام ونصف صدر «إعلان البندقية» من الدول الأوروبية التسع في يونيو 81، وفي أغسطس 81 قدَّم الأمير فهد – ولي العهد السعودي في ذلك الوقت – مشروعًا لحل القضية عُرف باسمه، وفي أول سبتمبر 82 – عقب الغزو الإسرائيلي للبنان – صدر مشروع ريجان لحل القضية، وفي منتصف سبتمبر 1982 تقدم الاتحاد السوفييتي بمشروع بريجينيف لحل القضية، ولم تتحرك إسرائيل باتجاه أيٍّ من هذه المشاريع خطوة واحدة، على الرغم من تنوع مصادر هذه المبادرات من أوروبية، وأمريكية، وسوفييتية، وعربية!

ويرى العديد من اليهود والإسرائيليين أنفسهم، أن إسرائيل استثمرت مصادرها المختلفة والتقنيات والتكنولوچيا التي حصلت عليها من شتى أنحاء العالم، في تعزيز ثقافة ومفهوم الحرب ودعم الصناعات العسكرية والعمل المخابراتي، بدلًا من توظيفها للأغراض السلمية والعلمية في مجالات البحث والصحة والعلوم.. إلخ.

وقد أيقنت، من خلال تعاملاتي في إسرائيل، أن أهم نقاط القوة في المخابرات الإسرائيلية – وعلى رأسها «الموساد» – هي قدراتها العالية في الحصول على المعلومات المطلوبة وجمعها، كما تتفوق في استخدام تجارة السلاح وتقديم كميات كبيرة منه للحكومات الأجنبية، وذلك من خلال مكتب خاص كان دائمًا بمثابة مفاتيح لهذه الأنظمة، ومدخل لإقامة العلاقات مع المسئولين في هذه الدول، حيث كانت إسرائيل تمتلك في ذلك الوقت 112 مصنعًا عسكريًّا، واحتلت المرتبة السادسة عالميًّا في تصدير الأسلحة إلى ستين دولة من خلال شركات

إسرائيلية كبيرة، كما تميزت «الموساد» والمخابرات الحربية «آمان» بمقدرتهما على التخطيط والقيام بتنفيذ مهام محددة على أهداف بعيدة بدقةٍ ونجاحٍ، وبأقل الخسائر.

لكنني، من ناحية أخرى، اقتنعت - في ذلك الوقت - بأن أهم نقاط الضعف كان تقييم وتحليل المعلومات المتاحة، التي تم جمعها والخروج بتقدير موقف واستقراء صحيح للأوضاع، وربما كان ذلك بسبب تنافس الأجهزة المعنية، ما أسفر عن عدم التنسيق فيما بينها، بدليل أن تقييم المخابرات الإسرائيلية لنصر 1967 لم يتضمن عرضًا للمتاعب المتوقع أن تعاني منها إسرائيل من جرَّاء الاحتفاظ بالضفة الغربية وقطاع غزة لمدة طويلة، كما أنها لم تنجح في تحليل مواقف وشخصية الرئيس السادات، حيث لم يسفر تقييمها للموقف العسكري عن التنبؤ بحرب أكتوبر، أو توقع خطوات السادات نحو مسيرة السلام، ولم تُحسن المخابرات الإسرائيلية تقدير الموقف في اجتياح لبنان، ولم تتوقع فشل الغزو وعدم تحقيق أيٍّ من أهدافه، وهي أيضًا لم تتوقع نشوب حرب بين العراق وإيران، ولم تتنبأ بانتهاء الحرب في عام 1988، وهكذا..

ومن خلال تواجدي للعمل في تل أبيب، فقد خرجت بقناعة مفادها، أن عمل أجهزة المخابرات الإسرائيلية - بتنوعها - ما هو إلا مرآة تعكس صورة ومكونات المجتمع الإسرائيلي، التي تستمد المخابرات قوتها منه، وتقوم على خدمته انطلاقًا من عناصر شخصية هذا المجتمع وثقافاته ومفاهيمه، كما أيقنت أن عملها أيضًا هو امتداد لسياسات

إسرائيل في الداخل والخارج، فإذا كانت السياسات خاطئة وقائمة على مبادئ أكثر خطأً، فلن تستطيع أجهزة المخابرات الإسرائيلية أن تُصلح منها، بدليل أن معظم الإسرائيليين الذين تحدثت معهم أجمعوا على أنه حتى لو قامت أجهزة المخابرات الإسرائيلية بتقديم تقدير موقف يُشير إلى احتمالات نشوب حرب أكتوبر، لما اتخذت جولدا مائير، وموشي دايان، قرارًا ببدء الحرب، أو بتوجيه ضربة إجهاضية؛ لأن كليهما، ومعهما بقية أعضاء القيادتين السياسية والعسكرية الإسرائيلية، كانوا تحت تأثير «المفهوم» (The Concept)، والمتضمن قناعة بأن العرب لن يحاربوا إسرائيل أبدًا بعد هزيمة 67، وبالمقياس نفسه، فإن بيجين وشارون لم يكترثا لتقديرات «الموساد» بشأن غزو لبنان؛ لقناعتهما بحتمية نجاح العمل العسكري، ولم تستطع تقارير وتقديرات «الموساد» منعهما من اتخاذ قرار الغزو الفاشل.

كما خرجت أيضًا بقناعة مفادها أن مفاهيم ومبادئ وأسلوب عمل وأداء المخابرات الإسرائيلية، ما هو إلا خليط ومزيج من عناصر أسلوب ومفاهيم وأداء المخابرات البريطانية والفرنسية والأمريكية والسوفييتية معًا، فمن المعروف أن المخابرات البريطانية تعتمد في الأساس على العنصر البشري وذكائه في إدارة اللعبة، فهي مخابرات أنيقة نادرًا ما تلجأ إلى العنف، وتعتمد على العقل المدبر في التخطيط، وعلى القدرات البشرية في التنفيذ، بينما المخابرات الفرنسية عادة ما تتخبط بين قرارات الحكومة وأفعالها، أما أسلوب المخابرات الأمريكية فمعلوم عنه أنه أسلوب المال والأعمال (Big Business)، فأجهزة المخابرات الأمريكية تعتمد على الكم الهائل من المعلومات التي تحصل عليها

وتدخلها في آلة النظام (System)، وعلى العمل كفريق مصحوب بأحدث التقنيات، وما توصل إليه العلم من تكنولوچيا، وقد تلجأ إلى العنف غير المحدود حتى في قصف المدنيين، وقد يصل الأمر إلى قلب أنظمة الحكم والتصفية الجسدية لرؤساء دول، ودائمًا ما يتم ذلك تحت لواء «حماية العالم الحر»، ومظلة «الحفاظ على الديمقراطية»، وحقيقة الأمر أن ذلك يأتي من منطلق المصلحة الذاتية الأمريكية.

أما النظام السوفييتي - السابق - فقد رأى في أجهزة مخابراته أداة للحفاظ على نظام الحكم وبقاء النظام الشيوعي - قبل انهياره - ولذلك فقد كان يُنظر إلى العميل في الـ (KGB) - بل وينظر هو إلى نفسه - باعتباره «ترسًا» في آلة جماعية، وجزءًا من الكل، وعادة ما يكون آلة مطيعة في مصنع البيروقراطية والسلَّم الإداري وهرم السلطة.

وفي إطار ذلك، فإن تأثير مفاهيم وأداء عمل أجهزة المخابرات الأربعة السابق ذكرها - من وجهة نظري - قد ترك بصمات واضحة على أسلوب العمل المخابراتي الإسرائيلي منذ نشأته في عام 1948، بحيث أصبحت أجهزة المخابرات الإسرائيلية تمثل حصيلة ما ورثته وتبنته ونقلته بل ونسخته من أساليب ومبادئ ومفاهيم مخابراتية في دول هي بلا شك أقدم كثيرًا في الوجود من المخابرات الإسرائيلية، بل والدولة نفسها، ورغم تنوع قادة الموساد في أدائهم ما بين الأسلوب البريطاني، والتطبيق السوفييتي، والمنهج الأمريكي، وغير ذلك، فإن المخابرات الإسرائيلية كانت تميل دائمًا - في ذلك الوقت - إلى الاعتماد على العنصر البشري وقدراته كمصدر للمعلومات، وكعنصر تقييم وتقدير،

والمرحلة الأخيرة لاتخاذ القرارات الإستراتيـچـية بما في ذلك القرارات المصيرية الخاطئة.

النقطة الأخيرة تتعلق بنوعية العمل الذي قمت به في إسرائيل، وأود أن أؤكد مرة أخيرة على أنني لم أُكلَّف بأي عمل، أو طلب احتياج، أو مجهود، من جانب جهاز المخابرات المصري، وأن كل ما قمت به كان بمجهود شخصي وبمبادرة مني، وأن عملي في جمع المعلومات كان يتم بطريقة طبيعية وبدون التفكير وبدون تدريب مخابراتي مسبق، وقد قمت بمجهود ذهني منظم، وبطريقة واعية وذكية لجمع المعلومات من أكثر من مصدر، وتنقيتها، وتحليلها، وتقييم ما تحتويه، وإيجاد تفسيرات ومبررات لما أحصل عليه من معلومات كنت أحصل عليها من مواطنات ومواطنين إسرائيليين تعرَّفت عليهم جميعًا في أثناء عملي بالسفارة في تل أبيب، وكنت أستخدم أساليب نفسية لإثارة الجدل العقلي لفهم وتقييم آراء ومعلومات مصادري، وبتجميع نتائج ما سبق، بدأت أحصل على صورة أكبر وأكثر وضوحًا، جعلتني أخترق الضباب الذي خيَّم على نوايا إسرائيل في اجتياح لبنان، ولا شك لديَّ أن الأجهزة الإسرائيلية المعنية، وعلى رأسها جهاز «الشين بيت» لمكافحة التجسس لم تستطع اكتشاف، أو التوصل إلى مصادري الحقيقية، وتحسبًا لحصولي على مزيد من المعلومات السرية والحساسة، ودرءًا للمزيد من المخاطر، ولضرب أكثر من عصفور بحجرٍ واحدٍ، قررت إسرائيل المضي في تسريب معلومات محددة للجانب البريطاني، وإقناعه بقيامي بتجنيد الدبلوماسية البريطانية رونا للتجسس لصالح مصر، وهو الأمر الذي لم يحدث على الإطلاق.

وفي النهاية أتوجه بنداء إلى السيدة رونا ريتشي، التي لا أعلم ما إذا كانت حية ترزق أم لا، بعد أن فشلت في العثور عليها أو تحديد مكان تواجدها، أرجوها أن تظهر مرة أخرى إلى العالم، وأن تقرأ كتابي هذا الذي أُعلن فيه على الملأ، وأمام السلطات البريطانية والإسرائيلية، بأنها لم تكن مصدرًا من مصادر معلوماتي في أي وقت في أثناء تواجدنا في إسرائيل، وأنها ظُلمت ظلمًا كبيرًا لأسباب ودوافع إسرائيلية، ولتعلم أن أمر تبرئة ساحتها كان خارجًا عن إرادتي في ذلك الوقت، ولحين تركي العمل في وزارة الخارجية؛ لأسباب أمنية معروفة لدى الجميع، وأن هدفي من لقائها ـ الذي أترقبه ـ هو الإعلان عن ذلك أمام كل أجهزة الإعلام البريطانية والإسرائيلية والعالمية، ورد اعتبارها واستعادة كرامتها أمام نفسها وعائلتها ومواطنيها وحكومتها وأجهزة مخابراتها.

ملحق الصور



● ריפעת אל־אנסארי, הדיפלומט המצרי, שעל פי הפירסומים קיבל מידע מהדיפלומטית הבריטית רונה ריצ'י, היה אתמול בין מקבלי פניו של יועץ הנשיא מובארך, ד"ר אוסאמה אל־באז, בבואו לארץ. אל־אנסארי, המזכיר הראשון בשגרירות המצרית בתל־אביב, קיבל את ד"ר אל־באז יחד עם השגריר סעד מורתדה ומנכ"ל משרד החוץ, דוד קמחי. ד"ר אל־באז הגיע לארץ במטוס מנהלים קטן בלוויית עורך השבועון המצרי „אוקטובר", אניס מנצור. בתצלום (מימין לשמאל): דוד קמחי, אוסאמה אל־באז, וסעד מורתדה (מוסתר מעט). משמאל נראה ריפעת אל־אנסארי.
(כתב: דן ארקין; צילם: שמואל רחמני)

وصول د. أسامة الباز بمطار «اللي» وعلى يساره ديفيد كيمخي وخلفه السفير سعد مرتضى والمؤلف في أقصى الصورة.



Egyptian Ambassador Sa'ad Mortada (right) confers last week with First Secretary Rif'at Ansari, shortly before Ansari was quietly recalled to Cairo. Ansari was recently cited in connection with the recall to London of Tel Aviv British Embassy staffer Rhona Ritchie, who is suspected of giving him classified information.

Egypt recalls envoy named in British espionage case

الصورة التي التقطها المصور المرافق للصحفية «سيدار بري» دون إذني في أثناء عرض برقية خروجي من إسرائيل على السفير سعد مرتضى



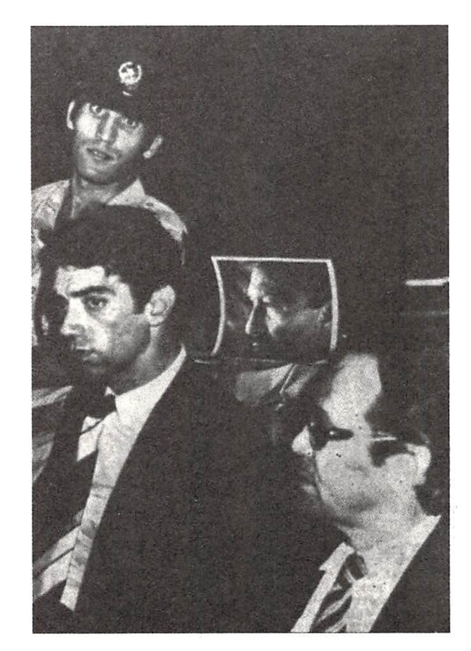
مع سفير المنظمة الأوروبية والسفير البريطاني في الجولان



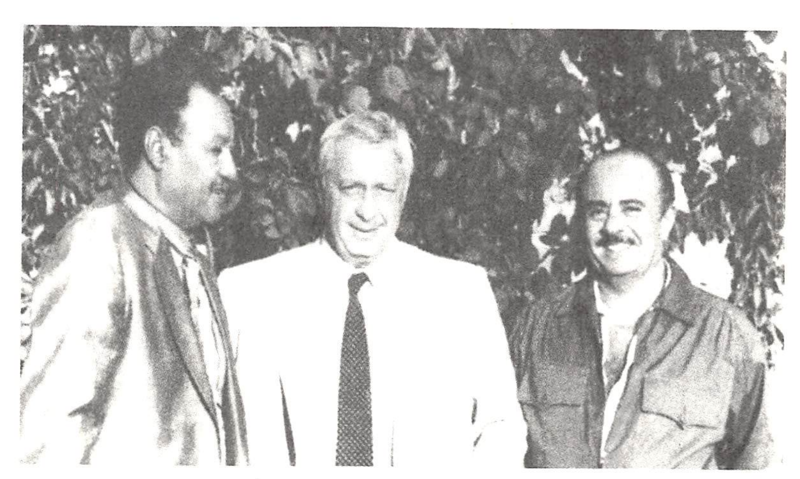
مع وزير السياحة جمال الناظر والسيد شنيتزر مدير عام مركز الألماس



مع اللواء محسن حمدي في مباحثات التطبيع



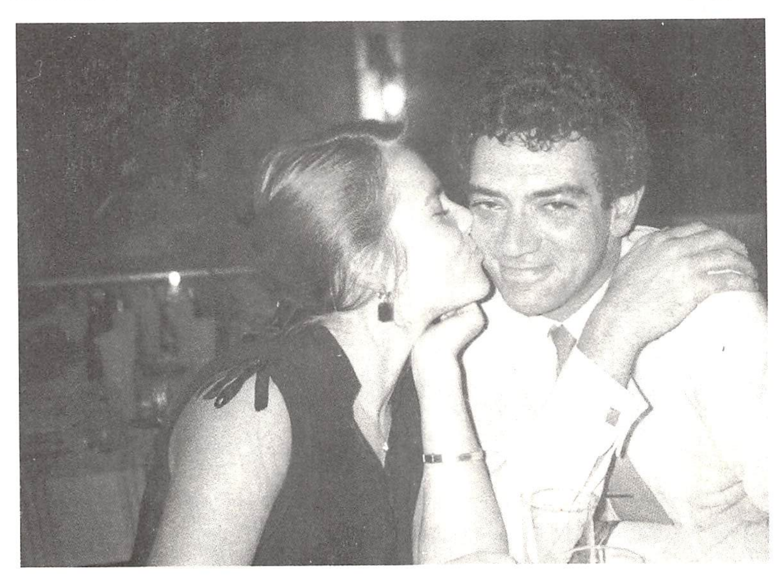
صورتي مع السفير سعد
مرتضى في حفل تأبين الرئيس
السادات بميدان الملوك



لقاء الرئيس جعفر نميري مع شارون برعاية رجل الأعمال السعودي عدنان خاشقجي بمنتجع كيلمنجارو في كينيا



مع مجموعة من الدبلوماسيين في الجولان المحتل



قبلة من صديقتي الألمانية «سيجي»



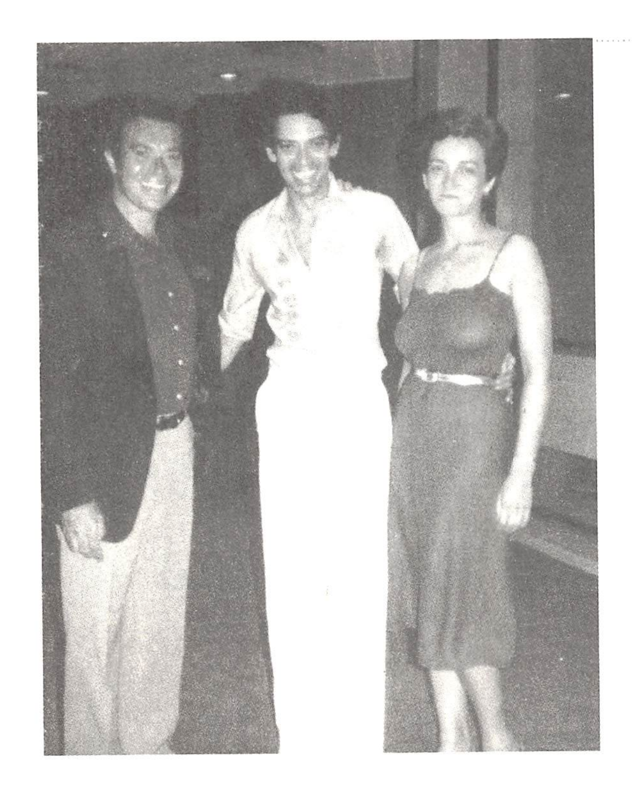
في حيفا: من اليمين صديقة سمير - صديقتي هنريت - شقيقي سمير - آڤي - راحيل زوجة روبرت- أنا- زوجة آڤي.



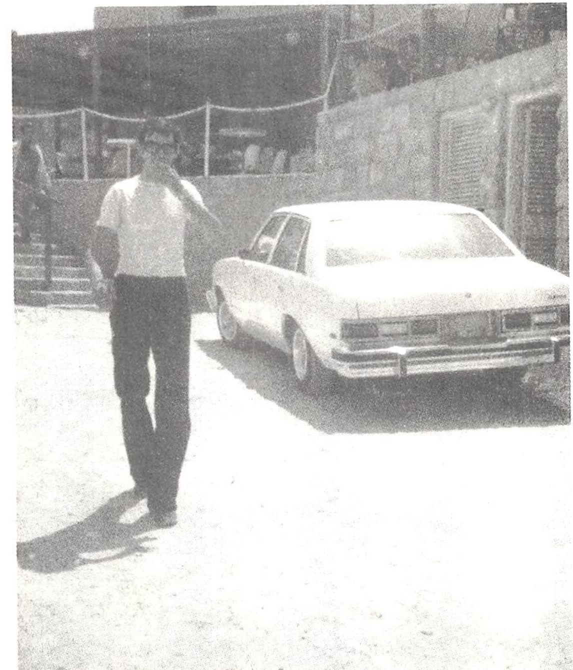
مع صديقتي الأمريكية «آن»



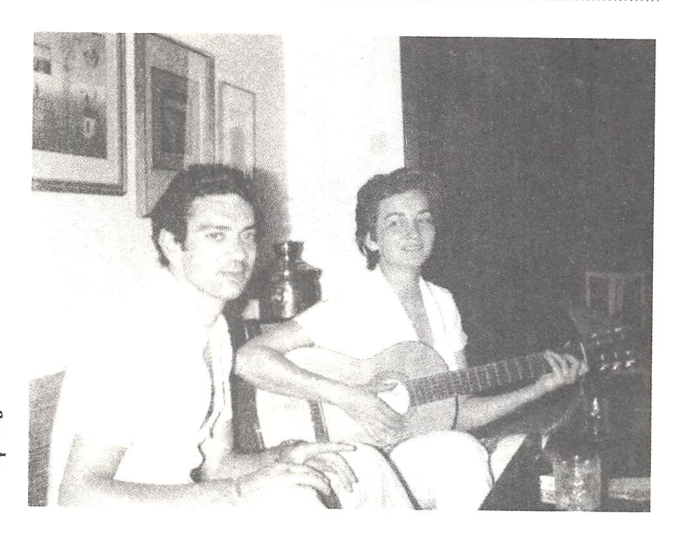
أنا ورونا في
مدينة القدس



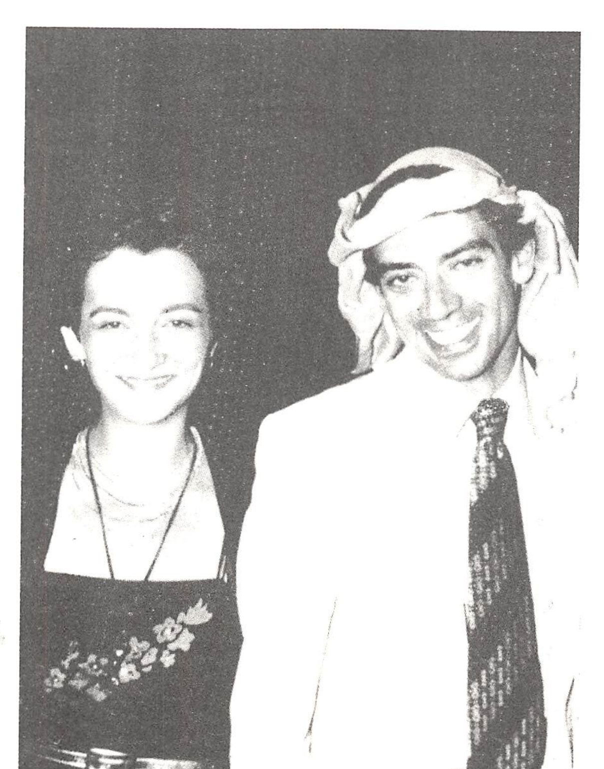
مع رونا وشقيقي سمير في عيد ميلاده بهيلتون القدس



سيارتي بعد سرقة لوحتها المعدنية الخلفية في تل أبيب



مع رونا في
جلسة هادئة
بمنزلي



احتفال ليلة رأس
السنة مع رونا



أنا ورونا أثناء الاحتفال
بأعياد الميلاد
في القدس



مع روبرت وزوجته راحيل وصديقتي آن خارج تل أبيب

فهرس

النشأة والتكوين

الطريق إلى تل أبيب

أيامي الأولى في إسرائيل

توطيد علاقتي بالإسرائيليين

حقيقة خريطة إسرائيل الكبرى

اغتيال الرئيس السادات

محاولة فاشلة لاغتيال عرفات

غزو لبنان الذي لم يتم

أوقات عصيبة في إسرائيل

مغادرتي إسرائيل سرًّا